

سميحة خريس



رواية

نار ورق

امبراطورية ورق



"نارة"  
إمبراطورية ورق

رواية  
سميحة خريس

## المقدمة الأولى

### ما قالته "نارة"

أمضيت عمري (القصير.. القصير) بين سخام المطابع وبلاط صاحبة الجلالة "الصحافة"، احتكّت أنا ملي بالورق وتلوثت بالحبر حتى النخاع . رغم أن حلم الطفولة الأول كان تلويث فستاني بالشوك ولانها إلا أنها لم تكن مادة سهلة المنال، فإذا ما توافرت رحت أمت صّها ببطء مستبقيةً رطوبتها وحلاوتها في لساني مانعةً أيّ قطرة أن تسيل خارج فمي.

حلم الطفولة الآخر، نوعٌ من الصعلكة البريئة، إذ طالما اشتته يمتدعك ركبتى بتراب الحارة، وتمزيق بنطالي على الإسفلت الأسود، ولكني بنت، لهذا بدا حلمي الثالث (الصحافة) متاحاً جداً، منطقياً ومقبولاً.. الادّعاء بهصل رائق وخاص يربطني بالقلم، الأداة الوحيدة التي يعني التلوث بها شرفاً من نوع ما، أو انتساباً إلى حلم ممكن، أو تأهباً لوضع اقتصادي غير واعد بكل الأحوال.. . عرفت أني مندورة للحبر لا عن طيب خاطر، ولكن هكذا، كاحتمال وحيد لعبور العالم .. إنها نافذة الحرية المتوهمة، أو التعبير المنقوص (إن صح التعبير)، فمنذ اللحظات الأولى التي تفصّد فيها الحبر من مؤخرة القلم إلى أصابعي، ملطّخاً كمّ المربول الأخضر وإبهامي والسبابة مبقعاً الرسع حيث تتكئ يدي على طاولة في صفّي المدرسي، عرفت أن الحبر يحاصرني، و إن فاتتني البلاغة بمعناها المعجمي والنحوي والأدبي.

معلمة الصفّ (التي كنا نسميها "الأم مدرسة") تنظر نحوي شزراً إذا ما قرأت موضوع التعبير . بصراحة أنا لا أعرف لماذا عليّ أن أكتب موضوعاً عن الربيع، أو رحلة الجمعة، أو عيد الأم؟! لم يكن بالإمكان أن أترك "جبل الأشرفية" حتى في الجُمع الندية الربيعية لأتسكّع في رحلة في وادي شعيب مثلاً. يحدث هذا مع أترابي اللواتي يمتلكن آباؤهن سيارات قديمة تُصدر "كركبة" وتترجرج فوقها الحُصر وطناجر الطبخ ومناقل الفحم وزجاجات البيبسي كولا والسفن أب، الربيع! كيف يكون لي أن أعرف أن ربيعاً حلّ ما دام الفصل الذي يتغنون به لا يمر بـ "الأشرفية"، وما دام جسد جدّي الملقى في القبو، أو على طرّاحة عتيقة بين الباب الرئيسي وشرفة متصدّعة تقود إلى الدرج، يعيق رحلاتنا الممتنّة؟! لا أقول هذا عن حقد، فالتعاطف يحكم علاقتي بالرجل الصامت

الناسي، ولكنني أتذكر فقط أسباب غيظي من موضوع الإنشاء الأبله.  
أما عيد الأم! كيف سيكون هناك عيداً لأم لا وجود لها إلا طيفاً بعيداً في الذاكرة! كأنهم يقولون: "اكتبوا عن ما لا تعرفون" .. لو أن معلمة ذكية قالت : "اكتبوا ما تتخيلون" لقادني إلى بدايات أفضل، ولكن بما أن الحال على ما هي عليه، فليني أكره واجب التعبير، فضلاً عن عجزني عن استخدام ما يقرعوننا به من طباق وجناس و "كلاكيك" (هنا أجدني بحاجة لشكر الروائية التي تحرر قصتي، وتسمح لي بوضع مقدمة أتحدث فيها بمثل هذه العبارات التافهة، أعني "كلاكيك" وما شابه).

"نارة عدنان". يا سلام! اسمي الجميل يصلح اسماً حركياً أو فنياً لراقصة. أعتذر إذا كان التشبيه فجاً يחדش الحياء، أو خارجاً عن الذوق والآداب العامة المتفق عليها، وإن كنت لا أوافق على احتقار الراقصة ضمناً، بينما نحتفي بها فنانةً على صفحات صحفنا. لقد أرسلوني مرة، أنا الصحفية المحترمة، لأجري لقاءً مع راقصة شرقية، تَعَجَّتْ في إجاباتها مثلما تفعل في رقصها، حَرَفْتُ كلماتها في مقالي، وأجبرتها على الحديث عن الفن وأهمية التعبير بلغة الجسد كفيلسوفة بارعة تباري أفلاطون!

أعود إلى اسمي الذي يزين صفحات صحيفتي الصفراء (نسبةً إلى لون ورقها)، وعندما أقول : "صحيفتي" لا أقصد أنني أملكها .. حاشا لله أن أكون من ذوي الأملاك . لست أملك من حطام الدنيا إلا الثياب التي أرديها، وحذاء أتعلعه، وسيارة رُئِعَ عمر، مستورة بحمد الله!  
أنا مجرد اسم بهي، ورقم متواضع في عالم الصحفيين المندلقين كل يوم على سطح الورق . اسم جميل وخاص، يمكن أن يلفّ رؤوس الرجال ويغيظ النساء..  
قد تتوسع "الروائية" فيما بعد لتفسير أسباب اسمي "المولّع" المتّقد.

"عدنان" أبي.. هذا أيضاً يأتي من الذاكرة البعيدة، وريث مجد غابر . على أية حال، أتعامل مع يتمي المبكر باستخفاف يليق به. نسيت منذ زمن ما يسمونه "اسم العائلة"، ومن الطبيعي أن لا أوظّر قراء الصحيفة القلائل بأسماء هلامية، من النوعية التي لا تدل على شيء ولا تؤشر إلى مكان، ولا يمكن إلحاقها بمرجع ما، حتى و إن أمكن إلحاق اسم أبي بمرجعية تاريخية بعيدة، فللمنطق المعاصر لا يعترف بمثل هذه التسميات التي تُطلق من باب التعود لا غير، كما لا يمكن

لطرف أن يتخيل أُنِي بنت عشائر أو من الشمال أو الجنوب .. هكذا حال اسمي؛ محاييد بلا دلالة قبلية.. مرتاحة وسعيدة من دون مرجع جغرافي أو عصبي.

ولكن ليست هذه هي الحكايتي.

الحكاية أنه قد أستبدّ بي شوق كبير لكتابة الحكاية، ولما كنت أكتب التقارير وتفاصيل الأخبار باقتضاب وخوف وخجل، مدركةً أن المحرر العجوز صاحب النظارات (كعب الكبّاية) سيمصص شفثيه وهو يقرأ، ويشطب، ويعدّل من صياغة الكلمات ويمحو أثر أخطائي النحوية والإملائية قبل أن يدفع بالعمل إلى الطباعة، وقد يقول لي:

- الله "يهديك" يا بنتي، خففي من أخطائك، أما أن تتعلمي؟!!

ولشدة ما يغیظني استخفافه الذي استمر سنوات وسنوات، فليق أقول في سرّي: "يا بنتي!! على مين يا عمو؟! أنت تصّحح أخطائي الإملائية والنحوية لأنني أعجبك، أو على الأقل، يثير اسمي خيالاك!!".

يا لقسوة ما أذهب إليه، فالكهل الرصين، والذي صار عجوزاً جداً فيما بعد، لم يُبدِ طوال السنوات التي عملنا فيها معاً، أيّ سلوك يمكن تفسيره على هذا الحمل الشيطاني، ولكني كنت بحاجة للدفاع عن مستواي المهني الذي لم يتقدم أبداً، على الأقل أمام نفسي.

ليست هذه هي الحكاية.

محسوبيتكم "نارة" ارتأت أن لديها حكاية بعد أن تحطت الثلاثين عاماً (الدقة غير مطلوبة هنا، لا تشكل فرقاً بالنسبة لكم). إذاً، ثلاثون، منها عشر سنوات في بلاط صاحبة الجلالة . أعرف أن كل الهامشيين مثلي يعتقدون بوجود الحكاية الأكثر إثارة لديهم دون سواهم، حقيقة أو توهماً. ليست هذه هي القضية، فحياتي مكتظة بالتفاصيل، ليست كلها خاصة أو فضّاحة أو مذهلة . ليس هنالك حدث انقلابي يصلح لأن يكون فيلماً سينمائياً. لم أخسر شيئاً، فبلادي لا تتعامل مع صناعة السينما، وكل ما لدي مجرد تفاصيل عني وعن الناس الذين أعرف . أدعي أنني أعرف وجوهاً بائسة كثيرة، ولا أقصد بؤساء "هيجو" ولا أدعوكم للتعاطف مع بؤسائي، أو حتى معي، أقصد أنهم يثيرون اليأس والملل، ويستحقون الإعدام . تحتل الكلمات تعدد الوجوه والدلالات، انظروا ماذا أفعل الآن! أخلدّهم في الكتابة. لو كنت على يقين بأن الكتابة تخليدٌ من نوع خاص

لما أقدمت على ذلك، فهم لا يستحقون، أعرف أني أضيع القارئ في تفاصيل غير مترابطة غاية في الغرابة، ولكن "طُولُوا بالكم معي"، أنا أكتب مجرد مقدمة، يمكنكم أن تقبلوا الصفحات على الرواية مباشرة وترتاحوا من ثرثرتي، لن يكون هناك فرق!

مثل الحواة أحمل جراباً يمكنني أن أخرج منه أرانب حية، كما يمكنني أن أحوّل فتافيت الورق إلى ضمة أزهار ملونة، وحبّه إلى عطر . هيا، هذا مجرد تعبير مثلما يهوم الشعراء وكما يعرض الحواة فنونهم الخادعة محاطين بتصفيق الإعجاب، فلحياة "سيرك" أكبر من السيرك المتواضع الممل الذي يضربون أوتاد خيمته المزركشة كل صيف في شارع المدينة المنورة، لاصطياد المصطافين من العائلات القادمة من الخليج.

فرض جرابي، وشعرت أن لدي ما أقوله. تذكّرتُ المصحح العجوز، مخلفات وزارة التربية والتعليم، الأستاذ المتقاعد منذ عشرات السنين، وهو يقول بلطف أبوي:

- "نارة" .. "نارة" .. متى تتعلمين أين يوضع الاسم وأين يوضع الخبر؟!

أرد ضاحكة:

- عَلِّمِ بالمتبَلِّمِ يصبح ناسري.

عندها، يضحك أبويّاً ويقول:

- حاشاك!

أرد بالهرج والمزاح البريء رماح هجومه المثقلة بالهمّ وصدأ التقاعد . هو ليس سوى مصحح متواضع في صحيفة صفراء يحاول الالتحاق بكادر مصحّحي "الرأي" الغراء، ويفشل عاماً بعد عام في اقتحام تلك القلعة الحصينة، يقول ببساطة:

- يتجاهلون قدراتي لأني من نابلس.

ولأني لا أعرف علاقة نابلس بالأمر، أتوقف عن استغابة المصحح الجهبذ، انظروا هذه "الجهبذ"! لو سألني أحدهم عن معناها ما عرفت، ولكنني كتبتها هنا بجسارة أحسد عليها . أساساً ليست هذه هي الحكاية . القضية - وكما سيكتشفها قارئ فطن (فطن هذه أيضاً كبيرة) - أني

استفدت من قراءة الصحف ولغتها التي لا تخلو من فذلكات، أو أن ثقافتي أوسع مما أحسب . تعلقُ الكلمات المقعّرة بجلد الصحفي كشعر بدنه . سيكتشف القارئ الفطن أن مشكلتي هي

الدونية التي أظنها حول لغتي وقدراتي في الكتابة، وحتى لا يبدو تواضعي ذليلاً في أعينكم، فلکم أن تعلموا أنني اكتفيت من الحظّ بتمتعي ب اسم مثير وعدد لا يُحصى من التقارير الصحفية البائسة، التي يخلو لي أحياناً أن أقرأها على مسمع جدّي من دون توقُّع هزة من رأسه تشي بوجهة نظر محددة. لو أن له ذاكرةً ككل السائرين على الطرقات، لأفصح عن زهو عارم، على الأقل لظهور اسم ولده المتوفّي "عدنان" إلى جانب اسمي كلما مر يومان أو ثلاثة . لست على يقين من تذكّر هابنه الذي هو أبي . أترك جدّي على طراحته غارقاً في عالمه الخاص وأعود إلى جراب الحاوي . شعرت برغبة في إطلاعكم على محتويات جراي . . تنامت الرغبة، دودة تقرض بمثابرة وإصرار وتلدّذ أطراف ورقة شجر خريفية . . مئات أو آلاف التفاصيل المتناثرة من جراي بحاجة إلى من ينضدها، بحاجة إلى محرر . يقولون إن أعظم الشخصيات في العالم من صحفيين وساسة ونجوم السينما وعشيقات المبدعين ومرافقي الرؤساء والملوك، يكتبون كتبهم المثيرة وسير حياتهم والفضائحيات الأكثر مبيعاً مستعنين بمحررين مختصين، ولقد فكرت بالأمر ملياً، لأكتشف افتقارنا في الساحة الإعلامية والثقافية لمثل هذا ال تخصص الفريد . غالباً ما يصيبنا الغرور تجاه ما نخطّ، فنظن أننا وصلنا بحمد الله ورعايته إلى الكتاب المعجزة . . أعرف كاتباً يجربش مثل مخلّفات الدجاج . المفروض أن أقول : "خرايش الجاج"، هذا التعبير العامي أكثر تهدياً من الفصحى، الخرايش تعطي إجماءً بأنها نتاج فعل الحراك المرتبك لسيقان الدجاجات المستنّة، أما المخلفات فتؤشر إلى نتاج فعلٍ مختلف ، لكنه أقوى . كلمة "خرايش" على شيوعتها بعيدة عن الواقع، طفيفه الإجماء، يجلس صاحب مخلفات الدجاج عادةً في وضعية انزلاق، مادّاً قدمه أفقياً، بحيث تقصر المسافة بين مرآة قفا حدائه ومرمى بصر الجالس قبالتة. هذا المصاب حتماً بالانزلاق الغضروفي، يدّعي أنه مهم للغاية، علميّ الأفكار واللغة، لكن حظه العاثر شاء أن يكون في مدينة عمّان الصغيرة النافلة حيث لا مجال لإعلام والإعلان والاحتفاء بالعبقريات الفذة . . يتّعي سالف الذكر أنه أكثر أهمية من شكسبير، ولأن شكسبير ليس مهماً (عندي) ألبتة، فإن صاحبنا تافه بلمتياز، مغرور كما الكثير ون. لهذه الصورة المقيتة لن أسمح للغرور بالنيل مني . واجهت نفسي بصراحة، وأمضيت وقتاً طويلاً أبحث عن بداية البداية، أي بداية الكتابة، بالأحرى عن المحرر . . تحدثت بين الزملاء عن مشروعني الغريب في الردهات الضيقة والمكاتب

المعتمة التي نجلس فيها مختنقين ما يقارب نصف النهار. أسرّ لي السادة المصححون - ليس فقط صاحبنا لابس النظارة كعب الكبّاية، ولكن آخرون - (بحذر) بأن معظم الصحفيين في حالة يُرثى لها لغوياً، يقدمون ويؤخرون ولا يعرفون موقع الهمزة في الكلمة، مثلي، إضافة إلى أن طالباً نجحياً في المرحلة الابتدائية سيطيع بهم في مسابقة الإملاء .. أخبروني عن مثالب زملائي وبؤس حالهم اللغوي . بصراحة، شعرت بالراحة من واقع الشراكة في الضعف على أن أكون وحدي متواضعة القدرات، صرفت النظر عن الاستعانة بأحد زملاء، فلذا كنا كلنا في "الهوا سوا"، لم أوظ كنوز جراي بين يديّ من لا يتجاوزني براعة؟ أو شكت على الانصراف عن الفكرة تماماً. في النهاية ماذا سأقول، وأية إضافة تستحق إعدام الأشجار لتصير أوراقاً تحمل ترهاتي؟! الأمر شهوة ذاتية لا معنى لها، وأنا لست شخصية عامة ولا خاصة بحيث يستميت أحدهم لاقتناء مذكراتي أو سيرتي الذاتية .. لم أجد الس عليّة القوم، ولكنني صادفتهم بحكم مهنتي، وجلّ معلوماتي عنهم متخيّلة.. ربما هذا هو الحبث الذي أريده؛ أن أفشي معلومات متخيّلة لئيمة عن هؤلاء، وهكذا رحلت أتقلب، حماساً وإهمالاً.

في تلك الفترة، اكتشفتُ معشرَ الكتاب ؛ أعني الموهوبين المبدعين، الذين نسّمهم في مقالاتنا رموزاً ورواداً ومرجعيات تثير الفخار، ثم لا يعترض من كان في قمة الهرم من سياسيين ومسؤولين وأصحاب القرار .. يوافقون بتواضع على تصنيفنا المخاتل للمبدعين ، لعلهم يتواطؤون من مبدأ "ابعد عن الشر وعنّ له".

المبدعون الذين ينظرون شزراً من فوق أنوفهم إلى الوزراء والسفراء والساسة ورجال الأعمال، الذين يتأبطون دفاترهم وكأنها كتب منزلة مقدسة، أولئك المغرورون والكبار الذين يتوزعون بين لابس ربطات العنق الباريسية ومرتدي الجينز المقطّع والمرقّط ناكشي شعورهم، وبين مرتادي "الأوتيلات" الراقية حَمَلَة أقلام "الشيفر" الذهبية، والمتسكعين على طرقات المدينة، أو السكارى في حانات قلب البلد الرخيصة آ خر الليل، أصحاب أقلام "البك" التي تسيل من مؤخر أتمها فتلطح جيوب قمصانهم المتواضعة، اكتشفتهم .. وجدتها.. وجدتها، وعنّ على بالي أن دربي تمر من درهم، وأنني سأتمكّن من استكليب أحدهم.. يبدون أكثر رفعةً من أن أشتريهم بالمال (هذا تصور خاطئ صححته فيما بعد) . أنا أصلاً لم أكن أملك المال، فقلت إن عليّ إقناع أحدهم



بأني أمتلك حكاية تُحكى ليوافق ويرتضي القيام بمهمة التنضيد والتنسيق والتحرير . رحلت أتصفح الصحف كل يوم، أنبش عن أسمائهم، أقرأ بإخلاص لم أفعله من قبل، وكأني أنتقي أجملهم أسلوباً وأكثرهم إقناعاً.. انظروا، كنت أشرتط الصف الأول، أريد اسماً مشهوراً، أشهر من النار! ما أشدّ تهوّري!

تصفحت صحيفة "الدستور" .. يسترعي انتباهي اسم سينمائي نوعاً ما، أقل إثارة من اسمي ولكنه يُحفظ بسهولة: "خيرى منصور". قرأت مقالاته بنهم لأرتطم في كل سطر بمعلومة. لا بد أن حصيلته من المعلومات مخيفة، رجحت أن تلك اللغة التي يكتب بها ستربط حكاياتي بالحبال وتجرحها مخفورة إلى حيث هو يمتلك حكايته الخاصة، رأيت صورته بالقميص "السبور". كيف سأذهب إلى رجل يرتدي قميصاً مفتوحاً، وأخاطبه قائلة : "يا أستاذ!!" .. وهل كنت بحاجة إلى أستاذ أم محرر؟

إنها بدايتي ولكن ذروة حيرتي، أجهل ما أريد بالضبط، لهذا صرفت النظر بسرعة عن فتى "الدستور"!

قبل الدخول في التفصيل التي استرعت انتباهي في صحيفة "العرب اليوم"، يحلو لي أن أتوقف عند اسم الصحيفة. يا عيني، ويا سلام، والله الله على العرب اليوم، وأمس وغداً، أقصد العرب الأمة، الشعب، الشتات، لا الصحيفة التي تحلم وتمطّ حلمها من المحيط إلى الخليج مثل علكة في فم طفلة . عذراً على المداخلة اللئيمة، ففي صحيفة "العرب اليوم" قرأت اسم "محمد طمليه". كتاباته منجونة بجدارة وتناسب مزاجي ما دمت أرغب في أن أسخر قليلاً، ولكنه كثيراً ما يقع في قعر بئر معتمة، ويحدث أن يطفو طحلب مُرّ وتزرق أشباح رمادية على الورق، تحديداً في المكان الذي مرت فيه أصابعه. خفتُ مجردَ الاتصال به، لم أعثر على الهدف بعد.

فتحت "الرأي" الغراء .. لا أعرف لماذا عليّ أن أضيف هذه الصفة الممجّدة كلما تحدثت عن "الرأي" .. الغراء طبعاً! كُنّا في مطلع عام 2002 الذي يتوّج عمّان عاصمة للثقافة العربية، لم أسأل كيف ولماذا وبأي الأدوات؟! فهذا شأن منظمات عالمية، أما بالنسبة لي فهو مجرد لقب احتفالي يتيح لي سهولة العثور على المثقفين المرتشريين على صفحات الصحف وفي المنتديات كالفطر، لذيد ونافع وسرام.

قرأت مرة أو مرتين مقالاً لـ "مؤنس الرزاز" حول أحداث العالم المأساوية، تُخيل إليّ أنه يمسرحها لتكون بهذه السوداوية، فكل الأشياء البسيطة والعادية تحدث كل يوم ولا من معترض . لماذا عليه أن يحول الأحداث التي آدم لها إلى حدّ افتقاد يوم خلوّ منها، إلى مأساة ؟ ما الجديد في سقوط الأطفال في جنين؟ ! ما الجديد في بيانات الاستنكار العربية؟ هع، هذا هو رأيي الصريح بمثل هذه البيانات .. وما الجديد في الحفر في شوارع عمّان الشرقية؟ ! ما الجديد في تلوّث مياهنا بـ"خرائيمهم"؟! أليس هذا ألطف من سرقة المياه التي نسينا أمرها؟ ! لا شك أن الرزاز مأزوم، ولا أظن أن كاتباً مثله يمكن أن يفني بالعرض الذي أسعى إليه، ولكنني غيّرت فكري عنه عندما كتب نصاً وجدانياً حزيناً - سرقت تعبير "وجداني حزين" من مقال لأحدهم ولم أبدعه من بنات أفكاره، لهذا اقتضى التنويه - أقول، عندما قرأت كلّ هذه الرقة، اعتقدت أنني عثرت على جملي الذي أحمل فوق كتفيه الحكاية، خاصة أن حكايتي لا تخلو من العواطف والأوجاع، ومقاله الوجداني يفرض بها. هاتفته بحماسة فائقة في الصحيفة ليقولوا لي:

- مش موجود!

يكذبون! يحدث هذا، فسكربتيرة رئيس تحريرنا المتواضع في الصحيفة الصفراء تكذب بشأن وجوده وغيابه عشرات المرات من دون أن تتلجلج أو ترتبك، ولكنني تأكدت بعد ذلك أن استنتاجي غير صحيح، فالرجل لا "يداوم" في الصحيفة، لكن هيعمل في وزارة الثقافة مستشاراً. ما أصعب الأمر وأسهله معاً؛ أن تتحدث مع مستشار!!، اتصلت بمستشار الوزير وأنا أرتحف، يا أخوان، للألقاب "وهَرْهُمَا" .. إنه مستشار.. قد يهزأ بي ويغلق السّماع في وجهي، ولكن صوته الناعس المشوب بالترحيب التلقائي رفع عني حمل الخجل والتردد . تقمصت دور قارئة، وأشرت إلى حكاية مهمة أريده أن يسمعها . اتخذت المكالمة مساراً غريباً أزال "الوهرة" المتخيّلة عن المستشار .. ك ان هنالك رجل لطيف على الطرف ا لآخر من السّماع . لم يُبَدِ اهتماماً بحكايتي، قال ضاحكاً:

- اسلم مخفي!

لم أعرف ما إذا كان استحسنه أم استنكره، وقال أيضاً:

- صوك ناعم!

لم أنتبه، سألني عن عمري وإذا كان بالإمكان أن نشرب فنجان قهوة معاً، ورغم أنني أعني ضرورة شرب فنجان قهوة معاً لتحدث، إلا أنني تلكأت في الإجابة، ثم قلت:  
- مع السلامة.

أغلقت السماعه بتهور طفلة ضبطها والدها تغازل على الهاتف. لم يضبطني أبي ولا مرة. لم يكن في بيتنا إبان مراهقتي هاتف ولا أب، ومن العسير أن أغازل من بيت جارتنا "أم صبحي" حيث نستخدم هاتفها عند الضرورة القصوى، أو من دكان "أبو حسين" البقال الذي يربط وجهه بوجهي وكأنه مسؤول عن كل كلمة تمر في أسلاك هاتفه الخاص، يقول أهل الحي إن همة "أبو حسين" العالية في التلصص على المكالمات عادةً اكتسبها من أيام تنظيمه في جهاز المخابرات. أعود إلى السبب في إغلاقي سماعه الهاتف بعصبية في وجه مستشار الوزير. بصراحة، انزعجت وخفت من هذه الدمائه التي تستفسر عن عمري، وتلحظ الرقة وتوزع النعمات في جبالي الصوتية، وقلت: "سأجد كاتباً آخر، لن يكون الأمر صعباً".

عثرت بسهولة على رقم هاتف دائرة الفنون، حيث يعمل الروائي والشاعر إبراهيم نصر الله، هل أجد لديه الوقت لسماع حكايتي وهو منصرف إلى "الملهاة الفلسطينية"! تحدثت مع الكاتب في إطار محاولة أخاف فشلها. عبر الهاتف جاء صوته أيضاً نعيان. لماذا يتحدث الكتاب وكأنهم قادمون من عالم بعيد!

ادّعت أنني قارئة (في الحقيقة لم أقرأ له، ولكن عنه في مقال مصحوب بصورتته في الصحيفة). باشرته بلأن لدي حكاية أعتقد أنها ستفيد بالكتابة. كنت أكثر جرأة؛ إذا كان المستشار أبسط مما تصورت، ماذا عن مدير قاعة للندوات! هكذا يجب أن نعامل معشر الكتاب، نمنّ عليهم بحكايتنا وتفضّلنا بقراءتهم قبل أن يمنّوا علينا بتميزهم ومواهبهم، فأنا من سأعطيها الحكاية ليكتبها بدلاً من غرقه في مستنقع القضية العريّة الخاثر. لهذا تحدثت من موقع المانح ولم يشعر بما رميت إليه، وقال بأدب المتعجل والمنشغل والمستهين بما لدي:

- عظيم، واصلني الكتابة، يمكنك أن تترك كتاباتك في رابطة الكتاب عند محمد المشايخ، هذه هيئة تهتمّ بالهواة.

لم يفهمني، وقِيمني بصورة مححفة.. لست هاوية تكتب الخواطر وتنشد رعايته أو رعاية مؤسسة ما. لم يفهم، رغم أنه بدا فهيماً في الصورة، ولم أجد الشجاعة في نفسي كي أشرح، قلت: - مع السلامة.

أن تبحت عن محرّر لهَمِّك أمر ليس بالهين، ولو استسهلته لحين. لو أُنِي سعاد الصباح مثلاً لكان الأمر أيسر، لأن عوامل الشهرة والملم ستزين الحكاية، ولكني "نارة عدنان"، اسم في صحيفة لا يقرؤها إلا أصحابها، وفئة أخرى تهتم بمعرفة بماذا تفكر النملة وهي تجمع فتافيت خبز الفقراء، وقد اكتشفت خلال بحثي عن المحرر المرتجى أني خجولة حيال الرجال، رغم عملي معهم، فمسألة عقد صفقات الكتابة وما شابه تجعل كل خطوة شبهة. هذا بعض الانزعاج الذي أصابني عندما سألني "مؤنس الرزاز" عن عمري و طالب بجلسة "فنجان قهوة". بعدها بشهر واحد بكيت بذهول كأني شربت قهوته. ليتني شربتها.. فالرجل مات. هكذا كما يموت ملايين البشر كل يوم. صار مجرد صورة ونعي في الصحيفة. لم أتمكن من شرب فنجان قهوتي الصباحي، حنقت على متعهد الخدمات في الصحيفة، قلت بغلظة للفتى الذي حمل صينية رشرشت فناجينها قهوئها، إنه أقدر قهوجي على وجه الأرض، ولم يردّ، يعرف أني أقول الحقيقة، وأنني صاحبة غضب مفاجئ ومؤقت.

ألا تستحق الحياة التافهة المعاشة أن نكتبها مناكفة لمجهول ما! لا أبحث عن تبرير شرعي للكتابة، ولكني ارتطمت بحديث شريف في مجلة عابرة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (صلعم) يقول: "أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة".

قد تسخرون من استعائتي بالحديث تبريراً، لكنني أعترف باللجوء أحياناً إلى ثقافة دينية اخترتها وأوظفها حسب رغباتي، وقد اخترق الحديث النبوي حجابي الحاجز، وتوغل في أعماقي كأنه الباب الكبير يفتح على السر العظيم، وازداد إصراري على كتابة الرواية، سميتها الآن صراحة ومن دون مواربة "رواية"، لأن اختياري وقع على الكاتبة "سميحة خريس" لتحرر ما هو محبوس من أفكار، وهي كاتبة مهووسة بصفة "الروائية". عرفت ذلك عبر أحاديث طويلة ومضنية معها. عندما وقع اختياري عليها لم أهاتفها، إذ إن كونها امرأة عاجل ترددي وضاعف جرأتي،

فداهمت مكتبها في الطابق الثالث في صحيفة "الرأي" الغراء من دون موعد . توقعت أربعينية بوجه باسم منشغلة أو متشاغلة إلى حد بعيد . توقعت أن تقول لي : "عشرات النساء يخبرني القصص كل يوم، ولكن ما هكذا تُكتب الرواية"، وحدث كل ما توقعت،. لم أسألها كيف تُكتب الرواية، ولا نية عندي لسماع محاضرات في فنون الكتابة و أصولها. أريد أن أحكي، وأن تتحمس هي لي فتكتب. أهدتني روايتها "خشخاش" بفوقية واستعلاء مدثرين بتواضع ظاهري، قالت: - كتبت مثل حكايتك مرة واكتفيت.

عندما قرأت "خشخاشها" في المساء، طار برج من نافوخي . لست جنّية، ولا مخلوقة عجائبية مثل بطلة روايتها تلك . أنا "نارة" . امرأة من لحم ودم . وأريد كتابة قصتي . وجدت في نفسي الشراسة اللازمة لاقتحام مكتبها مرة أخرى، ومرات بعد ذلك. شعرت أنها تتأهب لطردي يوماً، ولكنني واصلت إلحاحي مثل قرادة لاصقة على بدنها، إلى أن لانت وبدت أكثر صبراً معي، قالت:

- ماذا لديك يستحق أن يُكتب؟

لا تدار الأمور هكذا . عندي كل شيء، ولا شيء. علينا المجازفة بمغامرة رعناء، ثم عليها أن تكون ممتنة وشاكرة . من ذا الذي يتسنى له فرصة ذهبية كهذه؟ أضع ذاتي لحماً ودماً وروحاً وخيالات تحت إمرتها . أتحوّل إلى قطعة "ستيك" شهية في صحنها . بإمكانها تقطيعي بالشوكة والسكين، أو تنسيل لحمي بأظافرها الطويلة المزدانة بالمناكير، ثم "قرمضتي" تحت أضراسها، ولن أبخل عليها بالمشهيات، كومة بازلاء من الناس عسيري الهضم، وكومة جزر من مفكرين وإعلاميين وأدباء "تتمزمز" بهم قبل البلع . عليها أن تكون شاكرة حقاً، لا أن تفتح معي تحقيقاً مستهيناً مثلما فعلت. في خطوة من خطوات الخلاص مني ادّعت أنها لا تكتب عما لا تعرفه. لا تنظلي حيلتها عليّ، ولا أصدّق أن كل ما كتبت في رواياتها تعرفه تماماً، وها هي تدعي جهلها بأروقة وأجواء صحيفتي الصفراء، وتقول باستهانة إنها لا تعرف إلا "الرأي" ، فإذا كتبت (إذا كتبت!!) فإن ذلك سيكون عن أحداث تقع في دهاليز "الرأي" الغراء. يا مجدي القادم! كلنا نحلم بأن نُحسب على كادر هذه الصحيفة، طمعاً بالقراء والتأمين الصحي والمزايا المادية . ما ضرّ لو قالت إن ما حدث، حدث في "الرأي" الغراء رغم أنه لم يحدث فيها؟! ليس مهماً إذا كان قد

حدث حقاً، فأنا ومن خلال محادثات طويلة مع الكاتبة الروائية، تسمّ البدن -أقصد المحادثات لا الكاتبة- كنت على يقين بأن كتابتها لن تكون كما أريد تماماً، فهي تميل إلى تسريب بعض الأمور، وأبغى تحقيق أخرى، وسيختلط الحابل بالنابل، ولكني لا أملك خياراً، لهذا كان شرطي كتابة هذه المقدمة بكل سقاطتها، بعجزها وبجرها (هل هذا التعبير مفهوم؟!)، وتتعهد الروائية بجعل كلماتي مقدمةً للرواية من دون تبديل أو تحريف، بينما أتعهد أن لا أتدخل في الحكاية كما ترويتها طالما كانت تستعين بجراب الحاوي الخاص بي.

بصراحة، لا أعرف حتى هذه اللحظة كيف أقنعها ووافقت!

أظن أنني كنت مقنعة، و"نارة" حقيقةً أيقظت شيئاً خفياً في أعماقها، ولكنها أيضاً احتالت على الأمر بصورة خبيثة، فكتبت مقدمة تلي مقدمتي . لعلها تسخّف أمري، أو تبرأ مني، أو تقيمني بقسوة. لا يحق لي قراءة مقدمتها. هكذا أبرمنا اتفاقاً مسبقاً، ثم إني لا أملك وقتاً كافياً لقراءتها . لا أعرف ماذا ستقول لكم عني ولا أهتمّ، وأدعوكم لتصديق الرواية فقط وترك المقدمات، فهذا هراء وفائض نحاول فيه أن نشرح أنفسنا، ربما لا تحتاجون إلى كل هذا الشرح!

## المقدمة الثانية

### ما قلته سميحة

هنا أكسر القاعدة..

النص عندي عادةً صحن شهّي ووجبة للروح تقدم نفسها طازجة وحازة من دون مقبلات ولا شروحات إضافية، إذ يجدر بالعمل الجميل أن يتقدم وحيداً متفرداً متغندراً ونرجسياً، ولأنني دُفعت إلى هذه الزاوية دفعاً، فقد اضطررت إلى كسر القاعدة ودخول النص بمقدمتين، إحداهما ما قلته "نارة"، والثانية ما قلته ألد.

أدرك كم هي كلماتي جافة وتقريرية بعد مقدمتها، لكن "نارة" الملعونة، السخطة التي حظيت بها فجأة، وحطت فوق حياتي من دون تمهيد، تعمدت خلطاً أوراقها بأوراقها بصورة محرجة، فكان لزاماً أن أقوم بمهمة الفجر، أبين الخيط الأسود من الأبيض، حتى لو كتبت مقدمة تبريرية خشنة مثل هذه.

حين اقتحمت الصبية المرأة مكثي ذاك الصباح، لم تكن لدي أي هواجس أو أفكار مسبقة تتعلق بها. لعلي قرأت اسمها مرة في صحيفة بائسة من دون أن يسترع ي انتباهي، لذلك لم يكن لحضورها أي معنى عندي، بل إنها، وقد بدأت تفصح عن رغبتها، حظيت مني بإهمال تام وسخرية باطنية. لم أسع إلى صدّها بطريقة نفتقر إلى التهذيب، فقط تحدثت بصدق عن تكرار المشهد أمام ناظري منذ عشرين عاماً.. صبايا، ونساء، أحياناً رجال، يدخلون إليّ حاملين أوراق حياتهم، مستعدّين لتحويلني إلى طبيب نفسي، ومضحّين بأدق أسرارهم عسى أن يقرأها العالم بأسره في رواية أكتبها، يراهنون على عدد قرائي من ناحية، ويولونني ثقة لست جديدة بها، فقرائي قلّة، لا في العير ولا في النفير، وما أكتبه لن يززع بلادة العالم وانحداره نحو الهاوية، ولكنهم متعبون يرغبون باعتراف مكتوب. حدث هذا كثيراً، ولم أكن مغرمة بتقمص دور الطبيب، ولا أملك القدرة وطهارة الروح ورفعة النفس كي ألعب دور الكاهن الجالس بوقار ورحمة وراء شبّاك الاعتراف في الكنيسة. أكتب بنرجسية أنحاز فيها لذاتي ولو تناولت وجع الناس، أستلّ منهم ما أريد من دون أن "يشرفوا" إلى مكثي أو بيتي لأكتبهم، أذهب أنا إلى مناطقهم المحرجة الداخلية كما أتخيّلها وأرسمها، من دون أن أجشّم نفسي عناء لقاءات مباشرة تحمل طابع الصفقة. مثل هذه التدابير بعيدة عن الصدق، كما إنها لا تخلو من السوقية. يهينني ويغظني للغاية الشعور أن امرءاً مهما بلغت براءته وسداجته يتصور اقتداره على اكتراء قلمي، وقد طورت مع الوقت أسلوباً ناجعاً في صدّ هؤلاء المتعبين، المتعبين، أسلوباً وسطاً بين الرقة والدمائة والحدة والحزم، هو صدّ دمث أو طردٌ مهذب. قد أنصرف إلى تسخيف قلمي والنيل من أهميتي، كي يقتنع الداعي بأني لست الشخص المناسب لكتابة تاريخه التليد. هكذا تصورت الأمر مع "نارة" التي جلست في اللحظات الأولى على استحياء في مقعد إلى يساري، ثم ما إن طلبت لها فنجاناً من القهوة سكر خفيف، حتى علقت قدمها اليسرى فوق اليمنى واسترخت. تعاملت مع منفضة السجائر المتروكة

على الطاولة الصغيرة أمامها بألفة . رفعتها عن الطاولة إلى حضنها واستخدمتها بشراسة، كأنها ممددة بقميص النوم على أريكة في بيتها. تحاول رفع الكلفة، كما تحاول فرض وجودها كصديقة أو مشروع مريح بالنسبة لي. ورغم إحساسي بما تنطوي عليه حركاتها من الوقاحة والبله، إلا أنني استمعت إليها بصبر معقول . لم يكن لدي كثير من المهام في ذلك اليوم بللتحديد . لم يفاجئني حديثها تماماً ، كون هذه الصورة تكررت مراراً في حياتي، ولكنني لم أتوقع اقتحاماً جريئاً من شخص لا أعرفه، ويبدو أنها لم تصدق أنني لا أعرفها . تفترض أن كوني صحفية (مثلها) يدفعني لمتابعة مقالاتها النارية . ادعت أن مقالاتها نارية ! ولم ألمح شيئاً نارياً عدا اسمها !! لا أعرف سبباً واحداً مقنعاً يدفع بأسرة أردنية محافظة لإطلاق اسم "نارة" على مولودة أنثى . لماذا نفترض المحافظة في أسرة أردنية؟! رغم شرود ذهني إلى تفاصيل بعيدة عنها تارة، أو تتعلق بها كوقوع اسمها على السامع، فليني منحنتها من الوقت القليل قبل أن أبتسم بحبث وأقول لها إن الحكاية ليست جديدة عليّ، وإن روايتي "حشخاش" كانت عبارة عن التباس بين كاتبة ومكتوبة . قدمت لها الرواية بإهداء أخطه دائماً: "إلى نارة.. مع الود"، لم أكن بحاجة إلى هذا التعبير الودود، ولكنني أكتبه كما يفعل نجوم السينما بألية واعجاب بالذات فحسب .. "مع الود" كذبة صغيرة لا تضر، يمكنها أن تنقلب إلى حقيقة! بإمكان الود أن يثبت فجأة في هواء الحجرة .. رأيته لحظتها ينمو رغماً عن الأفكار الطاردة التي تتعلق بانزعاجي من طريقة جلستها، وعدد السجائر التي "معستها" بسوقية في المرفضة.

انصرفت تؤرجح روايتي في يدها و رجحتُ استحالة عودتها، فقد بدت على قدر معقول من الذكاء . سرعان ما ستدرك أن نزوة مخجلة حملتها إلى بابي . لن أرى وجهها بعد اليوم، لهذا لم أتذكرها بتاتاً في اليومين اللذين مرّا بين زيارتيها الأولى والثانية . لا أثر لها في الذاكرة وأنا منصرفة إلى حالات من الحزن واليأس والعمل المكثف . إنه عام حزين مثقل بالوجع، عام الثقافة، 2002. فيما بعد أدهشني أن "نارة" تسميه "عام السخافة". تقلصت ملامح وجهي استنكاراً. لا يجدر بي قبول هذا النوع من المزاح مع مواطنة شابة تتقدم مني بطلب أسخف من السخافة . كنت أحتاج إلى مزيد من الإيمان بكل ما نفعه بعام الثقافة هذا ريثما يمر بسلام، لهذا لم أتجاوب مع مزحتها . أشياء كثيرة لم أتجاوب معها في البداية، ولكنني أصدقكم القول ؛ إن "نارة"



هذه لعنة لطيفة، كارثة لا يمكن الفكك منها، وقد يحلو الاستسلام لها. لقد تمكنت من إقناعي، رغم شعوري أن كل ما تحدثت به نوع من الهراء لا يناسبني ولا أحترمه، فهي دائمة الضحك، ضحك يميم القلب ويثقفه المواقف ويمسح الهيبة، حادة السخرية حدّ المسخرة، ثقيلة المزاح حد الإيذاء، تنتمي إلى فئة من البشر لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، غير معنية بالأصول عموماً، أرحح أنما لن تصل إلى نجاح مهني أو حياتي وهي على هذه الحالة المزرية من الافتقار إلى اللياقة وأبسط أساليب التصرف وقواعد السلوك، ولكنها حركت منطقة منسية في ذاكرتي، أضاءت بقعة معتمة واستفزتني إبداعياً. كنت قد خرجت للتوّ من عملين مجنونين ؛ رواية هلوسة استنزفتني وكادت تلمسني بالجنون، أسميتها "الصحن"، نبش فيها وراء الأكمات، وزوّرت أمراضاً عقلية ونفسية مستعيرةً ملامح بشرية قاسية من خيالات الشياطين، كذلك كنت أنتشل نفسي الغارقة في سيل عمّان القديم الذي تجرّأت على بعثه مجدداً في رواية أسميتها "دفاتر الطوفان". اندفعت إلى زمن مغاير بحثاً عن الرضا وعدت من هجرية عن زماني. روايتان في عام، هذا بحد ذاته أمر مُضنّ يمتص رحيق الروح ويُلقي الكاتب خرقه بالية على قارعة الطريق . كنت بحاجة ماسة إلى استراحة المحارب . حتى في الحياة وبعيداً عن هلوسة الكتابة أحتاج إلى هذه الراحة. برامج إذاعية ومسلسلات ولمان ومحاضرات في المنتديات الثقافية ومساهمات هنا وهناك، وصحيفة مؤقتة أتولى رئاسة تحريرها، ووظيفة جديدة في "مركز دراسات الرأي". مهام بالكاد أعرف أبعادها، أج ذف في بحر من التعب والتوتر والقلق، كما أفتقد الأصدقاء الذين يموتون فجأة من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التلويح لنا. وحيدة على صخرة في مهب الريح، أتماسك بصعوبة كي لا يذروني الهواء، أمّي النفس بالراحة مع انتهاء عام السخافة، عذراً، عام الثقافة ! أفكر أن أتخلل من بعض المهام، وأن أفرغ لطباعة روايتي "الصحن" و"دفاتر الطوفان" . أفكر بتنظيم برنامج للمشي السريع في طرقات عمّان بهدف تحرير الروح ومسح صدحها، والتخفيف من وزني الذي زاد مؤخراً . أفكر بالسفر إلى جزيرة معزولة، أخترع طرقاً للا ستمتع مع عائلتي وأحبائي. كنت أمّي النفس بالراحة حين هبطت "نارة"، لتشعل إوار رواية جديدة لم أسع إليه. استفزتني، أقنعتني، سلّنتني، لا أعرف حقاً العامل الأكثر ترجيحاً في قبولي هذه المهمة، خاصة أن هنالك أمراً غامضاً ألح على حدسي . هذه المرأة الغامضة ليست موجودة أساساً! أضحكني الأمر

بداية لما يحمل من تشابه ساذج مع نصي "خشخاش"، ولكن الغموض الذي اكتنف حالتنا معاً ظل يدفع بي نحو مخاوف غريبة ملتبسة. مثلاً، أنا لم أتمكن من لمسها، لم أسع إلى ذلك. بصراحة خشيت الاقتراب منها، ظننت أن مجرد تمرير رأس إبهامي على كتفها قد يؤدي إلى اختفائها كلياً. عدّبتني هذه الأفكار أحياناً، وتجاهلتها أحياناً أخرى، لأني وجدت رغبتني عارمة بكتابة قصتها، ربما انسياقاً نحو العبث والسخرية. أعتزف بحاجتي الماسّة للضحك؛ الضحك من الحياة وعليها! ورغم أننا اتفقنا أن أكتب بحرية من دون خيانة روايتها، ورغم أن "الآنسة نارة" لم تتوقف عن انتقاد أسلوبها، وهذا ما تجده المبرر الكافي للاستعانة بمن يحرر لها الحكاية وهو ما قادها إلى مكتبي محمّلةً بهذا القدر من الحكايات الغريبة، إلا أنني لا أجد غضاضة من الاعتراف أنني استمتعت بأسلوبها وتأثرت بسخريتها، بل وبتّ أرى الأشياء بعينيها، وأعتقد يقيناً تاماً أن التخريب الذي تُحدثه هذه "نارة" في الكلمات والأفكار ليس مجرد تغيير عادي، ولكنه تجديد كامل، خروج من قلب الرماد إلى ضوء الحياة!

الملعونة، كانت في نظرة واحدة وكلمة خاطفة تمسخ الفيل نملة، وتضحك. ليس من السهل أن نضحك عندما يتوجب البكاء. المجانين وحدهم يرتكبون إثم الضحك في غير موقعه من دون أن يلاموا ويقرّعوا، وقد يشدون ربطة عنق العاقل لمشاركتهم. لا يعني هذا أن ضحكها ضربت من الجنون أصابني بالعدوى فرحت أقهقه وراءها، ولكنني تدبرت الحال فوجدت أنه من العبقريّة أن تمشي ضاحكاً في مآتم الحياة المضنية؛ أن تقفز منفرج الأسارير وسط جمع من أشباح حزينة لطامة ندامة. ستكون لك فرادتك، وقد تتمكن من إنقاذ نفسك في المذبحة اليومية التي تقف فيها

منتظراً دورك في صفّ طويل، إذا لم أضحك معها فلن قلبي ميت لا محالة! ضحكنا كثيراً، ثم كتبت هذا العمل ساخراً، راقصاً، كما هي ضحكاتها الصبيانية، ووفقاً للاتفاق بيننا لم أسمح لها بقراءة ما أكتب. لقد أولتني ثقة عمياء كأنها لا تهتمّ بكمّ التخريب الذي قد يُحدثه قلبي أو رغباتي الدفينة. شعرت مراراً باستعلائها الغبي على ما سأكتبه عنها، وتظاهرت بأنني لم ألمح تلك الخصلة القبيحة من طباعها.

هكذا مضينا في خياراتنا باحترام كامل؛ لم أخبرها أنني اخترت كتابة العمل بصيغة المتكلم وبأسلوبها حتى أحول دون ارتباكها وأنا أتلقي الحكاية سرداً كأنما أجالس شهرزاد. هكذا ضمنت

الحفاظ على نارها متقدة. بقى أن أُخلي مسؤوليتي تماماً حول الذين تجنّث عليهم، أو حوّلتهم إلى أراجوزات، وألعاب ظل، ودمى مسرحية مربوطة بشرائطها وحبالها المتشابكة في كواليس مسرحها الفنتازي العجيب . لا أدّعي أنني أعرف أحداً منهم، أو أنني كنت يوماً شاهداً على صحة تلك الأحداث.

كل ما ورد في هذا النص، هو ما تدّعيه "نارة" .. ومن يصدّق "نارة"؟!!

## إلى قارئ محتمل

لا أعرفك. ببساطة ومن دون تعقيد نتعارف الآن. لولا لقائنا المحتمل هذا ما بُحت بكلماتي. متى ستقرؤني؟

ربما بعد مئات الأعوام من قيام أسيد الأرض بامتصاص جسدي وإذابة لحمي فيه ؛ لحمي الذي عرف من المسرات أعلاها وأحلاها، ومن الأوجاع ما لا داعي لذكره في لقائنا الأول. أكون هذه اللحظة تحديداً، لحظة وقوع ناظرِك على كلماتي، مضيئٌ كلّي، بينما حروفي تنبض بين يديك، تمسح عينيك برفق، وتعانق روحك، وتقول لك عكس الواقع المادي، تخبرك أنني ممددة على أوراقك، أجالسك القرفصاء و في مرمى حواسك لو أتقنت قراءتي . لهذا، حاول بجديّة عالية وعبث ساخر أيضاً. ابذل جهداً للوصول إلى العبث، كونه أكثر صعوبة وأبعد درباً . "لا جدوى من أخذ العالم على محمل الجدّ"، لا أعرف قائل هذه العبارة، أقول عبارات كثيرة لا أستطيع

تحديد مصداقها.. تأتي من القراءات، من نثار السادة الكتاب الذين يستبيحون عقولنا كل يوم، أما هنا فلدعوك للجدد واللعب في آن واحد.. لا جدوى من اتباع نهج واحد في قراءة مملة . دعنا نتواصل عفويًا.

لا أعرف زمانك ومكانك . طبعاً لم يعد هذا مهماً بالنسبة لي، فأنا في اللا م كان واللا زمان . سأكذب لو ادّعت أنني أكثر سعادة أو أكثر شقاءً مما كنتُ لحظةً بؤحي بهواجسي، لأني في حقيقة الأمر لا أعرف ولا يمكنني أن أقدر ذلك، إذ أحاول اقتباس النار قبل أن تنطفئ، وأهجس بهذه الكلمات على وجه التحديد في زمان يسبق الوقوع في حالة الغياب التام، ولا أريد اختراع مشاعر أضللكَ بها.

هل تقرأني عبر شاشة أم ورقة مطبوعة؟ لن أشغل بالي بالوسيلة التي تصلك كلماتي بها . هذا شأنك وطبيعة زمانك وظروفك . قد يستحيل عليّ تصوّر ما تصلون إليه من تقنيات، فالعالم يُبدي جنوناً متسارعاً في هذا الاتجاه المرعب، بعيداً عن طرائق اتصالنا . استمتع معي بلقائنا العبقري . سأجلس برفقتك نحتسي الشاي إذا كان لديك بعضه، أو أي مشروب ساخن . المتوفر بلا حرج . صديقان نحن . لا يهمني أن يقرأ لي جمهور عريض . أفضل الجلوس إلى فرد صديق . هكذا يكون للحوار معنى وروح . نتضحك، نتمازح، نتباكى، نتشاكى، نتلامس ونتعارف . يمكن للمئات أن يتواصلوا معي، فرادى كأنما كل منهم مستأثر برفقتي، بحيث أختلي بالواحد وأتمكن من استدراجه إلى عالمي . في زماني الذي أهلوس فيه أفضل أن أكون لقارئ واحد . لا شيء تغير . أنت هذا القارئ . أنا وأنت اثنان في واحد . قل : "مرحباً" للصديقة التي ذابت في الأرض لتنبت فيك، في صدرك، في قلبك، على حفاف الروح، زهرة أو شجرة أو مجرد حشيشة أرض ناحلة، نور جذل على شباكك، أو لهابة حمقاء تداعب أصابعك، لست أدري.. ما أعلمه علم اليقين أن الكلمات باقية.

لنبدأ من السطر الأول.. الحدث الأول.

تنطبق السماء على الأرض عادة، تساحقها تماماً، فلا تترك مجالاً لنسمة أو بريق.

من يقول هذا؟!

أنا "نارة" أصرّح بما أعرفه، و أدرك أن السماء لم تتزحزح عن موقعها ولا توانت عن إحكام

التصاقها الوشيج بسطح الأرض إلا عندما تمطى جسدي، وتجرأت فرفعت ذراعي العبقرية، ثم مددت سبابة كفي كذؤابة مشتتة، ولبصرار أزحت الفضاء المعتم عن صدر الأرض . كان حالكا إلى حد مرعب، وراح يتكور فوق الأديم رشيقا، متمهلا، لينسرب النور إلى الظلام . لعل الضوء انبثق من سبابة كفي، لعله انبعث من ذاته، تقدّم على مهل ولوّن الأفق مواصلاً الاعتلاء في ليل كحلي غامض ما لبث أن أضاء انفلاشاً أزرق صريحاً. عندها فقط، خفقت النسيمات في الفراغ، هسهست رائقة في سمعي . وحدي من كنت أملك سمعاً في عالم أصم . تتابع النسيم مبتهجا وماج حتى أزيد، صار هواءً عاصفاً ثم زوابع متلاطمة وضوضاء مخيفة، وبمثل ما رضى على الكون انخسر، استرخى العالم هنيهة و تنفس بانتظام كالسيس . حدث كل هذا بلمحة بصر، وفي الثواني التي ارتدت فيها أناملني لتستريح، تشكّل تاريخ البشرية الطويل ؛ ذاكرة الخير والشر، العقل والجنون، إمبراطوريات وشعوب ودول سادت ثم بادت، وأخرى تجددت، ثورات ونضالات تشتعل وتذوي، فيض من الخبرات والمعارف والضلال والشك واليقين، مشعوذون ومهرجون وساسة، شياطين وأنبياء، عشاق وأوغاد يحترفون الكراهية، ضحايا وقتلة، أبرياء وخونة، رجال يرتدون الأقنعة، وأطفال دهنوا وجوههم بالسكر، ونساء مطلبات بمساحيق التجميل، وعمال يلوّثهم سناج أسود، وآخرون مطمورون بأتربة بيضاء وغبار، جن وإنس .. كل هؤلاء، وما حدث لهم، وما وقع بين الأرض التي انتصبت فوقها قامتي والسماء التي ظللتني، أعرفه يقيناً، وأعرف أن لا أهمية له على الإطلاق .. مجرد حكايا أوّثت بها فراغ الدنيا، أحترق بها وأشعل الأشياء لنموت معاً ونتجدد في كل حين .. حكايات تشبه ما سبق وما سيلحق، ولكنها الآن .. هي الدنيا!

تلك الحكاية غير حقيقي، أعني أنكم تعرفون أننا لا نوجد هكذا، لا نُبعث مثل مرّدة أو عفاريت من لهب يشب بين الأرض والسماء . لسنا بهذا الحضور القدسي الأسطوري الجليل . لعلنا مجرد بتلات زهر تذروها الريح، مجرد هباء! فما هي الحكاية إذاً؟!

"هيستا" آلهة النار، حامية البيت! المنعزلة التي ما مالت يوماً إلى بشر! حملت ابنتها في يومها الخامس ودارت به حول الموقد، وألقت تائمها والتعاويد، قالت : "أيتها الروح الحارسة، باركي نارتي واحفظيها، امنحها الخلود ما بقيت جذوة من نار في الموقد"، ثم انحنى "هيستا" العظيمة

فوق جذوة النار واختطفتها، وفي سواد الليل خبأتها في جرة الفخار فلا تطفئها عينٌ حاسدة .  
تتجدد الجذوة في قعر الجرة كل حين، وخلافاً لكل نواميس النار وانصياعاً لتعويذات "هيستا"،  
كل ماء اندلق في بطن الجرة وهج جذوتها كأنها استقت إكسير الحياة.  
لا أتحدث لغو المجانين، ولا لهو العابثين، ولا حكمة العاقلين . "نارة" لغة بذاتها ولذاتها، خليط  
الماء والنار، وأن يعثر امرؤ على هذه الأوراق يوماً ويقراً، يعني بالضرورة انبعاث جمر "نارة" بين  
عينيه. كم نار ستشتعل كلما قرأ أحدكم كلمة! هذا كثير.. لا يُحتمل.  
ستحترق الدنيا وتترك إمبراطورية الورق رماداً، تتفحم المعاني وتتطاير الأفكار لتولد مرة تلو مرة...  
ما لي والأساطير! إنها احتيال بدائي على المعاني، أما أنا ، قلبُ النار، الكيان الشكّك واللغز  
الغامض الكاشف، فليس ما ترون من بهاء اللهب مجرد صورة وادعة، ولا عبثٌ بلا معنى . إنه  
مخاتلة منقوشة على أعصابكم بانتظار وصول اللسان المتوهج إلى الأشياء، يلمسها بداية كأنه يمر  
مصادفة، يداعبها بانعكاسات اللون الأزرق الصافي، ثم ينشب سعيره فيها أحمر نافعاً دخاناً  
مسوداً. هي النار تتفحص بدقة، وتنخل معدن الأشياء، لا ترتضي مجرد النظر ، تنخل المادة  
وتخللها، تفككها وتمتحنها لمعرفة ماهيتها الخفية قبل إحالتها إلى عناصرها الأولية. من لا يعرف  
النار الكامنة في الأعماق لا يتذوق لذة طعم الحياة في أعلى مراتبها.  
ما لكم وسفسطة الفلسفة، إنها بلا طائل، أفضل وتفضلون عنها الحكايات.

\*\*\*

انتعلتُ حذاءً مضحكاً، شبيهاً أنيقاً ، في "الأشرفية" حيث البشر كلاسيكيون وبسطاء، ليسوا  
بسطاء تماماً، ولكنهم لن يصدّقوا أنني أذهب في يومي الأول إلى العمل مبرزةً أصابع قدمي  
هكذا، يطلّ الأصبع الكبير من طرف، ثم تتواص الأصابع الأخرى إلى جوار بعضها بعضاً، قد  
يفسرون فعلتي "قلة قيمة"، ولا يلاحظون فرقاً يُذكر بين شبيهي وزنوبة الشطف الزرقاء الجلدية  
الرخيصة التي تنتشر على أرضفة سقف السيل وتباع بخمسة عشر قرشاً فقط، كانت بخمسة  
قروش، حتى هذه عرفتُ تضخم الأسعار، وطالتها شروطُ البنك الدولي، على أن سعرها ظل  
عادلاً، وفقاً لمقولة نسبية العدالة، فالزنوبة الكاوتشوك لا تخدم في قدم الصبيّة أكثر من أسبوع،  
خاصة إذا كانت مثل جارتننا "وداد"، مولعة برفع بنطالها عن ريلة القدم الممتلئة البيضاء تلاحق

سلسول الماء بمقشيتها المهترئة من قاع الدار وحتى المزراب، بالكاد تخدمها الزنوبة أياماً معدودة . ولكن هذا الذي أنتعله مختلف تماماً، ليس من الكاوتشوك الرخيص و إن كان من جلد صناعي تافه، التمتع وراء فترينة أنيقة في "جبل الحسين" و ناداني لابتياعه، رأيت مسبقاً بنات "عبدون" ومن جرّ جرّهن ينتعلنه في أقدامهن البيضاء الناعمة الرشيقة ذات الأصابع المصبوغة بالأحمر الملالي، يجلسن على شرفة مقهى "لوجانس" وقد شعلن الشبشب في الهواء وشددن أنفاس الأرجيلة، ونفنن من فتحات مناخيرهن الصغيرة هواء معطراً بتبناك التفاح والفراولة كأبرع سائق حافلة. لا أعرف لماذا يطيرن أقدامهن على هذا النحو، ففي المجلات التي ترشدنا إلى "إتيكيت" الجلسة الأمثل، تُفرد صور سيدات المجتمع والنساء الشهيرات وهن يسدلن قدماً على قدم في وضع مستقيم أنيق، بفعل الرشاقة، أو الأصول، كأن أحداً ربط الفخزين وشد وثاق عراقيب الكاحلين. قطعاً يشعرن بالألم ويتحملنه إكراماً للصورة أو الموقع الاجتماعي. لعل بنات الأحياء الراقية المعاصرات يتفادين هذه الأوجاع عندما يفشخن أفخادهن في الأماكن العامة بجرأة يُحسدن عليها، أو يعامدن أرجلهن لتطير الشبشب في الهواء وتقابل أفتيتها المسوحة وجوه المارة . اللعينات، لا يشعرن بالحرج أو ارتكاب فعل فجّ . لا بد أن تكون هذه هي الموضة، حتى وإن أثار سخرية بنات "الأشرفية"، هيا! "الأشرفية"! وبناته الطيبات جارات المستشفى الحكومي والمسجد القديم، المحاصرات بالأبواب وعيون الجيران الوقحة، ماذا يعرفن عن الدنيا! تدرن طويلاً على جلسة خجلى، يضممن أفخادهن بقوة خوف انفلات العصافير، ثم إن تمسكهن بالصنادل التقليدية المصنوعة من البلاستيك كأنه جلد أصلي لا يخوّلهن حق انتقاد حذائي الجديد الذي يسلخني عن طبقتي.

لأمانة، من عاداتي القبيحة تصوّر ما يعتقدّه الناس قبل أن تفصح ألسنتهم، فلم أسمع مثلاً أي انتقاد مباشر لشبشبي. فقط قرأت ما تقوله العيون المحم لقات المستنكرات في قدمي هذا الصباح عند موقف السرفيس، ولأن قدمي ناعمة -مصادفةً- وأصابعي تصطفّ من دون عيوب أو طلاء كيخنات الملفوف في صحن ربة منزل بارعة، لم أجد بأساً من هذه الموضة. في الحقيقة هي فرصة للملامسة الأرض الجديدة التي سأخطو فوقها، فبلاط المؤسسة من المدخل مروراً بالدرج وصولاً إلى مكتب الرئيس من الرخام الأردني الفاخر، يدعون إنه ينافس الإيطالي، لهذا سعدت

بشيشي، واغتنمت أول فرصة غفلت فيها عينا رئيس التحرير عن تفحصي، لأقارب بين قدمي . دفعت الشبشب بيسر فانزلق من قدمي اليسرى، لم تلتقط نظرات رئيس التحرير المشهد. حررت قدمي بيسر من الشبشب الموضه، وبجذر ومتعة وضعت باطن قدمي على الرخام الوردى البارد في المساحة الضيقة بين الحائط وسجادة قبيحة تتوسط الحجره، بات ب إمكاني الاستمتاع بلذة البلاط البارد يدغدغ لحم قدمي بلطف، وقبل أن ترتد عينا رئيس التحرير نحو ليكتشف وقاحة خلعي حذائي في حضرته فينايله الرضا الذي أبداه في لقا نحا القصير، دفعت بالشبشب مجدداً ليعتق قدمي التي ابتردت وسعدت . هكذا أنا، "ناره" تحب تفحص الأشياء مباشرة، حاره، حقيقي. لا يمكن أن أقنع بالسير على أرض لم أستشعر مقدار حرارتها على لحمي الحي، أكرر هذا الاختبار البسيط مرات ومرات، في الصيف، في الشتاء، في الحفلات العامه، في البيت، على الأرض العشبية، في النكد، في الاسترخاء . تختلف الحرارة بين مرة ومرة، مثل اختلافها المذهل بين قدمي عاشقين يتصببان عرقاً أو يرتعشان برداً ماتعاً. تلك مداخلة لا ضرورة لها الآن، لا أقصد فيها استعراض خبرات جسدية لم أختبرها، ولكني أؤكد الخبرات العامه التي أسعى للإمساك بها من قرونها، وهزها، وقطافها.

كذا كانت أولى خطواتي في بلاط صاحبة الجلالة، الصحافه، تلك التي تاجها بالشقلوب وكرسیها مقلوب، كنت "ناره" شكاكه، أتفحص الأشياء عياناً وخلصه .. إذا اجتزت الدرايزين الذي يقود إلى المكاتب، فإني أتحمسه، أحتضنه تماماً بقبضة يدي، أتعرف إليه يقيناً في فعل منافٍ للنظافة والرقه، خاصة أن كفي على ما يبدو الممسحة الوحيدة التي تتكفل ب إزالة الأتربة عن الدرايزين .. تصرف متهور مثل حماقة فتى مراهق يصعد سلماً محتكاً بكل الموجودات حوله . إنها لحظة اكتشاف متوحشة بدائية، أغازل فيها الخشب وجدران الممر في باطن الكف قبل أن أدفع الباب بثقة وأدخل إلى مكنتي، يجفّ ويتكشف باطن راحتي تدريجياً جراء ملامسة المادة الجيرية التي دهن بها الحائط . كان ذلك قبل طلائها بدهانات "أملشن" الملونة اللامعة التي لا تخرش كفي الناعمه.

يصمت زملائي لدى دخولي بصورة مريه، ينكمشون كحشرات مذعوره داهمها مفترس من فصيلة مغايره، أتصور مواضيع تتمتهم ووتوتتهم .. لو أنهم يتكلمون علناً، لكان أفضل لهم،



فخيالي يفترض أحاديث سقيمة.

النار الشكاكة تحب اختبار الأشياء بقسوة، قد تلتهمها تماماً، تأتي عليها قبل أن تتعرف على طبيعتها. عليّ أن أتدرب على الاستجمام برههً قبل إعطاء النار فرصتها للتوحش الكامل. للنار خطاياها بالطبع . أحياناً وعلى سبيل التفحص، أبلل لساني بجزء القلم، غالباً ما يزرّق لساني، وتعتريني متعة غامضة.

في العمل باتوا يلعبون بي مثل جندي على رقعة شطرنج، منذور للإطاحة به في أية لحظة .. كل يوم في قسم، لم يتبقّ إلا قسم خدمات البوفيه، كأني الصحفية العبقريّة، الجوكر الذي يصلح لكل موقف، أو كأني تلك التي تفشل في كل المواقع!

للفشل مرارة دبقة أزيلها كل يوم بحمام من الاستهانة وإدانة الكون واتهام الأبرياء، لا أشغل نفسي بأسباب النقل المتواصل وأطيع الأوامر بانضباط تام، ولكني أريد أن أضحك، أن أرسم الكاريكاتير.. لماذا يرسلونني إلى المهمات ثقيلة الظل حيث المكاتب الضيقة ومراوح صغيرة تُصدر أزيزاً مزعجاً؟ حيث السكرتيرات يمشطن قامتي بنظرات فاحصة كأنها الميزان، قبل أن يتفضلن بالإشارة إليّ للدخول إلى حرم السيد المسؤول، "حرم" هنا ترد تبجياً لمقرات المسؤولين ومكاتبهم العامرة، ولا علاقة لها بزوجاته م اللواتي قد يكنّ في تلك اللحظة، لحظة دخولي مكتب الزوج، جالسات باسترخاء تحت مبخرة الكوافير يُخضعن شعورهن الجميلة لحمامات الزيت . أما في حرم المكاتب، فهناك رجال يرتدون البزّات الكحلية المقلّمة تقليماً خفيفاً وربطات عنق غامقة شدّت بحرص على أعناق مكنتزة، وشماغات حمراء مثبتة بعقل سود فوق شيب الرأس، يحرصون على التقريب بين العينين في نظرات جادة ترسم خطوطاً طولية قصيرة بين الحاجبين، تزداد عمقاً وفقاً لعمر المسؤول وحجم مسؤوليته، في الأربعين 11، في الخمسين 111، في الستين تتقاطع الخطوط العمودية بأخرى أفقية، في السبعين هناك من قضى نخبه ومنهم من ينتظر بأنثلام لا عدّ ولا حصر لها على صفحة وجهه، ولكن - وإقراراً للحقيقة - للمسؤولين هيبة الرجال وكثرة الأبطال.. معلوم، أنت في الأردن، حيث يلصقون في منتصف الوجه فوق الشفاه مباشرة أشناباً كثة، كما يعلّقون أقدامهم رجلاً على رجل مثل بنات مقاهي "عبدون"، مع اختلاف بسيط، فأقدام الرجال تتخذ زاوية متعامدة، أعوّل كثيراً على طريقة الجلوس كأمهم يستدعي التفكير،

إذا ارتفعت القدم إلى حدّ غير لائق تمكنت من تفحص أسفل الحذاء , غالباً ما أجده نصف عمر، وكلما ارتفعت رتبة الرجل الوظيفية جدد حذاءه .. هذه ظاهرة جديدة بالدراسة . يتناسى أصحاب الأحذية المرفوعة كما لمايا الصفيقة أن ملك البلاد الراحل كان يجلس وقدم اه مضمومك بأدب جمّ .. هؤلاء، ينفثون دخان السجائر مستصغرين شأني، يجيبون باقتضاب ع ن أسئلي، تلك التي كتبها لي سكرتير التحرير، وتلك التي خطرت ببالي كتحدٍ للسكرتير الذي يظن أنه أفهم مني، قطعاً كنت أفهم منه، أتحرّك من قلب الحدث، ويتفلسف مُنظراً من وراء مكتبه المعزول، ومع ذلك أتخذ وحدي هيئة المتسولة في مكاتب المسؤولين .. كنت على يقين أن عملي كصحفية سينتهي بي إلى الضحك المرير، لهذا ومنذ البداية حاولت رسم الكاريكاتير ساخرة من عدوّتي الحبيبة، الصحافة، عيني عليها، سأرسمها مغناج أ ملتوية، لفافة ورق قابلة للاحتراق تتقد شعلة ثم رماداً، في الاسكتش الأولي خطرت ببالي لفائف يتم إحراقها في الأفلام المصرية إكراماً لأعين الراقصات .. افتقر الرسم إلى الإتقان. أعدته عدة مرات رغبةً في عرض فكري على مختص، فلنتهيت إلى رسم بديع يصور حزمة من ال صحف منطعجة ومربوطة الوسط، راعشة كراقصة شرقية، لا أعترض على الرقص، كتبت تحت الرسم بخطّ متراقص "ميلي ما مال الهوى يا عيني" .. لم أنس العبارة التي يذيل بها كبار رسامي الكاريكاتير رسوماتهم "مع الاعتذار للأغنية الشهيرة". نظر رسام الصحيفة المحترف "منذر الفاتح"، الذي كان لون بشرته غامقاً، إلى رسّمي، هازئاً رأسه بصورة لا تفضي إلى معنى:

- مش بطال.

سبّ!!

إنها الغيرة، ف"الفاتح" لم يحتمل منافسة لاذعة خفيفة الظل مث لي , ينغص عيشه "بهجوري" و"عماد حجاج" و"جلال الرفاعي" ولا ينقصه سواي، ولأن رأسه الأقرع المدور يعجبني، ولا أحب أن أراه متكدرًا، احترم ت ابتسامته الصافية، وانسحبت من عالم الكاريكاتير .. لن يخسر أحدنا شيئاً، لكنني أتوقع أن يموت رسام الكاريكاتير الجاد مبكراً، وأعيش أنا طويلاً، لأني قررت مزج المرار بالضحك.

من يرى "نارة" تركب السرفيس هبوطاً إلى قاع المدينة، ثم الباص صعوداً إلى الجبل، يرجح كونها مجرد "تلموذة" صغيرة، رغم أني أنهيت كابوس الجامعة المفزع منذ أعوام. قطعاً مهما حاول الراصد فإنه لن يرى تحت الخصلات القصيرة لشعري الأسود المصفف بإهمال والمقصوص على طريقة "ألا جرسون" أحلام اليقظة التي ترافقني في حلّي وترحالي. أركب التاكسي إذا ذهبت في مهمة إلى وزارة الخارجية على الدوار الثالث، فلبلد مقامات، وشبشي البسيط المفرط في تواضعه يليق بالسرفيس الذي يركبه الفقراء أمثالي، كما يليق بالموضة التي تخترعها بنات عمّان الغربية الراقيات.. إنه شبشب التنوع والاستجابة للاحتياجات والمواقف. شبشب التعددية والحرية، الحرية!! أستاذ من أغنية مبتذلة قديمة تقول "يا شبشب الهنا، يا ريتني كنت أنا". تُغضبني بلاهة المطرب الذي يتمنى لو أنه شبشب في قدم امرأة، ولكني أقع في مطب أكثر بلاهة بالربط بين تلك القطعة من المطاط في قاع القدم والحرية المجيدة!! تلك التي تستميت في سبيلها الشعوب وتقوم دونها الحروب، لا أصغر من شأنها، ولكن حاولوا أن تفهموا تقديري الكبير للشبشب. لقد لمست تأثيراً فعالاً لهذه القطعة المهملة تحت قاع القدم في مختلف المواقع والمواقف. في وزارة الخارجية مثلاً، حيث تلك الأبهة العالية النا حمة عن التصرفات البروتوكولية والأناقة المدروسة للعاملين، يتم تصنيفي كصحفية "سبور" بنت عصرها، بينما أصير في الباص والتاكسي ابنة لهذا الشعب البسيط الفقير المكافح.. يلعب هذا المركوب دوراً وسطياً ذكياً. إنه جواز مرور معترف به على أكثر من صعيد، وفي أماكن متباينة.. كيف لا أقدر الشبشب عالياً إذن!!

أركب السرفيس بعنجهية، يمكن تفسير تصرفي وفق دلالات متباينة أيضاً، فالرجل الخمسيني الذي يركب السرفيس معي يومياً، يحترم عنجهيتي وحجزي المقعد الأمامي بالكامل، يقدر أني ابنة لعائلة محافظة محترمة دُرّبت على حماية جسدها الغضّ من ملامسة غير مشروعة. أما الفتى الذي يمسح زجاج السيارة يومياً لقاء دائرة معدنية، خمسة قروش أو عشرة، فيقدر أني امرأة ثرية، أدفع ثمن مقعدين لأجلس على راحتي، تقول عيناه: "بظر ورب الكعبة". الفتاة التي تصبغ شعرها باللون الأحمر وتتسكع تحت أعين سائقي السيارات العمومية بين الحين والآخر، أي بين اختفاء واختفاء يطول أو يقصر تبعاً لظروفها، هذه الحمراء منكوشة الرأس، تقدر أني متعجرفة ما دمت

أحصن جسدي النحيل العادي العاطل عن الإثارة ، بالمسافات ، بينما جسدها الجميل المدكوك  
لحماً متناسقاً والناث عطراً رخيصاً على قمصان الرجال الملاصقين وقماش السرفيس المهترئ  
ينحشر بين ذكّرين على المقعد الخلفي . يظنني سائق السرفيس معجبة بفحولته الفاقعة . لعله يعدّ  
انفرادي برفقته الطيبة على الكرسي الأمامي محاولة تحرّش عننية تُرضي غروره .. كلهم يختلفون  
الافتراضات، وكلهم على حق، ولكني أتعامل مع افتراضي الخاص فأجلس في المقعد الأمامي  
بعيدة عن الآخرين وقريبة في ذات الوقت، أشمّ عرق السائق، يصعب التقدير إذا ما كان شحّ  
المياه أو إهمال زوجة كارهة أو شقاء الدنيا أو عطل حاسة الشم وراء موجات العرق المهلكة التي  
بيّحها جسده . أتحمّل على قرني بالالتفات صوب النافذة، وأحرص على أنفي مرفوعاً بكبرياء  
ومعلقاً في فراغ، حيث لا أحصل على هواء نقي في معظم الأحيان، قد تمرحافة "تويوتا" خرقاء  
ومخروقة، تلك التي يطلقون عليها اسم "بكم" فتتحفنا مؤخرته بسحابة من دخان المازوت  
الأسود تماثل رائحتها ريح جدّي الذي يتفنن في إطلاقه إذا ما تناول الفجل أو العدس، مع ذلك  
تظل رائحة بكم "التويوتا" القديمة إنقاذاً وخياراً معقولاً مقارنةً مع فرن الروائح المختلطة المنبعثة  
داخل السرفيس عرقاً وعطراً وأنفاساً عطنة .. أحرص على تفادي الاحتكاك بالأجساد الغريبة  
داخل العلبة المتحركة رغم استهانتي بالتلامس الذي يحدث عرضاً .. قد ترتطم يدي بيد السائق  
وأنا أضع قروشي القليلة فيها، أو بيد الخمسيني حين يساعدي على فتح الباب قائلاً:

- تفضلي عمّو .

- شكراً عمّو .

إذا قدّر منظف الزجاج المراهق أني ساهيةٌ لوهلة، يحتكّ بي كتفاً بكتف متعمداً الارتطام بنهدي  
الصلب وأنا أمرر جسدي بين المصطفيين على الدور، تبدو ملامسة سريعة غير مقصودة، لا  
يمكن الاحتكام إلى التهم والنوايا إزاء مثل هذا الاحتكاك العرضي .. تثقل لحظات ركوب  
السرفيس قلبي، لا أحب أنفاس الرجال الغرباء القابعين على الأريكة الخلفية و المصحوبة بشحنة  
من التنهيدات المستترة لذئاب هرمة تلوذ بالجوار .. "يعفرتني" التوتر الغامض في وسائل  
المواصلات، وأفضّل إعطاء وجهي للطريق ووجه من أحب . لا تغريني الاشتعالات الجانية العابرة،  
ففيها من السوقية ما ينتهك إجلالي لذاتي وجسدي .. أنا نار خامدة بجث عظيم، أتسلّي

بلهيب الوهم ومخاتلة من أسميه "حسن" .. تقلع "المرسيدس" القديمة ويلحق بها بخار "الأكوزت" المعطوب، أنقل انتباهي كله إلى الطريق التي تمر بنا أو نمر بها، لا تفوتني لافتة، إذ أحب قراءة الإعلانات وأسماء المحلات وأرقام السيارات من اللوحات الخلفية الممحيّة، كما أعدّ سيقان الأشجار المطلية بالشيد في اللحظة التي ندخل فيها عمّان المشجرة . من أين يجلبون الماء لسقاية شجر الشوارع في حين لا يتوفر لدى زوجة سائق التاكسي المهملة ؟! لعل تماهياً يبلغ الذوبان يسود بين الزوجين .. انسجام مرير يحوّل دون التمييز بين مخلوقين، تماماً مثلما يتناول عمّي البصل على العشاء فتفعل زوجته ذات الفعل، يتحولان معاً إلى وجبة بصل نيء كي يحفلا الالتصاق السريري فيما بعد.

ما أسعدني بسيل الأفكار التي تبعث رائحة البصل في ذاكرتي .. هذا الفيض البريء من الصور والروائح يمكن أن يُؤاد ويتبحر لو جاورني أحدهم في مقعدي، فيجرمني من الذهاب بعيداً حيث صحن الفجل والبصل وإيقاع صوت المضغ العالي الصادر عن فكّي عمي وزوجته .. أفكاري بشعة في مجملها، وإلا كيف أهرب من صهيد العرق والأنفاس مستحضرةً الفجل ومضغ عمي مزدرداً الطعام جرشاً مقرزاً؟

قد يدفعني جلوسٌ دكّر ملاصقاً إلى تفكير شيطاني!! العياذ بالله، لهذا أنفرد بالكرسي الأمامي مثل أميرة أسطورية، وأجلس رفيقي "حسن" جوارى خطّ دفاعٍ يصدّ عني الهبات المتفرقة من رائحة عرق السائق، ويحوّل أفكاري إلى الأشجار وهي تعبر الطريق .. يوماً ما، سأجمع مبلغاً متواضعاً من مهنة الحراثين تلك (الصحافة) لأقتني سيارة "فولكس فاجن" صفراء. لا تسألوني لماذا أريدها صفراء، ولا تتجشموا عناء تفسير اختيار اللون، ولا تتشاطروا عليّ بالنظريات الساذجة لعلم النفس وتحليل مغازي الألوان . تعجبي سيارة الغد هكذا، صفراء، من دون مبررات، أجلس فيها وحدي كأني في عربة بابا نويل، وأنفحص الشارع متمنية الهدايا واللعب، وأعني.

تصطفّ مواكب مركبات السرفيس في موقف رغدان، والكلمة "رغدان" مشتقة من رغد العيش ورفاهه، واسم "قُصير" يطل على المشهد العام من أعلى هضبة خضراء، أصاب بلخط لطيف بين شقاء الواقفين في الطابور بانتظار المركبات، وبين تاريخ الرفاء الذي يعلن عنه الاسم.

يقول "عبد الرحمن منيف"، وهو كاتب عربي كبير! "كبير" لفظة مضحكة لأنها تختص بالحجم، وبما أننا شعوب تفتقر إلى المعرفة الدقيقة بإمكانيات لغتها مثلما هي حالي، فإننا نصف أديباً طوله 160 سنتيمتراً بالكبير، ثم نحمل الكلمات ما لا تحتل، فنقول إننا نقصد كبر مقامه، يا سلام!! هذه انزياحات لغوية واحتيال صريح على المعاني.. المهم، هذا الكاتب وحتى لا تفهموني غلط أؤكد أنه كبير حقاً، يتذكر أنه سبح في قلب سيل عمّان، ويعزز دعواه بصورة فونوغرافية مشحطة ومحمية وشاحبة من طفولته، كأنها كذبة، فيها صغار يبلطون في ماء جارٍ كان هنا يوماً، تتصدر الصورة غلاف الكتاب وتبدو المياه شحاراً أسود لا يبلل الورق.. أقف هنا حيث بلبط صاحبنا على أرض جافة تماماً، وأسمع أصوات الباعة: "بدينار.. بدينار، يا صاحب العيال بدينار".

من قال إن صاحب العيال وحده يرتاد "سوق الحرامية" في منطقة "الجورة"؟ هناك مضاربة مذهلة، بعضهم يصيح بصوت مفخم واثق: "بنص دينار.. بنص.. بنص.. بنص.. من المعيب أن نسّمى سوقاً "سوق الحرامية". عيب! يعني! إذا كانت البضائع رخيصة ومستخدمة ومتناثرة وغير مكوية، تكون من جلايب اللصوص وقطاع الطرق وغزاة الليل! لماذا نحترم ونجلّ البضائع الغالية المنمقة بعناية والتي يتلعب سعر قطعة واحدة منها راتي كاملاً أو ضعفه في "مول عبدون" المجاور السعيد للسفارة الأمريكية في عمّان الغربية؟! هذا لو تهورت وابتعت شيئاً من هناك لا سمح الله، فأنا لا أقوى على سوق الأوادم هذا، وأفضّل سوق "البالة" و"الحرامية"، على الأقل أتفادي الغضب الناجم عن رؤية الإجراءات الأمنية المحيطة بالسفارة العظمى، أجازنا الله من الحرامية في "الجورة" و"عبدون"، ومن كل لصوص الأسواق على امتداد النظام العالمي الجدي.

إذا قررتُ "الفشخرة" أرتاد "جبل الحسين"، وإذا جرّوت على تدليع نفسي قليلاً أعرج على "الصوفية".. قطعاً أن مهنة الصحافة مقلب كبير شربته طوعاً. إنها تتطلب الحفاظ على هيئة مقبولة، تشتت أحياناً أناقة عالية في المناسبات، ومما يزيد الطين بلّة وجود عدد من الصحفيات القاديات من "الرابية" و"عبدون" و"دير غبار"، بنات العائلات اللواتي يتعن ملابسهن من محلات مرموقة تتعامل مع المركات المعروفة عالمياً، أحرص شخصياً على تفقد "الليل" في ظهر القطعة كي أتأكد فقط أن القطعة التي ستستر جسدي النحيل وتداري ناري لم تُصنع في أم يركا

كمعظم بضائع "البالة" .. تحيا الصين وهونج كونج، تعيش سنغافورة والهند .. لقد منحتنا هذه البلاد راحة البال، فألبسترل من دون أن نخون فلسطين، ونمنا من دون تأنيب ضمير .

النجاح .. النجاح .. هذا ما تبحث البنت عنه . طبعاً لن أصبح من الأثرياء ، ولست أطمح إلى اللعب بصرر النقود، بل إن صرّة "أوزي" بالأرز والمكسرات من مطعم "جبري" ألذُّ عندي وأمتع من تلك التي تظهر في المسلسلات المملة حين يصرخ الحاكم : "أعطه يا غلام"، فتطير الصرة ليلتلفها المرزُبيُّ عنهم .. أنام وأصحو على شهوة النجاح حتى وأنا أحصد الفشل . ما حققته لذاقي ليس يسيراً، أنا "نارة عدنان" اليتيمة، حفيدة بائع الهرايس عند كوع "مستشفى الأشرفية"، يظهر اسمي كل يوم، لأكن أكثر تواضعاً ودقة، يظهر اسمي بمعدل مرتين إلى ثلاث أسبوعياً على صفحات صحيفة توّرع بالآلاف عند مفترقات الطرق والإشارات الضوئية وعلى رفوف المكتبات وتُحفظ بالأدراج وتُمدّ تحت موائد الفقراء .. صحيح أنني أكتب عن افتتاح الوزراء للمعارض، عن التعميمات والترفيعات الجديدة وأمسيات الشعر الذي لا أفقه رموزه وعموضه، وربما أكتب أخباراً عاجلة عن صدور قوانين وتشريعات حديثة . في العام الحالي 2002 صدر من التشريعات أكثر مما صدر في عمر المملكة كلها . لا أعرف إذا كان هذا خلافاً أم ميزة؟! عبثاً أم إصلاحاً؟! وليس من مهامي أن أحلل الأرقام ، كما لا أتحدث في السياسة، ولكنه إحصاء بريء، فلا تفهموني غلط .. وضعي كله لا يحتمل هذا النوع من التشويش، أقصد ضعف بنيتي الجسدية وقدرتها على احتمال الأذى، إن وقع. أما وضعي الأسري فلا أحظى "عشائرياً" إلا بظهور مُنَحْنِ على "الزهايمر"، جدّي "أبو عدنان" الذي كان يوماً بائع هرايس متجوّلاً .. أعرف حجمي وحجم الآخرين، وبينني وبينكم أنظر أحياناً إلى مسألة الحجم كالناظر في مرآة محدبة. أرى نفسي على الهامش، ولكني طويلة ممتدة وملتفة على مجمل حافة المرآة السحرية، وأراهم في قعر الزجاج العاكس، صغاراً مبطّطين وكأنهم غرقى يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وحتى لا يقوّلي أحد، أنا لا أتحدث عن أحد، لقد غرقوا في المرآة ولم يعد لهم وجود، بَحَّ .. لا أتحدث عن أحد موجود حقاً يمتلك دفتر عائلة وبطاقة أحوال مدنية، مجرد خيالات غرقت في بحر متوهم في قاع فنجان ...

"نارة" القادمة من "الأشرفية" حيث يُسمع الأذان فجراً مثل صدى لصوتٍ إلهي في جنبات القفص الصدري، قبل أن يتداخل بأصوات العباد وكرربة حراكهم المتواصل ظهراً فاقداً صفاءه

وأثره، هذه الـ"نارة" وبحكم جنونها ومهنتها، ترتاد الأماكن الغربية التي تصبح بمرور الوقت أليفة أكثر من سطح البيت الذي زرعه آلاف المرات إبان الاستعداد لامتحانات التوجيهي .. أدخل مكاناً لا ينتمي لأيّة نكهة، بحيث يمكن أن تسأل ببراءة : من الذي ألقى بهذا المبنى هنا في منتصف الطريق القادمة من الجامعة الأردنية إلى جبل الحسين! أعطيت أخبار ندوة تقام في "المركز الثقافي الملكي"، ويحيرني التنوع في موضوعات الندوات عموماً، يورطني في أمور لا أفقها .. ندوة عن البيئة، أخرى عن أدب الأطفال، ندوات عن حوار الشرق والغرب، الحريات وحقوق الإنسان، "الجنندر" والمرأة، الأدب الإسلامي، "الإرهاب والكباب"، عفواً، هذا اسم فيلم انزلق من دون قصد، الإرهاب والهباب، لا أعرف على وجه الدقة عنوان تلك الندوة ولكني لم أفهم تصنيف المنتدين لابن لادن، إرهابي أم فدائي؟! الندوات لا تخلص إلى فكرة، مجرد "سفسطة". هذه الكلمة أيضاً لا أعرف من أين جاءت، ولكني أشعر من صلصلة ووشوشة حروفها أنها ترمي إلى توصيف الوضع "شورية"، كأن هذه الشورية ساحت على الورقة التي تم توزيعها على الصحافيين وحملت عنوان "توصيات الندوة"، على كل حال إذا لم أكن مصيبة وتجاوزت حدودي بالإساءة إلى المفكرين المنتدين ، فلن المحررة التي تكتب روايتي ستحذف الكلمة وتستعيض بأخرى أكثر ثقافة وتهدياً وأرقّ دلالة. هذه مسؤوليته!

أما الندوات، الجثث المخطئة ! مومياءات ملفوفة بالبياض فوق جلد خشن وعظم متخشب، تنطلق الكلمات الجوفاء من أبواق واسعة، عفواً أقصد من أفواه واثقة .. مجرد استعراض عضلات مراهق يضغط بمجموع جسده ليبرز طابة متواضعة أعلى ذراعه، أو تسميع ثقيل لمحفوظات كتلك التي مررت أعمارنا في مرحلة نيل شهادة الثانوية العامة .. انقضى عام التوجيهي ولم أفلت من كابوسه بعد، يكاد يشد فروة رأسي ويقنات أعصابي كلما ولجت إلى ندوة في مكان سمح .. تعاودني دروس الخوف والألم. في البداية كان جهلي مكشوفاً في مثل هذه المحاضرات، يتضح حين أسجل بسرعة ودقة كل ما يقال، وأعيد تصفيفه من دون الانتباه لكلمة تنزلق هنا أو هناك فتغير المعنى كله . من المستبعد أن يكتشف سكرتير التحرير مثل هذا الخلل، ففهمه ليس أعدل من فهمي. أما القراء، إذا وجدوا، فلا يتوقعون الخطأ في الكلمة المطبوعة .. للمطبوع قداسته التي نغتاها كل يوم بدم بارد ولا من يحاسبنا . تأتي المخاوف من أصحاب الشأن أنفسهم عندما



يتصلون هاتفياً برئيس التحرير محتجين، أو عندما يرسلون باعتراضاتهم مكتوبة، عندها يجعلون من حكاية ضِعفي المهني فضيحة.. يدفعني الأمر لمراقبة مستواي المهني بكل تواضع واستعداد صادق للتعلم.. اكتشفت عيوبي شيئاً فشيئاً، فأنا مثلاً أفهم بذات الطريقة التي تعلمتها في الجامعة، أي عكس ما يقول المحاضر، ولم يكن هذا عيبي وحدي، فمعظم الصحافيين مصابون بهذه الآفة ويقعون في مغبة الفهم المعوج، للحق بعضهم يعالج أدواته، وأنا فعلت ذلك على طريقي، لهذا كنت أتفرج في مثل هذه المنتديات على الناس، المشاركين، والمداخلين، هواة الكلام، أولئك الذين لهم في كل عرس قرص، هذا مثل شعبي ذكي قيل خصيصاً منذ أزمان بعيدة في انتظار ولادة العبقري "عبد الباري" .. كيف تمر ندوة من دون أن ينبري "عبد الباري" المثقف الذي أنحله التفكير وذهب ببهاء وجهه عناء القراءة والتدبير، المتواجد بكثافة في كل المنتديات، كيف لا ينبري ليقول قولته في موضوع الندوة! وإن ظن السامعون أن مداخلته العظيمة جاهزة قبل المحاضرة، فهو عبقري من نوع خاص، موهوب، لا أسخر والله، فليس من السهل على امرئ متواضع القدرات إعداد مداخلته لكل موضوع، هذه موهبة ربانية ومنحة لا تتاح لكل عابر طريق.. يلقي عبد الباري مداخلته "مدوزنة" ورفيعة اللغة بمجرد اطلاعه على عنوان المحاضرة وموضوعها، وقد يفوق صاحب المحاضرة في مداخلته العصماء، فالمحاضر يشطح بعيداً عن عنوان محاضرتة محاولاً فرض عناوينه الخاصة، متمرداً على الموضوع المعلن عنه لصالح ما يريد هو الإفصاح عنه، ولكن "عبد الباري" لا يسمح له بالإفلات بفعلة، ويرد السامعين إلى العنوان مقدماً رؤيته المعقدة.. إنها معركة، حرب كلام وعضلات وخزعات، وعلى المنصات الوقورة أرى مقاصدهم تمسك بتلابيب بعضها بعضاً، وتشد الياقات حتى تطير أزرار القمصان، والمخلوقة التي سخطها الله صحفية، وركب بدل عينيها كشافات، تقوم بتسجيل كل هذا السقام والسخام بأمانة لتنتهي إلى موضوع جاف حول إعمار البلاد والحفاظ على البيئة، القاسم المشترك الأعظم، هذا التعبير من بقايا الدراسة لإعدادية، القاسم المشترك بين المتحدثين هو الإشارة الجريئة لهدر الأموال.. بات سقف الفضفضة الكلامية عالياً، يمشون الهويني فوق القانون ويتغندرون بدلال قائلين إن الأموال العربية تُهدر على بناء القصور! جرأة منقوصة لا تذهب إلى التحديد الجغرافي "رحم الله امرءاً عرف سقف كلمته" .. أحتج على احتجاجهم! طُؤلوا بالكم

معى قليلاً، أنا لست ضد بناء القصور والمرافق العامة الفخمة المبهرة، لماذا علينا أن نرتضي بقصر متواضع؟! كيف يكون قصرًا إذن؟! أحرام علينا أن نحلم بقاعات فارهة ومسارح باذخة وساحات تذهل الناظرين؟ هل مجرد خلوّ ديارنا من النفط يعني أن نتواضع ونقصر أكتافنا، ونقطع أيدينا ونشحد عليها؟! ما أهمية التزايد المطرد لأعداد الجائعين والشحاذين وبائعي العلكة وفارشات السجائر الرخيصة في شارع "الملك طلال"، ما علاقة هذا بذلك؟! طولوا بالكم ولا تقذفوني بالتهم، فلست أرستقراطية تقترح أكل "البسكوت" إذا انعدم الخبز، حتى هريسة جدّي التي يبيعها لم أذوقها إلا في المناسبات، ولكني أفكر بالمستقبل، ربما كان القادة العرب العظام يفكرون به مثلي، في المستقبل، القريب، البعيد، تغدو القصور العربية مصدرَ رزق للشعوب، وتتحول إلى مزارات سياحية مهمة.. هل تتصوّرون كم يدرّ قصر فرساي على فرنسا، أو قصر الحمرا الذي بناه أجدادنا لينعم بريعه أحفادُ الإسبان؟ لماذا تعجبنا قصور أباطرة الروس الذين ولّى زمانهم وذهبت أيامهم! المسألة فيها بُعد نظر وتضحيات، لكن الشعوب الرعناء لا تنظر إلى أبعد من أفواهها، ولا تسمع إلا نداءات أمعائها المستصرخة.. هذا قصر نظر و خيانة وطنية للمستقبل، أو فراغة عين وحسد. يا رب، ارحمني من أفكارى الحمقاء العابثة التي تضيّع عليّ فقرات مهمة من المحاضرة أو المداخلات الثمينة.

يتدافعون في الاستراحة حول طاولة الشاي والقهوة التي تسبح بما اندلق من الأباريق والبرادات، ويتلعون حبات "البيجي فور" الصغيرة الناشفة الملونة بالكاكاو، والتي تسميها زوجة عمي "قلاييط الكيك السخيفة".. ألقى بقامتي كما تسقط فزاعة على المقعد الجلدي الوثير، وأسأل نفسي: كل المقاعد في المراكز والمنتديات ومكاتب كبار القوم وصالونات البيوت وثيرة، كبيرة! يغطس جسدي النحيل في المقعد إذا ما تراجعت إلى الخلف حتى ترتفع قدمي عن سطح الأرض ملجم ترات قليلة. يحدث الأمر نفسه للجميع، من هنا تؤرقني مسألة الحجم، تسخر الكنبات المستوردة من قاماتنا القصيرة في منطقة البحر المتوسط ولا تسمح لأقدامنا باتخاذ موقعها على الأرض، المسؤول القصير اللحم تقطع أنفاسه وهو يغرق في وثير الجلد أو الجوخ المنجد، فإذا فقد توازنه لحظة صافحنا بكرشٍ معتبرٍ تربيّ على المناسف، ارتفع عنوان الوجاهة مثل علم على سارية مكسورة.

مد "عبد الباري" يده نحوي بفنجان الشاي:

- والله زمان، صحفيتنا الرائعة، "نارة"، ست البنات، مش معقول، حلوة الحلوات، لا تشرب الشاي!

أشرب البلى الأزرق، أشرب السم الزعاف، ولا أهضم عيني "عبد الباري" تلتمعان في لحظة غزل، وأسناناه الصفراء ترسم لي حكاية محتملة عن قبلة الموت .. حلّ عني يا رجل، لست ست البنات ولا شعر البنات، والله تأتي بي مهنتي إلى كل المنتديات .. لا تتوهم أنني ألاحقك، لست مهتمة بغزلك، أشعر بك سمجاً وثقيلاً، ولا تفتني ثقافتك الموسوعية، اكتشفت كل الأعياب وجهلك، وافتقارك للذوق والمنطق، مع ذلك أنهض جزئياً من ارتمائي على المقعد الوثير، وأمد يدي ألتقط فنجان الشاي وأبتسم (أرجح أن أساني تصير صفراء مثله في تلك اللحظة) وأقول بتهذيب عال:

- تسلم إيديك، كلك ذوق، مداخلتك كانت رائعة.

لا أتذكر ماذا تناولت من طعام، ولكني أشعر برغبة عارمة في التقيؤ على سجاد المركز.. لا بد لي من السيطرة على الشريرة التي في داخلي، والتي تجعل من عبد الباري كريهاً..

\*\*\*

أتحدث من دون ترتيب زمني، فإمكانياتي الفنية أو الإبداعية لا تساعدني على هذا .. أنا خليط من فوضى، يقفز عقلي في الثانية الواحدة بين الجحيم والفردوس عشرات المرات، يتحرك مثل جناح عصفور نرق محبوس .. تتصارع الصور، أبيض وأسود وبا لألوان. أتشظى، ولست معنية بترتيب هذا السيل المتدفق في ذاكرتي ومخيلتي مزيجاً من رغائب ومكاره، أمنيات ومخاوف، أحداثٍ ووقائعٍ وتخيلات، فللكاتبة مسؤولية عن الترتيب المنطقي للنص المكتوب، أما سيل الكلمات المنبعث من لساني فليس معنياً بضابط أو منطق.. إذا استسهلت الكاتبة الأمر وأراقت أمامكم كل الترهات التي قلتها معجونة ببعضها بعضاً فهذا أمر يخصها (هي من ستحصل على حقوق ملكية الرواية على أية حال).. أنا عليّ أن أقول، وهي تعيد الترتيب .. أتمنى أن تحولني إلى عبقرية لغة، إلى مثقفة كونية، إلى كائن خرافي بقدرات خارقة، لأني أعتقد أن شيئاً غريباً حدث لحظة تشريفي هذه الدنيا، الفائزة.

لا تفوتني روايتي لحكاية مولدي مرتين وبصورتين مختلفتين، حسناً، إليكم حكاية ثالثاً  
كان جدّي بائع الهرايس يقول:

"دنيا فولتلي وعالم الموني.."، سارقاً التعبير من فيلم مصري .. "أبو عدنان" المهكين لا يستطيع  
حتى في زمان حضور ذاكرته المتواضعة اختراع كلماته الخاصة . حالياً شُطبت ذاكرته بالكامل،  
ضربه "الزهايمر" ضربة موجعة.. لعلها ضربة رحيمة، إذ من السذاجة تصوّر جدّي مستمتعاً  
بذكرات شقائه! تكمن المتعة في نسيان أحداث عمر شقيّ تَعِس .. لعل الفراغ الذي يعيشه  
اليوم أرحم به وأبهى له، من يعرف! هذا الذي تسميه شمطاء عمي "الحَرْف"، صاحب نظرية  
أنقذتني في الطفولة، تقول نظريته إن الله مسؤول عن الموت كما الحياة، وإن أرواحنا كلنا من دون  
استثناء ملك العليّ القدير، وما نحن إلا أمانات في الدنيا، وله أن يسترد الأمانة ساعة يقدر  
ويشاء، وبالكيفية التي يختار.. لولا هذه النظرية الفذة لكنت احترقت بنيران ضميري التي راودتني  
بلوم كبير وأنا في السادسة من عمري .. غريب أني كنت يوماً في مثل هذه العمر الطري! لعلها  
أنتى سواي، ولكنها عدّبتني، في السادسة حكّت لي النساء عن أمي وأبي اللذين لم يكونا يوماً  
هنا، على الأقل لم أرهما، مجرد حكايات مثل "علاء الدين والأربعون حرامي"، أو "الأميرة  
النائمة"، ما أبشع تلك الحكاية، أقصد "الأميرة النائمة"، لا أحتمل النوم عمراً حتى يشرف  
الأمير.. أما حكايتنا نحن فبسيطة؛ راح أبي يوماً إلى فلسطين ولم يعد.. لماذا يروحون إلى فلسطين  
التي راحت؟! يروحون ولا يعودون!! هنالك أسماء كثيرة للبطولة والاستشهاد أو الضياع والفقْد،  
أبطال القصص والقصائد والخطب الطنانة الرنانة يعودون حاملين سيوفاً مضرحة بدم الأعداء  
ورايات انتصار وأكاليل غار.. أبطال الواقع يغيبون للأبد، يصيرون أوهاماً ثقيلة وأشباحاً مفزعة .  
هذا ما حدث مع أبي . أما حكاية أمي التي تلت قصة أبي، إذ إنها كانت حية تُرزق ساعة  
شرفُ أنا. يا لذكائي!! منطقيّ وعاديّ حضورُ الأمهات لحظة الولادة.

كانت أمي تصرخ بحرقة وجنون، ستقولون كيف لي أن أعرف! في الواقع لا أحد يعرف مقدار  
وجعها سواي، لأني كنتُ الوجع الذي احترق رحمها بركاناً غادراً تلك اللحظة، ودفعها لعض  
أطراف اللحاف.. أطلقت الآه من قعر بطنها، وخرش الصياح حنجرتها اللاهثة شائمةً أبي الذي  
راح وخلاها.. لم تنفعه البطولات ولم يشفع له غيابها الدرامي، ولا وقفت فلسطين سداً يُجُول

دون توقف السباب، ولا هدأتها محاولات جدّي الحانية، اهتزت كهولته حيرةً ووحدة لحظةً تعسّر

وضع كنته لحملها، مصرّةً على تعذيبه صارخة:

- يمه.. آهآه... آه.. كُنْهَا "نارة" بقلبي..

اضطرب الرجل مردداً:

- الله معك.. الله معك..

جعرتُ بحنق:

- الله ينتقم منك، انت وابنك.. الله لا يكسّته.. أخ خ..

اكتشفوا في حجرة الولادة أن الكهل ليس زوج المرأة ولا حتى والدها، صاحت الممرضة:

- برّه.. برّه.. شو بتساوي بلوضة الولادة؟!

أخرجوا الحما من حجرة المرأة التي لا أهل لها، فشرّفتُ أنا .. لعلي تأخرت خجلاً من الرجل

الحائر الواقف يرقب ارتجاج القدمين وأنا أتدلجج بينهما.. للصراحة كان الجدّ طويلَ البال خفيفَ

الروح صاحب نكتة، سلّى نفسه ليداري مخاوفه .. حين حملني بين ذراعيه تضاحك مع كنته

وحبس دموعه، أطلق نكته الأولى والأخيرة:

- هاي هي ال"نارة"! شقفة لحم ممعي! هرشتي بيها دماغنا، هاي نارك؟!

النكتة البايخة صارت حقيقة تفغر فاهها بالصراخ وتلبط بيديها وقدميها مطالبةً بجملة ثدي أمها،

صار اسمها "نارة"، اعترض عمي "رمضان" لغرابة الاسم . اعترض لا أهمية له ، فقد جاء اسمي

معي، ودافعت أُمي في عزّ ألمها عنه كحقّ مكتسب.. إنها نبوءة لا يصح تجاهلها أو التظاهر أنها

لم تكن، خاصة أن صاحببتها تُنازع الحياة أو الموت لحظتها .. هل تحدثت عن موت أُمي بحمّي

النفاس؟! تصوروا، كنا نقطن قرب المستشفى، وما نؤال، إلا أن أُمي ماتت لسبب تافه كهذا، ما

الذي جاء بالصبيّة التي ولدتني من حي ماركا البعيد حيث كانت تقطن قرب كراج السيارات ؟!

لماذا لم تتزوج بميكانيكي يستلقي تحت قعر السيارة ويعود كل مساء إلى بيته ؟! لماذا تعثرت بأبي

الذاهب إلى فلسطين بلا عودة، لتموت في حمّي نفاسها؟!

عذراً، كتبت لأضحك، لنضحك معاً، ولن أبتزّم بيتي المبكر . لا أحاول أن أتشبه بالأنبياء

يتماً، خاصة أُنّي لم أشعر بوقّع اليئم كما يتم تصويره في الأفلام الهندية العاجزة عن نيل تعاطفي .

من السهل مواجهة معلمة اللغة العربية بالامتناع عن الكتابة حول عيد الأم . ببساطة، أُمِّي ماتت، ولا أعرف لماذا تنظر الطالبات نحوي بكل هذا الحزن، فلست حزينة وإن طرأ ببالي في السادسة من عمري أن مولدي قتلَ أُمِّي، وأن ناري الخبيثة سببت لها الحمى، صهرتها من أعماق فرجها لتموت.

لولا نظرية جدِّي اللامعة لأمضيت العمر أحتَرّ دموعي، لكن الرجل الذي نسى كل شيء فيما بعد، أكد لي أنها ماتت لانتهاء العمر المقدر لها، وأني وُلدت لأن عمري بدأ . بهذه البساطة، مثل تاريخ انتهاء الصلاحية الذي يُطبع على علب اللحم المعلّب المعدنية، لذا لن أكتب موضوع الإنشاء في معنى الأمومة على وجه الخصوص . زميلتي حورية أيضاً يتيمة، ولكنها تصرّ على أن تكتب عن الأم في كل آن، و لا تنتظر الواحد والعشرين من آذار، فتسطرّ كلاماً أهبلَ عن الحنان والفقْد والضياع.. أنا أختلف، ليس لأن من حولي لعبوا أدوار الحنان بنجاح تام، فلم تكن زوجة عمي "فتحية" حانية، ولا تشبه الشريرة في حكاية "سندريلا" الشهيرة، حاولوا معي نسيان حكاية الحبس في القبو، فلقد اعتقدت لزمان غير قصير أنها أُمِّي، ففي الحارة الضيقة، كلما كانت هناك طفلة وامرأة في بيت، هما أم وابنتها، وإن درّبتني فيما بعد على مناداتها: "خالتي".

جاء عمي "رمضان" (زوجها) للعيش معنا بعد فقدان جدِّي للذاكرة، وعرفت في وقت متأخر أنه ليس عمي "لَزْمٌ"، ولكن ابن عم أبي.. هؤلاء جميعاً، حتى جدِّي قبل أن يتحول إلى طفل خالي الذهن يتسلل إلى الحارة ويتعبنا في إرسال الأطفال والشبان بحثاً عنه، حتى هو والآخرون كانوا هناك دائماً يفيضون على حياتي بأطيافهم وألوانهم، ولكني كنت مكثفية بنفسري..

تقول زوجة عمي لنساء الصبحية:

- "نارة" بنت زَيِّ النسمة، ما بتغلّبنا يلشي.

نسمة تخبئ حمماً بركانية قائمة الاحمرار والسواد . تسيل جنباتي بالتماع ذهبي ، وتختلط معادني وتذوب كما يذوب مسحوق النسكافيه في ماء ساخن، نسمة ندية!! أنا من درّبت نفسي على ارتداء ملابسني والاستحمام وتناول الطعام من دون ضجيج، على الجلوس أقرأ كُتبي هادئةً

ممسكةً بجمري في منطقة خفية بين لحمي وعظمي، منذ اليوم الأول لفقد أُمِّي تعلمتُ العناية بنفسني، تخجل النار في إهابي من أشياء الحياة الصغيرة المتواضعة، أختزن ناري للفتاة المتأججة

التي صرَّتها، طفولتي مجرد إذكاء للهب، أحرك الهواء بدعة حول موقدي، أتجلى وأراقب، وأمر بالزمن مشتتة في غفلة مره..

لعلي أتخابث على قارئ قليلاً، ولكني أعتز اعترافاً خاصاً شديد السري، كما يحدث حين أترثر بلا انقطاع بما يعنّ على بالي أمام جدّي و أرقب عينيه لا ترمشان، فأتنفس الصعداء، مودعةً أسراري في صندوق مغلق لا يُجتمَل أبداً العثور على مفتاحه .. الآن أبوح على ذات الطريقة ، ولكن مع أمنيّاتي أن تنسوا تلك الواقعة، لأنها لا شيء حقاً في مسار حياتي، فقد استلزم المرور بمتاعب الحياة تدريباً ذكياً هنيئاً وهادئاً يعود في معظمه إلى ذكائي الفطري، أو مرونتي الذاتية، والدرس البليغ الذي علّمتني إياه خالتي "فتحية" جعل مني تلك الحكيمه.

يومها عدّلت جارتنا " أم صبحي " مندبل رأسها الحافل بالأزهار البرتقالية مثل حديقه بوذية، شدته لتختنق به وهي تراقب جدّي الناسي متجولاً في الحجرة كأن امرأة ستلد، يذهب يمنة ويسرة ويفرك كفيّه، وتتمم الخالة "فتحية":

- عمى ضونا... اللهم طوّلك يا روح.

ترمقني "أم صبحي" بعين تنحرف جانباً، أظهار بالانصراف إلى خيالاتي، فتستهين بسمعي وفهمي وتوشوش رافعةً كفّها سترأ فوق شفيتها:

- تأكدي كله يدخل، ما يسيل اشي، ولا نقطة... أحسن ترفيعهن فوق.

- فوق!! كيف!؟

- فوق.. يمّ، هيك (طعجت ظهرها إلى الوراء رافعةً ذراعها) .. ظهرك عالسرير... أقولك.. تشعبطي وعلقيهن بجديد التخت، وارفعي حالك منيح، حطي مخدّة، تنتين، تا.. يمّ كله يروح هناك.. لا تخلي إشي يسيل..

تعاود "أم صبحي" ملاحقتي بطرف عين، فلأنصرف إلى الاهتمام بورقة قصصتها من دون إتقان على هيئة حصان ذيله منفلت رغم اعوجاج قدميه .. لم أكن أدرك آنذاك أن الخالة تعيش محاولاتٍ مستميتةً للحاق بركب الأمهات، و "أم صبحي" الخبيرة بتساعدتها بالنصائح الثمينه . يمكنني اليوم بغفران تام تقدير الفرع الذي عشناه ذات ليلة أنا وخالتي والذي نظم علاقتنا فيما بعد. ليلتها اضطحعتُ قرب جدّي، أشمّ رائحته التي تبث نحوي هواءً مثقلاً بالحزن والغبار

والنسيان، شيئاً قادمًا من الماضي .. كان متناوياً ، كذلك أنا، نغفو عادةً مثل كلاب الشوارع، بيقظة تامة، ورغم الخدر الذي سببته رائحة جدّي، ومكابدة نوم لا يكتمل، فقد ضغطت مثنائي بقوة حتى لم أعد أحتمل . جررتُ قدمي نحو بيت الخلاء، أعرف اتجاهي في العتمة، لامستُ الجدار فماد جسدي نعاساً، ولكن فحيحاً انبعث من حجرة العم وزوج نهنّبته سمعي . استقمت مرتكزةً على الحائط، لم أتعمد استراق السمع فليس هذا من عادتي، ولديّ من المشاغل الليلية ما يحول بيني وبين مجريات الأمور خارجي، لكن شجرة عمّي المفاجئة والتي امتزجت بشهقة زوجته دقت جرسَ إنذار في أذني . لم أكن بريئة تماماً، فجسدي يلحّ لمعرفة المزيد عن الاحتكاك البشري . تجمدت في مكاني متناسيةً إلحاح مثنائي . لم تعد الحجرة معتمة تماماً، أضاء الوقوف المتنبه العتمة تلقائياً . ظل جسد جدّي مكوراً أمامي فوق فراشه ا لأرضي كظل جاثم في المكان . همدت الأصوات تماماً للحظات، ولم أتحرّك . بصراحة أعجبتني هذه الوقفة التي تنذر بعاصفة من نوع ما . تقلص أعضائي فأضمتُ رجليّ بقوة الواحدة فوق الأخرى لأمنع ارتجاف فخذي، وتتنصر مثنائي على فضولي فأندفع برعونة إلى بيت الخلاء، تحت الضوء المنبعث من مصدر غامض عبر النافذة، ذلك أن حجرتهما لها نافذة وليست كتلك الصالة التي نتكوم فيها أنا وجدّي . تحت بقعة الضوء الداخلة من شباكهما و المنفلشة كقمع رأيت "فتحية " وقد استلقت على ظهرها شامرةً قميص النوم حتى منتصف البطن، رافعةً عجزها العاري بعدد من الوسائد، و رجلاها معلقتان في الهواء، رأساً على عقب أو عقباً على رأس، كلاعب أكروبات خبير . أدركت دلالة التفاصيل بلحظةٍ خاطفة، ولم أتبين حمق تحركي عند الباب إلا حين قدحتُ عينيها، رأيتني إذ رأيتها، وفزعت واستنكرت، أظنها صرخت أيضاً ولكني لم ألتقط إلا غضب عينيها، وكيف تماوت رجلاها فجأة من عليائها وانسدل القميص، بينما يغالب عمي بقايا رجفةٍ مر بها وهو يسحب سروال بيجامته إلى الأعلى، مغطياً فتحتة الواسعة بحركة عشوائية بكفيه.

- شو؟ شو مالِك؟!!

- بنت الكلب..

بنت الكلب المقصودة أنا . سيطرت العتمة على المكان مجدداً، وهيكلها يتقدم نحوي بسرعة . أمسكت كفها بساعدي مؤرجحةً جسدي لحظة، وصوت عمي يقول:



- اتركي البنت.. شو صار! ما خلص..

طريقة فذة لتعاطف العم معي، اتركي البنت! كلمة حاملة تنم عن ضجر. لم تسمعه "فتحية" وواصلت شدي بقبضة قاسية، أين تذهب بي! انسحبتُ وراءها فوق درج البيت المظلم. أنفاسها تتهدج. أنفاسي أيضاً، وآهات قصيرة تختنق في صدري، بينما تتفجر حروفها وكلماته.. أنشغل بكيفية انسحالي متفادياً لإصابات جسدية بليغة وأطرافي تقبض فوق الدرجات..

- يلعبن أبوكي... المسخّم مسخّم.. من وين بدنا نجيب الحظّ؟! يا نحس يا بومة... أنا بدبرك.. تحت درجات السلم دفعت بكنفها الباب الخشبي العفن للقبو. هبت رطوبة خانقة، وغرقت في الظلام تماماً رغم عينيّ المفتوحتين، و"فتحية" ترى في العتمة مثل أنثى ضبع توحشت. ضغطت جسدي على الحائط وأفلتت ساعدي لحظات. سمعت صوت عمي في الخارج يكرر متنهداً مثل "مرّة":

- اتركي البنت.

شتلتُ جسدي مرة أخرى، ثم بهراة ضمتُ ساعدي وجرتني إلى الباب تماماً وراحت تلف كفي بجبل قوي خشن، لفته مراراً، ثم علقت ربطتها المحكمة بيد الباب الحديدية واستدارت. قالت كلمات أخرى مبعثرة، وانحرفت خارج الباب، شدته وراءها فانغلق، ودار مفتاحه متحشرجاً في حلقة مراتٍ ثلاث. حبستني خالتي إذن! أدركت الآن ماذا حدث. ليصكاني الحفاظ على هدوئي ولامبالاتي حتى الصباح لولا تلك الخريشة المتواصلة في زاوية القبو، وذلك لإلحاح المضني لأمعائي، والصوت الغريب الخرافي يتردد في المكان متقطعاً محدثاً صدى، حاولت تجاهله كأن أحدث "حسن" عن تلك الخاصية الغريبة للرؤية وسط الظلام، لكن حتى هذه الخاصية لم تمنح نفسها لي في القبو الرطب. وتعالى الصوت، أنين موجع، ثم حنجره تجوح.. التبس الأمر عليّ، لأنني في وقتي ورغم إحساسي بشد الحبل على رسغي كنت أقاوم الألم وأحبس صوتي ودموعي. يستمر الصوت رغم ذلك، وقبل بزوغ الفجر تماماً وأنا أنحي على وجعي ذبيحةً انقطع الصوت فجأة، ثم انبعث مواءً متقطعاً.. سخّ السائل بين فخذي دافئاً بطيئاً، ارتعشت وأنا أدرك أن فرعي الليلي نجم عن هزة ولدت في القبو، وأمعاء مثقلة بمخلفاتها، ورسغين حزّهما الشدّ العنيف خطّين أحمرين ينفقان حرارةً موجعة. عندما فتح عمي باب القبو انزاح جسدي إلى الداخل، وسقط

ضوء النهار على الزاوية كاشفاً عن هررة كثر يتمسّحن بالقطة الأم التي خنشرت وانتفش شعرها .  
كدت أتهاوى وهو يفكّ رباط كفيّ متمتماً:

- لا حول الله ولا قوة إلا بالله..

استيقظت تماماً مانعةً جسدي أن يمد . مرقتُ أمامه بخطوات بطيئة، مودعةً طفولتي، امرأة  
"حيزبون" على حنكة ودهاء، أطقق في أعماقي كما شرر ينبعث من موقد تغذّيه الريح، وقفت  
"خالتي فتحية" أعلى الدرج ترقب صعودي بريية.. ظلت واقفة هناك وعيناي تجلدها قبل أن  
تنفلت نحو حجرها كأن شبحاً يتعقبها .. مسكينة خالتي . لم تعد تستطيع النظر مباشرة إلى  
وجهي، وكنت أستمتع بفتح عيوني في مواجهتها، ولكنني استوعبت الدرس . كان عليها أن تخطئ  
فأكبّلها بعثرتها إلى الأبد . لم يحدث بيننا بعد ذلك ما يستوجب حبسي في القبو، وظلت أم  
صبحي والجارات العزيزات يرددن في الحارة:

- سبحان الله، أم وبنتها مش هي ك!!

\*\*\*

لست طفلة متوحّدة كما يروق لمعلمتي في المدرسة الابتدائية أن تسميني، أو "معقدة" كما  
تتهامس البنات سرّاً، حتى ولو فشلت في عقد صداقات حميمة معهن، إذ لا أستلطف مشاهدة  
فتاتين تتلاصقان متهامستين وتصدران ضحكاً غنجاً كعشيقتين، أرقبهن يتحسسن براعم  
أجسادهن تحت غطاء البراءة . أعتقد أن شبكّ ذراعي بذراع زميلتي و نحن نتمشى في ساحة  
المدرسة خروج على ناموس الحياة، ولا أستسيغ دعوة إحداهن للمبيت معي كما تفعل  
الصديقات. أحب وحدتي في سريري البسيط الذي أضافوه إلى الصالة بعد بلوغي. أحب وحدتي  
على المقعد الصغير المرمي عند الزاوية في حجرة الاستقبال العادية التي تستقبل الزائرين بلا رياش  
أو تحف، مكتفيةً بلوحة مخططة بالذهبي لآية الكرسي فوق قماش مخمل عنابي وسط إطار ذهبي  
عريض . أحب هذا الهدوء المنبعث من أنفاس زوجة عمي الرتيبة، ونوم عمي المستدئب، عين  
مغلقة ولكنها مشقوقة على بياضها .. تسمي "فتحية" طريقة زوجها المرعبة في النوم وأجفانه  
نصف مفتوحة "النوم الغلاني". أحياناً -وبدوافع غير واضحة- يخلو لي تسمية موته الهانئ "الزوم  
الثيراني"!

إنها لعبة جناس، لا غير، يجعلها عمي تبدو أكثر من لعبة عندما يوغل في سباته نافخاً أمامه بطناً مهولة، ويخور في شخير رتيب دوزنه وفق نشاز النوتة الموسيقية؛ في حين أن "فتحية" تظل في دعته كما لو أن بها صممًا. بطنها أيضاً مكورة أمامها رغم أنف العقم. أحب مرور جدّي بالجالسين كأنه لا يراهم، يتحدى جسده المنحني هناء الضيوف أيضاً ويقطع لغوهم. تريخي هذه الأحوال المحايدة الصامتة، أشعر أنها تنطوي على صخب عنيف وتحدث رجّة في قلوب الجالسين، ولأني لا أرغب بصخب الصديقات وثرثرائهن، لم تحضر طفلة إلى بيتنا بتاتا، حتى "وداد" إذا حضرت، فلنأخذ زائرة للمكان وليس لي، تجلس صامتة تستمع إلى نقيق أمها والحالة، نتبادل أنا وهي بعض الكلمات عرضاً، ويسود الصمت بيننا غالباً، فلا تبدو أيّنا مهمّمة بخرقه، حتى يظهر "صبحي" عند الباب مستعجلاً أمه وشقيقته لأمر ما.

السلام الأبدي الرائع الجميل في بيتنا جعلني أكثر إصراراً على عزل المؤثرات الخارجية والدفاع عن عزلي الخاصة من العكر. كنت أحتاج إلى رعاية ناري التي تتقد على غفلة من البشر.

\*\*\*

التقيت "حسن" في الثالثة من عمري.  
تحدث "وداد" "رَبْمَتَهَا" بصوت مرتفع، تقول لها:  
- الكبار غشاشين، أمي بنت كلب.  
وقالت أيضاً: "تعالى نلعب بيت بيوت".  
ترتب "وداد" بيته المتخيّل غافلة عن وقتي الخرساء قرب الباب، واصفةً:  
- هذا المرحاض، وهذا المطبخ، وهما أوضة الضيوف.  
ثم باحتجاج:  
- شو يا ستّ "ربما" .. بعدك ما غليتِ الشاي؟!  
عندما أحدثتُ بأناملي خريشةً لطيفة على الباب، انتفضت "وداد" وطار "ربما"، قلت بحماسة:  
- لحالك!! تعالى نلعب بيت بيوت.

لا أبادر إلى دعوتها للعب عادةً، ولكنني تظاهرت إخفاءً لسماعي إياها تُحدث طيفاً، ولعبنا

متناسيةً اسم رفيقتها السرية "ربما". تدربت على مثل هذا التصرف بتجاهلي محاذي دثج جدي لأطيفاه، وتعودي على جارتنا الختيارة وراء حائط البرندة ثناكف أبناءها المسافرين والموتى، ذلك أني لا أحب أن يجرؤ أحدهم على كشف أسراري وأطياي، ولكني اليوم أرغب في الحديث عنه هو تحديداً، "حسن" .. صديقي .. رفيق الدرب، ت وأم الروح... بنات الحارة يكبرن بسرعة، ويتوقفن عن الأحاديث مع الأطفاف، وينكر الأولاد رفاقهم السريين، يدعون أنهم لا يعاشرون إلا أترابهم في الأزقة . لن يعترف أحدنا لآخريين عن الأشباح الرفيقة، لا أقصد إرباككم ولا أحاول إقناعكم، ف"نارة" التي تسعى إلى اختبار الأشياء بلمسها وتذوقها، "نارة" التي تعنى بالحواس وتتحول إلى دورق اختبار إزاء كل ما تقابله ومن تقابله، "نارة" الحسية الواقعية المنطقية، يكون لها رفيق سري!، أميل أحياناً قليلة إلى تفسير الأمر بغياب الرجال القادرين على إغوائي، ولكنها ليست مجمل الحقيقة . ربما كنت على تواضعي امرأة متطلبة، أريد الكثير من حبيب لا يملك إلا أن يكون بشراً، علاقتي ب"حسن" اتخذت مراحل درامية مخيفة، داعبته بعد مشاهدة فيلم كرتون في تودد عبيط:

- أنت "فرندي غوست".

غضب، ولا يجدر بالشبح الصديق أن يحنق هكذا، ولكنه يغضب وينكر كونه منزعجاً، يجب بارماً شفتيه:

- لست شبحاً.

اعتذر يا صديق، لست شبحاً، لست وهماً، أنا الوهم و أنت الروح، والراحة، والراح. لعينا معاً بيت بيوت . ولأنه ولد، اتخذت اللعبة إيقاعاً يغير إيقاعها مع "وداد". مثلث وإياه أيضاً دور الجد والحفيدة، فسخر من ظهر جدي المنحني، ولوى عموده الفقري فوق جسده مثل خيارة معقوفة، مطلقاً صوتاً عالياً من سقف حلقه:

- هرايس .. هرايس .. عسل يا هرايس .. الهرايس الطيبة .. طيبيبه .. بتنقط عسل .. تع ذوق، تع .. تع .. قرب .. بتعريفه الهرايس.

ادعيت الشراء منه، أعطيته قرشاً مميزاً صنعته من شريحة خيار، مدوراً وبارداً ولزجاً، ولكنه قرش يفي بالغرض، وأعطاني مربعاً من الهرايس. حرصت على المنديل الذي يحفظ قطعة الهرايس وينقط

عسلاً. لفتت الهواء بلهفة، ورفعت إبهامي والسبابة إلى شفتي كمن يتذوق على مهل، ثم صحت  
فاغرةً فمي، هازة رأسي:

- إءع.. بتقرّف.

ضحكنا معاً من حلوى جدّي المحمّضة، ثم همس:

- تعالي نلعب عروس وعريين.

لم أقترح هذه اللعبة . على الولد أن يقترح، وعلى البنت أن تتدلل . هذه هي الأصول المطروحة  
علناً، والتي نتكاذب بشأنها . الواقع أن الإناث يقترحن ويبدأن اللعب دائماً، يقفزن إلى المربع  
الأول متظاهرات بأهمن مدفوعات . سأرفض في البداية كأني مترددة أو أفكر . التفكير يفزعني،  
فلحدّ حلاً لنشوب الحلم الجميل في عقلي وجسدي، وأدّعي أن زوجة عمي "خال ة فتحية"  
تناديني لأدّعك بيدي الصغيرة أغطية الملاحف الثقيلة المنقوعة في "الجن" الغسيل، وأبتسم بود  
وهي تزيد:

- يعدّمني إياك.. شرّيته من دون البنات.

أعترف أن دعكي لا يؤثر في أغطية اللحافات المتسخة بعرقها هي والعم والجدّ.. ربما بصنين بولي  
وبول الجدّ . يحق للمرأة التي تتعب وتشقى في مهامها المنزلية، أن تغضب وتدع و عليّ، بل  
وتكسر يدي الرخوة التي لا تقوى على رفع القماش الثقيل المبلل . سيكون من الغباء أن أتقمص  
شخصية سندريلا وأظن بزوجة عمّي الظنون التي لا تليق . سرعان ما أقرر أن ما كنت فيه أمتع  
وأجدي، فأنفض يديّ من الصابون، أمسحها بفتاتي، وأركض مشيعةً ب لعناهما إلى زاويتي  
المفضّلة لألعب مع "حسن"، عريس وعروس... وحدثنا... وحدي... أهوي في بئر بلا قرار، من  
دون مقدمات، تنفّلت الروح وتهو ي إلى غور لا قاع له، ويغتالني التعب إلى حد انتفاء قدرتي  
على الصراخ وطلب الغوث . أشعر بالخجل لو نقلت صوتي تعيساً إلى آخريين لا يتمتعون بحال  
أفضل مني، أصمت وأبتلع ندا محيّ، أحتاج إلى يد مُمدّ لي، ولا أقوى على مدّ يدي لالتقاطها ..  
أحتاج لمن يلتقطني في عملية إنقاذ شامل من دون جهد مني . أشعر فجأة أن لا أحد على  
استعداد لمثل هذه البطولة . أنا وحيدة، وحيدة، وحيدة. ينبثق "حسن" كجتيّ المصباح، يحتويني  
بهدوء ظاهر وحرقة مستترة، فلروح في هـ..

تستعوذ عاشقة النور والنار على روعي تماماً، أنطلق نحو الضوء الحاد المميت مدركةً أمرَ الحريق في آخر الدرب .. تنفلت روح فراشة النور في النسومات، تطوف بالحقل، تتماهى مع الزهر، وترفرف ببهاء حرّ.. تلك لعبة الحياة اليومية. التوازن الجميل يعمر قلبي.

يضع الدنيا بين أصابعي الخمس، والحياة في شراييني، كأني مجرّة النور، فالقلب يفيض من محبته ويطيّر نشوة.. بانتظاري كل ترانيم الفرح.. هناك ضياء يتسلل إلى القلب، ويمتزج بعظمة الخوف. يفور مرجل العشق المجنون، نلعب بأطياف ألوان الحريق، أزرق، أخضر، أحمر، تتناسل ألواناً بامتزاجها، فلتنهد وأبتلّ، كأنما بحرّ ينبعث من النار، يمشكّ واقعةً بالغة القسوة، بالغة الحنان..

لن نكتفي بتلك اللعبة السرية، ألعب معه الأم وابنتها أيضاً، يمشط لي جدائلي ويربطها بإحكام بشرائط الشبر الأبيض، وعندما أعبّر باب البيت أسمع "أم صبحي" تقول دهشةً: "والله إنها بنت حلال (تعني زوجة العم)، شوفوا كيف يتمشّط شعر القاروطة (تعيني)، والله أم ما بتدير بالها ع بنتها هيك!".

أهز رأسي موافقة . لم تُرزق زوجة عمي بمخلوقات تنطّ فوق أثاث البيت المرتكز على مسامير مقلقة صدئة. وحدي أعمر المكان بطيفي الهلامي، تبدو صورتنا للعامة أسرةً سعيدة ، حسدني "أم صبحي" جهاراً:

- مسكينة يا "نارة"، الله حرمك الأم، و"فتحية" الله حرمها الخلف، بس تيّالك، عوّضها فيك وعوّضك فيها، سبحان الله تدايره ما في مثلها، رحمته كبيرة..

ألوص في متسع قلب الرحم..

تتوقعون أن أصف لكم "حسن" .. حسني؟!

أسمر، أشقر، نحيل، ممتلئ، وفق المزاج، يرتدي في الغالب ثياباً عادية، ألوانها كالحلة كما لو أنها من تراب الأرض . لعله تكرر الغسل اليدوي الذي أقيم له طقوسه المعتادة، أزرّج بقمصانه وسط غسلنا اليومي كي أحتمل كل هذا الهراء، لم أسأل نفسي عن الأمر، "حسن" الوحيد الذي أسمح له بللدخول إلى خلوتي والتمدد إلى جواربي، كنا آنذاك نتداعب بلطف، أبصق في كفي لأمسح له شعره وأنسّقه، أطيله وأقصّه، أفكّه أو أجدله، فيبادلني نبش شعر رأسي بأظافره ولمّه مجدداً، ويساعدني في فكّ رباط حذائي، وتزيرير قميص بيجامتي. عندما كبرنا قليلاً، استراح، لأنني

ما عدت أرتدي البيجاما واستبدلت قميص النوم بها، طوّرنا لعباً أمتع، يتحسّسني ضاحكاً كل ليلة باحثاً عن هضاب ما، بشائر أنوثتي، وعندما لا يجد، يستفزني ويلعب شفتي السفلي بسبابته قائلاً:

- كغغ.. غ غ .. كغغلو.. كغغلو.

أضربه بقبضتي على صدره الأمد، وأتهد نعاساً ثم أتكور وأغفو وقد التفّ جسده حول جسدي مثل دودتين .. "أتخلف" له .. عند تبرعم أول إشارات الهضاب في جسدي سأحرمه من لعب "عروس وعريس"، ولن أمارس التصاق العلقة بجسده.

سأخاف، وسيفهم خوفاً، سيكتفي بضمّي وتركّي أستمتع بسماع دقات قلبه، أو قلبي . يحدث هذا كله من دون أن أكثر لوجود عمي وزوجته، الأصق "حسن" في حجرة الاستقبال، وأمسك بيده نسير معاً إلى المساحة المخصصة لنومي. هناك حجرة أخرى ملاصقة للمطبخ، بهو منسيّ بين حجرة نوم عمي وحجرة الاستقبال الباهتة، بقايا برندة أغلقت بالزجاج فحولتها زوجة عمي إلى حجرة للخزين . أما البهو الخاص بي فهو مجرد ممر خالٍ من الإضاءة، حيث يفوح سريري المشترك مع الجد برائحة صنين كانت نتاج فعلي، ثم صارت بتبادل زمني تدريجي نتاج فعل جدي . تحت السرير طاولة صغيرة وصندوق خشبي يضم مقتنياتي .. بالكاد يتسع المكان لانضمام "حسن". عندما كان جسدانا صغيرين اقتنعنا أننا ننام فوق سرير الملكة شهرزاد، ظننتها ملكة، لم أعرف أنها حكواتية إلا فيما بعد، تصوّرتها ملكة تضجع على طرف سرير ضخم، أوسع من سريري قليلاً، حيث كان "حسن" كريماً إذا تقلب جسدي تركني أحظى بالمساحة الأوسع، لا ننام قبل اغتياي عمي وزوجه، أحياناً نضحك على جدّي، وأحياناً نبكي له، وقد نسخر من "وداد" (أم بطّات سمان) ومن كتفيها المكعبتين وعنقها الذي يغوص في اللحم.

أفطس من الضحك، ثم أكركر خجلى وتحتاحني البهجة وهو يقيس بأنامله النحيلة طول عنقي، أتمتع بجيد طويل، وبسبب لمسات "حسن" التي توظف أنوثة تلك البقعة بالتحديد، أغسل جسدي بقسوة، أفرك جيداً حتى لا أرى تلك البقع السوداء التي تميز أعناق الصغار من البنين والبنات الذين يلعبون بالحارة، أدلّل الامتداد الطريف بين رأسي وجسدي لأن "حسن" معجب به، وإن لم يعبر عن إعجابه بصورة صريحة، ولكنني أفهم انتقاده لعنق "وداد" ثم تمريره أنامله فوق عنقي،

ثم تلك النظرة الوادعة العذبة قبل أن تغمض أعيننا وننام بسلام، لا أقايض\_ "حسن" بكل أولاد وبنات الحارة، وكلما كبرت عاماً زائداً وطلتُ ملميتراً واحداً، أصابني الفرع من أن يتنبه عمي وزوجي إلى هذه العلاقة صرت أخاف اكتشافهما جلوسه على ساعد أريكتي، صرت أخاف أن تنتبه زوجة عمي إلى الأسباب التي تجعلني من دون بنات الحارة أغسل عنقي باهتمام . صرت أخاف مرور عمي عبر الردهة بمحاذاة السرير ، فيراه ملاصقاً لي وقد فار جسده وجسدي وأوشكنا أن نصير رجلاً وأمرأة وندلق من تحت اللحاف الكبير الذي يغطيني ووهمي وجددي الناسي، غطاء أكبر من السرير لأدفع به جيّداً بعيداً عن العيون.

فيما بعد قامت "فتحية" بخطوة جبارة لم يعترض أئناً عليها، التزمت الصمت وهي تحمل فراشاً صوفياً قديماً وحراماً عراقياً مهترئاً إلى القبو، وتضع كل لوازم جددي من قمصان وسراويل طويلة ممزقة في مربع كرتوني وتقتاد الرجل من كفه مثل طفل مطيع لتحدد له مكان إقامته الجديد ، حيث لا نور إلا عند فتح الباب على الشارع مباشرة. ليلتها شعرت بالفراغ في المكان . انتفضت عدة مرات كسمكة خارج الماء، تقلبت طعينةً، وقلت لـ"حسن" وقلبي يقرع مثل طبل: - أنا حقيرة.

الحقير، لم يحاول دفع سياط الضمير التي توجعني، هز رأسه وكأن الأمر لا يعنيه، لعله استلذ أن يكون السرير لنا وحدنا!

قلت لـ"رمضان" و"فتحية" وهما يفصصان بزر القرع الأبيض: - أريد حجرة.. لي وحدي.

أجابني الهبلة بسؤال:

- وين؟! بقصر رغدان يا أميرة زمانك!

"فتحية" الطيبة لا تقصد السخرية، لا بد أنها لم تنتبه لتوقيت طلبي العجيب .. أيام قبل توقيعي عقد تنازلي عن بيتي لصالح عمي "رمضان". حاول عمي النبيه لفت انتباهها بحركة كابحة من حواجبه العريضة، تكاثرت ضربات التجاعيد على جبينه ولم تفهم، لكنها ابتلعت صمتها، قال وجلاً:

- تدللي.



يا عيني، أتدلل! تعبير حميم استعاره عمي من العمال العراقيين زملائه في ورشة البناء.  
اقتربت بثقة:

- نزلوا الكراويش اللي في البرنדה على القبو عند جدي (مزيد من الحقارة) وبتصير البرنדה  
أوضتي... لحالي. الطيبان، الرائعان، لم يناقشا. جدي الساهي الناسي لم يناقش، ودلفت بقدمي  
و"حسن" البرنדה وكأنها عالم جدي.

لم أسمح لعمي "رمضان" بمساعدتي على تهيئة الحجرة، رغم كونه معلم بناء أستاذاً. اكتفيت  
بزجاجها وفواصل الألمنيوم التي تعزلها عن الفضاء الخارجي، حائط البرنדה الوحيد هو الواجهة  
الشمالية لمنزل جارتنا العجوز التي تعتزل الحياة، وحدها "فتحية" تتعامل معها برأفة عالية فترسل  
لها ما فاض (إذا فاض) في صحوننا من مجدرة ومقلوبة من دون لحم ولا دجاج. هناك مخاوف  
من العجوز تجعل أولاد الحارة يتأملونها ملياً إذا انشق بابها. نادراً ما يحدث هذا، ولكن من برندي  
(الحجرة) صار يلهكاني أن أسمع أنفاسها. هذا يعني أنها تسمع أنفاسي. أحياناً أسمعها تسامر  
زائرة، عادة ما تكون الزائرة في مخيلتها الهرمة، ولكنها كأية فنانة قديرة تمنحها صوتاً مغايراً، أكثر  
صبا من صوتها الأصلي. أحتفظ بسرها ولا أثر حول كلماتها الغريبة وأسرارها المضحكة. إنه  
ميثاق شرف لا بد منه، إذ إن أسراري الحميمة في متناول سمعه.

سري الأجل تلك البرنדה الحجرة، حيث يمكن اغتيال العالم ودفن قتلتنا تحت الأرضية العتيقة،  
أسفل البلاطات التي أتشح لونها بأغبرة الزمن وتشحط بفعل جرّ الكراكيب فوقه. هذا مجرد تعبير  
فجّ، فنحن لا نقتل أحداً حقاً، ولكننا نمارس تخليق الحياة بصورة فذة. زينت الأرضية بسجادة  
خضراء صغيرة عليها مقاطع من مربعات تتشابك مع خطوط ممتدة، وركزت السرير الخشبي تحت  
الزجاج الذي يكشف العالم. راعيتُ أن تسقط الإضاءة مباشرةً في المساحة التي يُفترض أن  
يكون فيها صدري، لا وجهي. ستزحف بعد ذلك ببطء إلى الرأس. هذه مساحة زمنية مناسبة  
للاستيقاظ المريح. طاولة في الجهة المقابلة، فوقها كتي وأوراقي، وربما جهاز تسجيل صغير أسمع  
منه الأشرطة التي هوستني للمطرب محمد منير، والتي تلعب دوراً أساسياً في فصلي عن جاري.  
أغطي بالأغنيات العابثة صوت ثرثرتها وثرثرتي. نوع من الأدب وإطلاق خصوصية كل منا على  
حدة. أحتاج إلى "كميدينو" بأدراج عريضة أزجّ به قطع الملابس، وفوقه مكواة سفرية صغيرة،

تساعدني على استرجاع هيبة القمصان التي يجعلها إهمالي واستهانتي . صفت أحذيتي القليلة تحت "الكمدينو"، وخبأت بطانية ثقيلة شتوية وشراف خضراء بزهور صفراء ووردية، عند زاوية الباب تماماً، طاولة صغيرة للغاية فوقها "بريموس" غاز بعين واحدة وعلبة كبريت، سيحلو لي شرب فنجان من القهوة أو الشاي، أو حتى النسكافيه أنا و"حسن" وحدلا.

رصتُ علب القهوة والسكر والشاي وملعقة وكأسين على رف وراء الباب، ساعدني "حسن" لإضفاء الحيوية اللازمة على حجرتنا الصغيرة، مملكتي الوحيدة التي لا أقبض بها كل ممالك الأرض. تشعلق فوق كرسي وهو يلصق ورق الجدران الأخضر الفاتح، وتكفلت بالمنطقة القريبة من طولي، ينثني الورق أحياناً فلسنا محترفين في مجال الديكور. سنستمتع بهذه الانثناءات الحمقاء لورق جدارنا الجميل قبل أن نقرر إحياء أرواحنا مرة بدهان الحجر . نحضر الأصباغ والفراشي ونعمل مثل عاملين جادّين، نتبع بلطحات الدهان التي تتناثر فوقنا كنجمات وتستقر على أيدينا كحالة نمش مستعصية قبل أن نغسلها. يحدث كل هذا والغيط يأكل قلب "فتحية"، لأنني لم أطلب مساعدة أحد . يسمعون كركبة السرير و"الكمدينو"، ولا يعرفون إذا ما كنت أحظى بمساعدة أحدهم في داخل البرنذة التي صارت عزلة تامة.

أنا أول من أقام مشروع الجدار العظيم بين العالم وبيتي.

جيرتنا محدودة بسبب التفاف البيوتات عند منحدر الجبل رغم كوننا نسكن في منطقة مكتظة، لكن التعامل لا يتجاوز قلّة من الجيران وفي الحدود الدنيا لمستلزمات الجيرة، أكره أن أجد "أم صبحي" في الممر، أتذكر ابنها صاحب الأنف الضخم والقميص المزعزق المعجون برائحة الكاز، عملياً كان يعمل في الكازية القريبة، أمه تغطني على زوجة العم، الأم البديلة التي لا تحرك ساكناً لتكون أماً، يخيل إلي أنها ربما لا تمارس الجنس لتحصل على هذه النتيجة، أخجل من أفكارني، فالمرأة الطيبة تشعلق مساءً فوق حديد السرير، تعدّ طعامنا صباحاً وتنظف منزلنا، وفوق كل هذا تنفرد بشخير عمي ليلاً وتحرك جدّي بعصبية من مكانه إلى بقعة أخرى ليستمر التنظيف في تلك الحجرات المتواضعة، ليس عليّ أن أرجمها مجرد أنها ليست أمني، ولا يجب أن أكره "أم صبحي" مجرد أنها أم لهذا البهيم. أعتذر عن الشتيمة لكنه يستحقها . بدا مهووساً يومها، بياض عينيه مثل زرّ البندورة، دفعني ساعده وحشرتني في الزاوية بقوة أخافتني، هل خفت؟ ! هل

تواطأت، هل أردت أن أعرف ماذا سيحدث حقاً؟ كيف سأشعر! لقد أطبق على فمي بقوة،  
وسد أنفي بلُنفه. الحمار كيف يتوقع أن أقع صريعة هواه وهو لا يسمح لي بالتنفس، ولأن شفتي  
توجعتا من دون لذة، وصدري ضاق يطلب نَفْساً، فقد دفعته إلى الجدار المقابل، ساعدي أيضاً  
قويّ بما فيه الكفاية، وصوتي مثل زامور سيارة الإسعاف الذي يُصدر صلصلة غريبة وهو يتقدم  
سريعاً باتجاه "مستشفى الأشرفية"، صحت بكل عزمي:

- يا كلب، والله لأفضحك، والله ل... .

توسل "صبحي" بذلّة، ولم أسمع كلماته، أفقدني الغضب تركيزي تماماً، فأنفي رغم التوتر يلتقط  
رائحة الكاز التي تفوح من شعره الملبصق على رأسه مثل فروة خروف مبتلة، ارتعشت كفاه وهو  
يرفعه م إلى فمه:

- هش هشششش، الله يخليكي، خلص ما بقرب صوبك، خلص اسكتي.

يومها جئت بالملح من الدكان، سجّله الدكنجي في الدفتر دِيناً من دون احتجاج، إذ ملح في  
عيني آثار دموع. تعاطف عابر. على الأغلب خيل إليه بأن زوجة عمي أساءت إليّ، أنا اليتيمة  
مكسورة الجناح، هل كان في عيني أثر للدمع! لم أبك، ولكني ومن دون مواربة كنت غاضبة من  
"صبحي"، لأن رائحته كاز، وشعره ملصق كخروف، وشفاهه يابسة لا تبعث على اللذة، لأنه  
يستعطف بهذه الصورة الدرامية البشعة. ما هذه الحارة التي لا يلوح فيها فتى عليه العين، ملعون  
أبو الملح والكاز، بكيت بين ذراعي "حسن" مساءً، كان يفوح بأريج يشبه أريج النعنع البري،  
ربت كتفي بحنانٍ جدّ يتذكر، قال إن علي أن أهدأ، أن أنسى، ومرر أنامله فوق جيدي، ثم  
مسح دموعي ولعب معي لعبة (الطُعمة)، دسّ سبابته في فمي لأتذوق طعم دموعي، قلت:  
- مالحة..

قال:

- أحب الموالح..

بعد حادثة صبحي بعامين خيل إليّ أن "موفق" الذي يتمشى على سطح البيت كلما تمشيت،  
مشروعٌ حبيب محتمل. معقول. أخبرت "حسن" أن "موفق" لا يفوح بالكاز، فضحك حتى  
شرق بدمعه، شعرت بالفزع لأني ظننته يبكي، ولكنه قال إنه يضحك عليّ. سألته أين يذهب

"موفق" برفقة "صبحي" كل مساء، أنكر "حسن" أنه يعرف، وقال إني سأعرف ربما مستقبلاً . يريد أن يحتفظ بأسرار الذكورة، كأنهم يتآمرون فيما بينهم . بالطبع عرفت أين يذهبون بعد التوجيهي، ليس المهم أين يذهبون، ولكن المهم أنهم يجهضون حلاًماً خاتلني مرة، عندما عاد "موفق" من دراسته الجامعية في بغداد، قلت لي "حسن":

- ولّ عَلَيّ، شو كاين ذوقي هترش، تخيل، هذا كان الحيله والفتيلة!!

كنت حينها قد صرت صحفية، و"موفق"، الله يوفقه بمهنة يترزق بها، قال لي: والله نفخر بك. صار يتحدث مثل الدكنجي، كيف كان يتحدث؟! لا أعرف. كنت أتخيل أحاديث وحوارات ممتعة لا تنتهي، ثم أزجر شوقي، يا بنت لا يجدر بك أن تطيلي الحديث مع "الحبيب"، سيملك بسرعة، خففي قليلاً. في الماضي وعلى أرض الواقع كنا نتبادل السلام مذعورين، لم يتسنّ لهذا النبع من الحديث الممتع الذي لا يعرف النضوب أن يتدفق إلا برفقة "حسن"، وعندما صار من الممكن أن أقف في الحارة وأكلم موفق أو صبحي عياناً من دون خشية ولا توقُّع باعتراضات الآخرين، فقد الشابان كل برقي.

عن أي النجوم أبحث؟ الحياة سماء خاوية حالكة تماماً بالنسبة لي، ولا أرى في تودد "وداد" ل"موفق" معنى إلا عمى الألوان، قلة الذوق التي انتابتني مرة!! أما أنا فما أزال أتحدث من دون توقف مع "حسن"، قال لي:

- أنت مجنونة، أحلامك قريبة منك، وعندك قصر نظر.

\*\*\*

في تلك اللحظة المكتظة بالصور المتباينة، والتي تمنيت أن تنضب أو تمحى من رأسي كما حدث لجدّي، مررت في الساحة الهاشمية، بنطالي الجينز نخب للعيون، أسم ع هدير التلفاز من المقهى وصوت قرقرة الأراجيل، وتنهدات الذكور العزابي.. الأخبار غامقة ولزجة مثل قطران يسيل من قاطرة مخرومة.. أخبار مثل العمى.. "عراقيون" في شاشة التلفاز يقولون (بفخر) إن قرار العراق بعودة المفتشين إلى بغداد من دون شروط انتصار للعراق، وعزّ للعرب، يا أَلَلَلَلَلَلله! والله إني لا أفهم بالسياسة.. كيف يسمّون الأشياء بعكس دلالاتها! العراقيات يفترشن الطريق في الساحة الهاشمية ويفردن بضائعهن الرخيصة قريباً من الحّمّات العامة محتملات أبخرة الصينين، هناك

نسمع صوت كاظم الساهر يصدح : "دلع عيني دلع، دلع روحي دلع"، ثم تغطي رائحة الشواء القادمة من المنتزه على كل رائحة، وتتناثر الأصوات:

- ش تقول عيني؟ يضربون بغداد، لو ما يضربون!!

"شو بدريني"، لا أفهم، قطعاً الشعوب أكثر فهماً مني، تعرف ماذا تقول، ومتى ولماذا . الشعوب صاحبة تجارب، وأعناق عريضة، تفهم أكثر مني، فلماذا أبدي دهشتي الجاهلة؟ أتلکأ عند شاشة تلفاز المنتزه لأسمع المزيد.. ليس هناك فتيات سوا ي يفعلن ذلك، لعل مهنتي أكسبني بعض الوقاحة لأتناسى الحريق الذي تُحدثه العيون على خلفية بنطالي فأقف ببراءة لسماح الأخبار. "أبو عمار" يدعو للعودة إلى طاولة المفاوضات فوراً، ما أشجعه وأشد إيمانه بالمسيرة التي تكبو عند خط النهاية، أبو (اسم نضالي آخر) يحصي عدد القتلى في نابلس، أبو (أبصر مين) يخنر بمذجة جنين ويدعو إلى خطوات جادة لتوفير الدم على الصغار حمكة الحجارة، أبو فلان، وأبو علتان، أحمد الله الذي لا يحمده على مكروهه سواه، أن ليس لي "أبو".

ملعون "أبو" من اخترع التلفاز.. التلفاز هذه بالعربية الفصحى، إني أتقدم، لا يمكن للكاتبة أن تدعي أنني أسلبها أسلوبها الوقور بأحاديثي العامية المبسطة الخالية من زخرف اللغة. كذلك يمكن لمعلمة اللغة العربية أن تشعر بالفخر لتقدمي الطارئ هذا . أعود إلى التلفاز.. ملعون "أبو" من اخترعه، لقد حشا رأسي بوسادة من شوك. صحيح أنني حلمت طويلاً بأني سوبر مان، أو الرجل الوطواط، لعل هذا حدث قبل أن أدرك أي أنثى، وأن عليّ أن أجد نموذجي من الحسنات اللواتي يم لأن الشاشة بشراستهن وحسنهن المدمر مثل "المرأة الجبارة" أو "ذا بيونك ووم ان" أو "ملائكة تشارلي". كل هؤلاء أعنني على قضاء مراهقة متوازنة، كنّ ينتقمن باسمي و اسم ملايين النساء لضعفنا المستتر والعلمي، ينتقمن ل"وداد" ابنة الجيران التي تمضي وقتها تشطف درج البيت وقد حسرت بنطالها ليكشف ربلتيّ قدميها الممتلئتين، ينتقمن لشعرها الطويل الناعم المعقوص ذيل فرس والذي يمكّن شقيقها المغفل "صبحي" من شدها منه عندما يعود ظهراً مغطى بعباب وزيت السيارات، فيخيّل له بأن "وداد" تتلكأ عند باب البيت . حسناوات الشاشة انتقمن لمسامتي وأدبي البشع، ولكني في الحقيقة كنت أعلم أنني لا أشبههن بحال، كنت أ رعى برعم الوحش في أعماقي وأحمل شاشة التلفاز خطيئتي . من أين جاءت إذاً تلك الصورة الجهنمية التي

أراها بوضوح إذا ما جلست إلى عمي وزوجته متحلّقين حول طاولة الغذاء، عادة ما يتناول جدّي الناسي غدائه في حجرته، أقصد القبو الذي نلقي به الأشياء المهملة تمهيداً للتخلص منها. أحياناً إذا ما عدت مبكرة أُعِينه على المهمة الصعبة، أتأكد أنه تناول نصف وجبته على الأقل، بينما أهدرَ النصف الثاني على حصيرة ممزقة في أرض القبو . أما في صالوننا البسيط، تحديداً في تلك الزاوية المخصصة لتناول الطعام، نجلس (بقية العائلة : " رمضان " و " فتحية " و "نارة ") بامتنان حول قصعتنا . كنت أتحدث عن التلفاز! عندما تكون وجبتنا شوربة العدس، أسمع فم عمي يشفط السائل الساخن ثم يفحّح دافعاً لسانه إلى الخارج علّ الهواء يخفف لسع الحرارة في بطانة فمه، ثم يفتّ بقطع الخبز الجافر في الوعاء ويعجن الخليط ويتناوله متناوباً بين الملعقة ويده، عندها لا يعود الذي يجلس بينطال البيجامة كالح اللون لكثرة الغسيل هو ذاته عمي الذي أعرف، أرى قطرات العدس تسيل من زوايا فمه، يخيل إليّ أن لون العدس أحمر مخضّر مثل خراء، فأغضّ بصري، وأقرص برفق خفيّ وحشيّ القابع بين الضلوع، أسعى إلى وقف ذلك الشريط المرعب، وأنجح أحياناً، ولكنه يفلت أحياناً أخرى، عندما أكون متعبة أرى عمي يحمل سكين جزار كبيرة مستنّنة، يتسلل من خلف ظهري، لا أعرف لماذا يستمتع بالتسلل الوئيد خلفي، رغم سكوني وانكشاف صدري كأرض بكر، يطعنني بضربات متوالية في منتصف الظهر تماماً، يرافق طعناته بصرخات ضبع مستوحش في البرية، وأظل على سكوني أتصعب دماً.

يمسح عمي شفتيه بباطن كفه، كأنه يتعمد إثارة اشمئزازي بعد كل وجبة، سيأتي يوم وأكفّ عن الجلوس إليهما لاحتماء الشورية المقيت

يقول عمي:

- اللهم ديمها نعمة.

وتقول زوجته: "نارة" .. وديّ الصحون عالمطبخ..

من العادي أن تقول كل يوم : "وديّ الصحون على المطبخ" .. من العادي أني لا أناقش وأحمل الصحون برضا واستكانة.. ما أجمل الصورة وأشد صفائها.. أسقط في بئر خجل عميقة وأؤنب نفسي وأسبّ من اخترع التلفزيون ومن عمّر الشاشة بأفلام الرعب.. عمي الطيب عاشق العدس، وزوجته الوداعة ماذا تفعل بهما مخيلتي العدوانية! في الواقع لا يجيد عمي الطعن في

الظهر . هو من ربّاني، إنه كافل يتيم من الطراز الأول، و إن أوحى بروز كرشه بأمر مختلف . لم يجربي يوماً من ذيل الفرس، ولم توبخني زوج الله (أمي البديلة) إذا كسرتُ طبقاً، وإن أوحى بطنها المندفع باستمرار من دون زرع أو حصاد بعكس طبيعتها . إنها الحياة المثالية كما يجدر أن تكون، ويجدر بي أن أشكر وأحمد وأتوقف عن زرع الخيالات الشيطانية في رأسي الأبله.

مسح عمي الحنون رأسي برفق ورّيت على كتفي المرخيتين عندما حمل إلي أوراق التنازل عن البيت الذي نسكن . كنت في الواحدة والعشرين من عمري، في براءة طفلة في السابعة من عمرها، أجهل حتى تلك اللحظة امتلاكني قانونياً نصفَ هذا البيت المهترئ . لم أفكر مطلقاً بكون جدّي ووكيلي الشرعي لم يعد يتمتع بهذا الحق بعد فقد ذاكرته ونسيان اسمه . لم أفكر بلّيني تجاوزت السن القانونية لأتمتع بكوني وكيلة نفسي .. لم أتذكر السبب المباشر الذي أتى بعمي ليكون في رعايتي هو وزوجه.. أصدّق "أم صبحي" التي قالت إنها ترتيبات الرحمة الإلهية.. بنت يتيمة وامرأة عاقر وعمّ حنون.. وبيت بُني طوبه من مربعات الهرايس التي باعها جدّي على الطرقات.. يا لجود الحياة.. وقّعتُ أوراق التنازل عن طيب خاطر، كأني أتخلص من حمل ثقيل . الحقوق أحمال لا نحتملها، ماذا سأفعل بالبيت؟ أشغل فيه مساحة سرير يشرح خشبه عند ثقلي، و"برنדה" تصير كوناً، وهذا يكفي، حتى لو استقر باقي البيت بحجارته و أسياخ حديده وإسمنته المسلّح في كرش "رمضان" و"فتحية"، ولكني فقط ساخطة على زوجة عمي لكثرة ما تطبخ حساء العدس، وعلى مخرجي الأفلام لكثرة ما يمدون ذاكرتنا بصور مجرمين يتسللون خلف الظهور.. ويطعنون بعمق.. بعمق كبير.

\*\*\*

يندرنا "منذر الفاتح" كل يوم بنكتة، أغلبية القراء يظنون أنه يسليهم، بالطبع لا يحمل لقبه "الفاتح" وعوداً بفتوحات لا على المستوى العربي ولا الفني حتى، ولكنه قدم لي هذا الصباح هدية قيمة، مجرد معلومة فتحت أمامي آفاق الفرح . كثيراً ما تكون الأشياء صغيرة، صغيرة للغاية، لكن فعلها كبير . أزاح بكفه الحساسة كومة بزر البطيخ المنفلشة على مكنتي، كوّمها في الزاوية هامساً:

- مش هيك يا ست "نارة" .. ملّيتي الدينيا.

ضحكت:

- ما في شي أخاف عليه فوق مكتبي، إنت غير، كمبيوتر وتكنولوجيا، أنا عندي شويّة ورق كل ما أكتب إشي ما بعجبني بفصنص فوقه بزر.

لماذا ظننت أن الرجل انزعج وعدّني بلهاء! رغم أن "منذر الفاتح" لم بيدّ أيّ تعبير ولا قام بفعل يقود إلى هذا الاستنتاج، ولكنه سأل بلطف هو طبعه:

- بعدك بتروحي وتيجي بالسرفيس؟!

- لما بكون مرئشه والجيبه عمرانه باخد طياره جمبو.. تاكسري.

- مش قلتي بدك سيارة؟ فولكس؟!

- يا ربييت.

قادي "منذر" إلى ابن عمه، رأيت السيارة تقف بباب كراج في المنطقة الواقعة بين صويلح وتلاع العلي، فولكس مدللة مكورة باستطالة كخنفساء. لم تكن صفراء، ولكني وقعت في غرامها. قال

ابن عمه الميكانيكي وهو يلاحظ انبهاري وجوعي لركوب سيارتي الخاصة:

- عَ ضمانتي.. أنا فحستها، ماتورها نظيف.. ألماني يا أختي شو بدنا بالحكي، أحسن من الألماني ما في.

- هذاك المرسيدس.. مش الكركعة..

قاطعني في محاولة إقناع، لم أكن أحتاجها:

- سيارة مستعملة، سعرها طري.

- مشكلتها أنها مش صفراء.

ضحك عن أسنان صفراء:

- هيك بس! بسيطة، تعالي استلمها بعد يومين صفره مثل الليمونة.

قادي الفتى ليقنعي بمزايا السيارة، اجتاز منطقة الكراجات صعوداً إلى طرقات الفحيص الخضراء، سلّمني القيادة عند قصور الحمر، وتأمّلني وأنا أتشبث بـ"الستيرنغ" وأركز على الطريق أمامي، قال

بإعجاب:

- ما شاء الله عليك.. قلبك قوي..



عندما عدنا إلى الكراج، بدا كما لو أننا صديقين، نظر "منذر الفاتح" بريية، وقلت أنا فرحة:  
- سيصبغها صفراً..

بقرض معقول من بنك الإسكان، وكفالة "منذر"، على راتبي البسيط، تمكنت من شراء  
القولكس المستعملة. عندما استلمتها لم تكن صفراء بهية مثل الليمونة، ولكن فاقعة مثل مح  
البيضة. لم أعترض. لحظت أن ملابس الميكانيكي ابن عم "منذر" غاية في الأناقة: قميص  
حريري يلتمع بخيوط فضية، وشاربلن مصقفلن بعناية، وعطر "بروت" الذي يستخدمه "سحلية"،  
يفوح بقوة. أناقة تثير الغثيان. حاولت تذكر إذا ما كان هذا شأنه قبل يومين، اقترب مني هامساً:  
- آنسة "نارة".. بحب أعزمتك كاسة شاي.. وبالمرّة نحلي كنافة احتفالاً بالسيارة.

تبهت قرون الاستشعار عندي، هكذا إذا!

- شكراً.. والله فكرة، بس لو سمحت أحكي مع جوزي أعزمه معر.  
استلم النقود أصفر الوجه، لم يكرر الدعوة وامتطيت أنا كحيلتي الصفراً... واو.. مين قدي؟  
على "منذر الفاتح" أن يشرح لابن عمه كاركتر "جوزي"، ولا أبالي ضحك أم مات غيظاً.  
ضحك "حسن" من الحكاية، قال لي:

- مين جوزك يا عانس!؟

ناكفته:

- مش أنت طبعاً، أي رجل حقيقي.

قال لي:

- طز فيك..

وضحكنا، أصبت بما يشبه هوس القيادة، ركب "حسن" معي، ولساعات طويلة على مدى أيام  
جبنا المملكة من عمّان حتى سهول حوران نزولاً إلى معان في آخر الدنيا، لم أهتمّ للظرفاء الذين  
يقدرّون بسبب من لون سيارتي أني "تاكسي" فيلوحون بأيديهم، ألوح لهم إذا كان مزاجي  
معتدلاً.

\*\*\*

يمر الجمال سريعاً، مثل ضوء عابر، ليس سخياً ولكنه حقيقي وموجود. أحتاج إلى "حسن"

حاجتي إلى الجمال، ذلك أن المعنى المحبوس يفيض في روحي . لا أعرف لمن أستطيع أن أبوح بعشق الحياة. لا أعرف إذا ما كنت أحب الحياة حقاً وأرى الجمال بعيني إذا لم تبح به شفتي . ما لا نقوله يموت، الكلام رعاية دائمة للأفكار والأحاسيس . أعرف أن رأبي هذا سيحظى بسخرية فلاسفة التأمل والصمت، لكنني غير معنية بهم، ومن سوى "حسن" يستمع إلى حالاتي وتجلياتي الوجدانية؟! ارتطمت هذا الصباح بمنظر الزهر في قوارة الزريعة، زهرة تعاني من إهمال وتجاهل كل من في البيت تغاوت اليوم بنفسجيةً على أسياخ طرية خضراء . هذه النبتة المذهلة تحتفي عاماً كاملاً، ثم ومن دون سابق إنذار، إذا ما هلت بشائر الشتاء، تفتتح . لو لم أرتطم بها لكانت تفتحت من دون أن أراها، لمرت كنور عابر . اللحظات التي تعني السعادة والفرح مثلها، قد تغيب طويلاً، ولكنها تفتتح، ما عليّ سوى رؤيتها، عندها ستقع في فؤادي دائماً لا تغيب . ليس سهلاً أن تلملم الفرخ من دنيا غادرة ، أن تستمتع بحدّ سكين ، ولكنه ليس عسيراً أيضاً . عندما تجاوزت الزنبقة الليلية بدأت المشاغبة تطيح بالصورة الجميلة . تذكرت أن هذه تدعى "السوسنة"، وأن لدينا دون العالمين سوسنة سوداء اختارت الملكة السابقة (نور) أن تجعل منها شعاراً للأردن . لا بأس، فهذه الزنبقة السوسنة لا تتطلب الماء، تقع بجفاف بلادنا وتزهر طرية ناعمة سامقة، تشبه وطناً نحب أن يكون، ولكنها قصيرة الموسم، سرعان ما تذبل مرتدةً إلى قلب أوراقها الخضراء السيفية، علينا أن ننتظرها موسماً بعد موسم بيهجتها القصيرة.

ظلت السوسنة الليلية في خاطري . لماذا ظننتني أشبهها لوهلة ؟ فجأة انهمر المطر، كنت قد تحصنت في سيارتي، وراح "حسن" يدلّني على الأشجار المغسولة بالماء، وأدله على القطرات التي تصرع على زجاج السيارة الأمامي وتترحلق على الخلفي في لوحات سوربالية فاتنة . لحظات متعة تمارسها في الشارع العام. لم أتحرك إلا بعد دقائق حين دق "صبحي" على الشباك ملوحاً بكفه:

- خير! ما لها إشي السيارة.. أيّ خدمة؟!  
- أبداً.. عن إذلك..

أدرت المفتاح في "السلف" هروباً من "صبحي" الذي كرهته تلك اللحظة، ما له وامرأة تتأمل المطر!! لماذا لا يتركون المرء على هواه في هذا الحي الفضولي ؟ هل عليّ أن أذهب إلى الجيبهية وأقف مقابل مدينة الملاهي ليسمح لي بلحظة تأمل من دون فضول ولا تدخل ؟ ! ينهمر المطر

جاداً مجنوناً، تخذلني السيارة القديمة في وسط البلد، بدأت عيوب "الألماني" تظهر، ربما هي عيوب الاستهلاك . ما علينا، المشكلة ليست في الصناعة الألمانية، حال البالة ليس كحال الحديد، الآن يتزايد الفضوليون . أتمنى لو أن "صبحي" ابن الجيران، الميكانيكي الشاطر ، معي الآن، لكننا انتهينا سريعاً من أمر الماء الذي تسرب إلى المحرك و اقتضى التنشيف بعد "كونسلتو" عام عقده حولنا أشاوس البلد عارضين خدماتهم، نافخين صدورهم بفعل الشهامة الذي يقومون به تجاه امرأة منكوبة في وسط الطريق.

حالت المشكلة قبل أن أدلف إلى مكثي متعبة مبتلة، فكأنا تلاشى السوسن وما عاد للفراشات وجود. تلوب الروح نقمة على تفاصيل بسيطة، فأوجه لوماً مستتراً ل"منذر"، لا يبدو أنه يعبأ بما أقول، بل يهز رأسه:

- طبيعي.. إحنا ما قلنا عن سيارتك المحروسة إنها وكالة، جديدة لرج.

حتى "منذر" يمكن أن يتحدث بهذه الحسة من دون أن يقصد . أتوق إلى جلسة خاصة مع "حسن"، أثرثر بما حدث معي، بدءاً من ارتطامي بالسوسنة، وانتهاءً بجيش الإنقاذ الذي تحلق حولي في قلب سوق عمّان. بيتسم مهوناً ما حدث، ويدخل مكثي نوراً غامراً. تدهشني نفسي وهي تفيض وتندلق معها يدهشني حضوره الممكن وسط ارتباك الحياة.

كيف يمكن لكل هذا النور أن يتبدد في عتمة مريبة ؟ ببساطة، يكفي أن يدخل مكثي الزميل "سحلية" مرتدياً بدلته الكاملة (صيفاً، شتاءً)، لعل القميص الحريري الداخلي مبتلّ بتوابل من عرق و عطر، أعتذر لنسياني الاسم الأصلي لزميلي "سحلية"، المطبوع يومياً على الصفحة الأولى في الغالب، فلقبه صار محبباً عندي، قريباً إلى قلبي، لولا اللقب لثقل ظله، كيف لي أن أحتمل رجلاً ببدلة في كل المواسم، وربطة عنق وسيجار هافاني أو كوبي أو أميركي، لا أعرف الفرق، كيف أحتمله لو لم أحول عاداته القبيحة إلى نكتة ولقب . أشعر أنني أدله . أليس لكل الظرفاء ألقاب، أسماء للدلع، هكذا دلّعتهم "سحلية" . إذ يمتلك من عبقريتها الكثير، أحمر إذا زاره شيوعي مهم، أحضر عند الحديث عن السلام والاستسلام، بني إذا اكفهرت الأجواء، "بمبه مسخسخ" إذا تعامل مع مندوبة صفحة المرأة اللطيفة، مع رئيس الحكومة إذا غاب الشعب، ومع الشعب إذا سها رئيس الحكومة عنه لحظة، قادر على لعن سنسفيل جدّ كل أجهزة الضبط

والربط، ثم تحويلها إلى أكبر مؤسسة وطنية عرفها التاريخ.. سحلية حلوة لها في كل موقع زيّ. إذا لزم الأمر يصير منقطاً أو مخططاً أو موجاً كالأفعى، يمكن لـ"سحلية" أن يزعج نهارى إذا ما رمى بصباحه الثقيل المعفر برائحة السيجار، أحتمله من أجل خاطر زميلي الذي يشاطرنى مكتبي والذي أسمّيه "أمرك سيدي". ما ألطف وجوده، خفة الكائن الذي لا وزن له، يقفز مرتبكاً إذا مر رئيس التحرير في الممر أو عبر حجرة سكرتير التحرير .. يتصبب عرقاً إذا استدعاه المراسل إلى حجرة مدير التحرير، يسمع الأوامر بانتباه وتركيز يفلتان منه في اللحظة الأخيرة وقبل أن يهتف بحماسة قلقة:

- أمرك سيدي.

يطلب "أمرك سيدي" بودّ حقيقي منكسر أن أشرح له أوامر مدير التحرير التي استجاب إلى تأديتها كأى عسكري منضبط، نوع من تآزر المتعوس وخايب الرجا، أو المزلق مع العريان، لهذا، غالباً ما أرافقه إلى حجرة المدير، أظهاره بأني مررت للتحية، أسمع لأوامر نيابة عنه، أحفظ الكلمات ريثما نعود إلى مكتبنا، ف أترجمها كما يحلو لي، زميل غاية في الظرافة، لا بأس بمساعدته، الكارثة أنه يندفع إلى مهمة تشبه البكاء إذا ما حدث أنى أسأت فهم الأوامر وترجمتها، عندها أكون لئيمة ولي مقاصد خفية!! أقنعه أن فهمه هو الخاطى فيقتنع.. لا يعذبني ضميري تجاهه، لأني لم ألد "جنابته" و أنساه. عادة ما يموت ضميري إزاء الأغبياء والمتخلفين والبلهاء، حاولت مساعدته، ولي أجرُ المخطئ إذا أخطأت، وليقلع شوكة بكفيه. يتواطأ الزميلان "سحلية" و"أمرك سيدي" في مختلف الأمور على اختلاف شخصيتيهما والمزاج، ويقع "هيد آند شولدر" بينهما، ذلك أنه أبرع مخلوقات الله في نفث القشرة المتساقطة من رأس رئيس التحرير إلى كتفه فتاتاً أبيض ناشفاً، يقف "هيد آند شولدر" عادةً موارباً جسده الشبيه بقلم معوج قرب قامته رئيس التحرير المكتنزة، ويتحرك ظلاً له وإن كان يفرع أحياناً ويرتد إلى الوراء خطوتين إذا ما علا صوت رئيس التحرير متوقفاً أنه المقصود بكل غضبة أو بحدلة يجود بها صاحب الشأن الرفيع، فإذا ما اطمأن إلى رضا رئيسه عاود الاقتراب ماداً كفه بتودد رائق مثل غوريلاً تغلّي حفيدتها، طارداً برينات حانية فلول قشرة الرأس السارحة على أكتاف جاكيت البدلة الفاخر. لا تصدقوا كل ما أقول، فرئيس التحرير يستخدم نوعاً فريداً من الشامبو المجلوب خصيصاً

للدبلوماسيين، ويفوح عطراً، وتنوع بدلاته بين تصميمات بيير كردان ورالف لورين، لا تأتيه القشرة من فوقه أو تحته.

رفع ثلاثتهم رؤوسهم واسترقوا النظر والسمع لما دفع لي المراسل وريقة صغيرة، استرعت الخطوط الخضراء انتباه الزميلين. الإشارة بالقلم الأخضر تعني أنها قادمة من مكتب رئيس التحرير الذي يعينهم ولا يتوقعون منه مخاطبتي على أي نحو. تلكأت في الإعلان عن فحوى الورقة، وتصرفت كما لو أنني أريد إخفاءها عنهم. مجرد خسة وبياحة لا مبرر لها. تحركوا بذعر المحاصرين. استمتعت باللعبة قبل أن أضحك وأنا أعلن عن تكليفي بتغطية جلسة شعرية صباحية في جامعة البترا.

حوّل رئيس التحرير إليّ بطاقة موجهة له لحضور محاضرة شعرية للكاتب "الماحي"، مهمة لا بأس بها، شرقت عيننا "سحلية"، وتنفس "أمرك سيدي" الصعداء، وهز "هيد آند شولدر" رأسه. اللهم ساعدني حتى لا تحرن حماتي الفولكس في طريق المطار، حيث تقع الجامعة العتيقة التي بدأت للبنات فقط، ثم استجابت لنحيب العذارى و أمانيهن الخفية في الاختلاط الجامعي، فبدأت بقبول الذكور إلى جانب الإناث.

يعجبني الشبان والشابات المتناثرين تحت الأشجار وفي الطرقات وهم يسرون في عالم لا يعينهم، تستخف نظراتهم بوقاري الزائف، تفصلني عنهم سنوات الدراسة ولن يشفع لي تحولي، لم أعد قادرة على تزوير وضعي كخريجة وامرأة عاملة بخطوات راقصة على أدراج جامعة البترا، ظهراً اصطليت بعيونهم وأنا أتوجّه عجلي نحو مكتب الإدارة المكتظ بشخص من "العيار الثقيل"، كنت أحقّهم وأطفهم وأجلهم، مروا لي هذه النرجسية العالية، فشعوري بأني وقعت صدفة في المكان يربكني، أحتاج إلى حقنة ثقة ونرجسية تمنحني بعض اللون والوزن، جئت لتغطية أمسية شعرية (يسمونها أمسية رغم أن النهار ينتصف، ولا أمل بغياب سريع لشمس آذار المعتدلة)، ليس هناك سبب يدعو إدارة الصحيفة لإرسالي في تغطية أمسية شعرية إلا الاستهانة الصريحة بالشعر، يصل الاستخفاف إلى حد تكليف حضرتي بالمهمة في حين أنني لا أفقه شيئاً من طلاس الشعر ورموزه، إنه الشاعر "الماحي" على أية حال، وقد أكد لي مسؤول القسم الثقافي بساطة طلاس وغياب ألغازه، مؤكداً أنني سأجد نفسي أستمع إلى كلام عادي عليّ أن أسجله،

وقد أكون محظوظة فأجد القصائد مطبوعة.

ألتو انتظار بدء الأمسية اضطراري، تخرجت في جامعة اليرموك بعد أربع سنوات عجاف تفاديت فيها ممرات مكاتب الإداريين والأساتذة ما أمكنني، الآن أجلس زائدة دودية بين جمع من الكبار، وأجامل نفسي بأن ظلي أكثر الظلال حقّة وشفافية مقارنةً بالظلال الثقيلة سماجةً وكثافة، يدفع "الماحي" جسده إلى مقدمة كرسيه قلقاً، بينما يتزحلق ضيف الشرف الشاعر "شاغل الدنيا" على امتداد الكرسي، متئثاً على ساعده بالكامل، ينكش شعراته المعدودة بسبابته، وينظر أستاذ الأدب العربي إلى هذا الاجتماع بين العملاقين "الماحي" و"الشاغل" على أنه إنجاز وطني، أتململ لأني لا أفهم أهمية أن يجتمع هذان القطبان، ولا سبب حماس الأستاذ، أنتظر بيأس بدء الأمسية وأحجل من سؤال "الماحي" إذا ما كانت أوراقه مطبوعة أم لا، ألوذ بالصمت وبالتجسس على حركات المحيطين بي. يتمتع أستاذ التاريخ بأرفع أشكال التهذيب، يوجز في الحديث مستخدماً نظراته أكثر من الكلمات، يوزع اهتمامه بالتساوي، قاتل الله شائعات "سحلية" عن اعطيشه على هبات العجائز المعجبات في القارة الأوروبية قبل أن يعود مدججاً بسلاحه العلمي البتار. للحساد طرائقهم في تشويه الوجوه الوقورة. لا أصدّق أن طالباً فتياً يسلم جسده لحيزبون لقاء المال، كما أشعر بمسؤولية تجاه عقلي وضرورة تنظيفه من تلك التفاهات تباعاً. هناك شاعر يعمل في البلاط الملكي يجلس بأبهة عالية كأنه وحيد بينما ينتشر البقية في الحجرة. يمتلك أستاذ الفلسفة عينين فضّاحتين، من الواضح أنه منزعج ويراقب بحذر ويفلسف الأمور، الذكاء المفرط منقّر كما الغباء، وهو ذكي جداً، ينظر باتجاهي مقرباً جسده الصغير هاماً بغيمة لا تمنحه إياها الحجرة الضيقة والأذان المتنبهة، لا بأس، عيناه تشيان بالملل وتمي انفضاض السامر. حضر روائي منشغل بمجده النقابي، اقتحم الحجرة بعينين خضراوين ذابلتين، يلمع كأنه نسي معجون الحلاقة على وجهه، بدا غريباً ثقيلاً ببدلته العسلية الأنيقة، ابتلعت مجاملاته بصعوبة، رغم أنه الوحيد الذي جاملني، ربما لأني صحفية! أزر نفسي إذ أحس بصوته دبقاً، أتذكر قبة مريول المدرسة المغطسة في محلول النشأ والتي تعز رقبتني طوال الحصّة الأولى إلى أن أخلعها، ما علاقة هذا بذاك؟ والله لا أكرّ له ضعينة، ولكني حقاً لا أطيق ناموسة تمر أمامي، فما بالك برجل منشي من ذؤابة شعره وحتى مقدمة حذائه؟

في حجرة المكتب أطلق "المحي" بعض مآزحاته، وأكملها على المنصة في قاعة المحاضرات حيث التهمت أيدي الحضور الفتية بالتصفيق، عندما يقول نثرًا يكون أكثر إقناعاً منه كشاعر، تصرف الشاعر كإعلامي، فاستعان بالحّمى التي تتسبب فيها صور العنف لإسرائيلي، ظل الخطاب باهتاً والدم متوهجاً، و "شاغل الدنيا" يرمق الآخرين وكأنه متضايق، ممّ يتضايق؟ جاملي فجأة وبصورة عابرة، أقول "فجأة" لأنّ حدساً خبيثاً أسرّ لي أن الرجل لم يحتمل رؤية امرأة تجلس في حضرته ولا تراه.. أراه.. ولكني مللت انتظار ال قصيد في حين راحوا يتحدثون عن أمر مختلف.

قلقة كأن الريح تحتي، وهم يخفقشون حول المكان الذي سيقام فيه تأبين الأديب الراحل "مؤنس الرزاز". "المحي" و"الشاغل" كونهما من غرب النهر، لا يتدخلان في الشأن الأردني، ربما احتراماً لاتفاقية فضّ الاشتباك الحميم، أقصد "فك الارتباط القانوني" بين الضفتين شرق النهر وغربه، في حين يسعى شاعر البلاط لإثبات أن الثقافة فُصّلت على مقاسه دون الخلق، فيتأجج حماسة عندما يخاطبون فيه الشاعر، خاصة بحضور شاعر كـ"شاغل الدنيا"، في فورة الحماسة يتصل من جهازه الخلوي برئيس الجامعة الأردنية، تأكيداً على حماسه الشاعر يجري مثقف آخر اتصالاً مماثلاً مع جهة مغايرة، اكتشفت وجود هذا المثقف فجأة كأنه هلام اندلق من دون سابق إنذار، أجرى الهلام اتصالاً بمركز الحسين الثقافي، لتتحرك شبكة من العلاقات بين المهتمين، يبدو أستاذ اللغة العربية عزّاب المناسبة غاضباً لوجود احتيال مكشوف لإلغاء الاحتفال في قاعة رئيسية، محتارون أين يؤننون الفقيد! فالجامعة الأردنية ألغت حجز القاعة لصالح بروفات رقص البالية، قطعاً أن الرزاز (لو كان فناناً حقيقياً) يفضل رقص البالية على مراسيم تأبينه، ولكنه، وقد رحل، فإنهم يرثونه ولبسكانهم أن يقرروا نيابة عنه!

يقترح الشاعر القبول بمدرج سمي الرفاعي الذي يتسع لأربعمئة شخص، بينما يتصور أستاذ العربية أن هناك ألفاً وخمسمئة عاشق لمؤنس سيحضرون، لا أجرؤ على التدخل تعجباً. في الواقع لا أعتقد أن هناك قرّاء لأيّ كان بهذا العدد، ولكني سأحضر، إذ يحلو لي الادعاء أي واحدة من المثقفين الذين يتواجدون في دور العزاء هذه. يستشري الملل في الحجرة كالعذوى. الهلام الغائب الحاضر هادئ يخفي ضجره بدمائة مصطنعة، ويرى في قاعات مركز الحسين مكاناً مناسباً. أستاذ

العربية يقترح بحماسة الشهداء نصب صيوان ضخم نعلن فيه موت الجامعة ا لأردنية . يا لهول الكلمات والصور حين تقع تحت رحمة رجل متمكن من اللغة والمعاني! لماذا لا يقيمون التآبين في المدرج الروماني بين جماهير الشعب الكادحة وا لأشقاء العراقيين اللاجئين إلى الواحة ا لأردنية فنخلص.. أظل على صمتي، ففكرتي تافهة مثل ما تقدم من أفكار، تنقذنا سكرتيرة رئيس الجامعة بدعوتنا لإحياء الأمسية، أدلف وراء السادة الكبار فتهتز القاعة بتصفيق الطلبة، ويزوغ الشّعر.. ويزوغ فهمي، لا أستوعب شيئاً. "الماحي" يحب المنصّات، تتقافز قامته القصيرة ببراعة وراء منصّة أعلى منه! لماذا لا يراعي منظمو المناسبات مثل هذه التفاصيل الصغيرة؟ لماذا لا يفصّلون منصّات لقصار القامة؟

يقلب "شاغل الدنيا" شفتيه مسنداً حدّه بإبهامه، ما يجال الضيق بادياً عليه رغم أنهم صفقوا له أكثر من صاحب الندوة، واستخدموا اسمه (خلطاً) كلما خاطبوا "المحي"، وهرعت الصبايا خلفه عند انتهاء الأمسية لالتقاط الصور التذكارية ووقف مثل "عمر الشريف" يوقّع اسمه الكبير على الأوتوغرافات الملونة.. مم يتضايق إذا؟

سيقتلني رئيس القسم الثقافي على هذه التغطية البائسة. بلنته اء سهيل القصائد أسرع للهرب، التقطت يدُ رئيس الجامعة ذراعي في إصرار لحضور دعوة الغذاء، ما أزال متوترة أوشك أن أتقيأ عند شمّ رائحة طعام، دجاج مسلوق ثم محمّر، أرز ملوّن بالكركم، وسلطة ملفوف إلى حوار طبق الفتوش. العيب في مزاجي لا في دعوة الغذاء الكريمة. لماذا أصاب بكل هذا الملل والرغبة في الانكفاء على الذات.

لم يعد العالم يعجبني؟ لن أتمكن من إصلاحه أو تغييره، و لا أرغب في جداله، أريد أن أفرّ من الجامعة على عجل، وأفتح شريط عبد الحليم حافظ في السيارة، لأغني معه.

ينقر "حسن" على تابلو السيارة الأمامي كأنه من اخترع الموسيقى، ويهز رأسه طرباً وصوتي يكاد يخفي صوت عبد الحليم:

- سواح وأنا ماشي ليالي... سواح، ولا داري بحالي سواح..

يعود ذوقني في الغناء إلى ثلاثين سنة مضت، وكأني ديناصور بعث خطأً.

أفسدوا مزاجي بالحديث عن وقائع تأبين الرزاز، وخطر ببالي حفل تأبيني، لا أريد تأبيناً، أريد أن



أموت في الربيع محتفياً بالدحنون على سفح أخضر . طبعاً لو امتد العمر بعلمي أو زوجي بعدد قد يفكرون بإقامة خيمة يستقبلون فيها المهنيين.. أقصد المعزّين بي لثلاثة أيام متواليات . ذنبهم على جنبهم، هم من سيعاني، وقت ضائع وتكاليف باهظة ودموع تماشيح لا مبرر لسقوطها، وربما إعلان مجاني في الصحيفة كوني ابنة مؤسسة صحفية كريمة. عن نفسي، سأكون مرتاحة، رجل على رجل، وسيجارة، طبعاً إذا كان بلهكاني أن أفعل ذلك، أعني أن أهرب من ظلمة القبر إلى حيث أراقبهم وأدخن سيجارة. غيمة صيف عابرة تلوح في الفضاء وتتسكع مثلي على طريق المطار، فلغفر للشعراء والمثقفين كل ذنوبهم و أواصل الغناء، الغيمة التي تُفرح فؤادي قد تبعث الكتابة في قلب آخرين، للجمال مفعول متفاوت بين الناس، لكن انحسار موجة الك آبة التي عصفت بي جعلني أكثر تفاهماً مع الأشياء، لهذا وقفت مجاملة لابن الجيران "موفق"، وإن لم أسأل عن أسباب تواجده في مدخل العمارة في مثل هذا الوقت . اس تفسرت عن أخباره قتلاً للهلل، و استعجالت وداعه ملوحةً بكفي إثر ظهور "وداد". أعرف أنها تتلهف على الاصطدام به عند مدخل الدّرج وهي تندفع هابطة من شقتهم، وتحاول أن تطيل الوقوف، تضاحك ارتباكاً، طبقة كثيفة من مسحوق وردي تغطي مسامات وج هها، كما تلتصق رموشها بفعل "ماسكارا" رديئة، ويترك أحمر الشفاه مشحة من لون فوق أسنانها الأمامية كقطعة التهمت صغيرها للتوّ . نبهتها إلى الأمر بحركة خفيفة، مسحت أسناني بإصبعي، لم تنتبه وراحت تمسك ذراعي بإلحاح مدعيةً أن هناك أحاديث كثيرة تجمعنا . ل"وداد" أسلوب مزعج في التعلق بأذرع من تحادثهم، لم يبدل "موفق" وقفته المريبة، لعلها تسوغ لنفسها الوقوف بصحبتنا معاً، رغم بلهها الظاهري إلا أنها تجيد تحويلي إلى فزاعة تبعد عصافير الشكوك حول إعجابها المكشوف بقامة الفتى الفارعة . الناس أجناس وأذواق، والمتغيرات تلعب دوراً انقلابياً.

أتذكر أنني أغرمت بالولد "موفق" إبان مراهقتي، كان أنظف من "صبحي"، يُرجع خصلات شعره الطويلة إلى الخلف ويثبتها بسائل لامع، يُكثر منه أحياناً وهذا يُحسب عليه، تفوح منه رائحة عطر رخيص، وهذا يُحسب له. أترك "وداد" بصحبته وأصعد إلى بيتنا من دون أن أنفقد جدّي، أتدرك الأمر بعد نصف ساعة ف أهبط مجدداً والجاران العزيزان منهما كان للغاية، مجنونة هذه البنت، لا شيء يستحق أن أتلوّى وأموء حاشرةً جسدي بجسده وراء الدّرج بحجة الكشف على

ساعات الكهرباء المقطوعة كما فعلت "أم بطّات سمان" .. أتصور "وداد" تعيش مراهقتها رغم تجاوزها الحد الفاصل بين المراهقة والعنوسة.

\*\*\*

يا عيني على الفهم!

هناك مستويات من الوعي تتفاوت عند القراءة والتلقي، فلللوحة التي أراها زرقاء يظنها أحدهم خضراء، ليس من قبيل الإصابة بمرض عمى الألوان. إنه اختلاف في تلقّي الحواس، مسألة ذائقة، أمر مشروع يدل على التنوع والتعددية، لكثرة ما أخلط الأوراق أشعر مراراً بحاجة إلى الشرح والتفصيل. هبطت تلك المقدمة عن اختلاف الأذواق والقراءات إلى رأسي وأنا أمسك بأوراقتي والقلم في ندوة "آفاق الثقافة" في مركز الحسين الثقافي. يبدو أن تغطيتي الناجحة لأمسية سميح القاسم دفعت مدير التحرير للتهور إلى حد إرسالني لتغطية ندوة "محمد عابد الجابري" القادم من المغرب العربي ليروج لفكر المشرق، وقد نقل لي "أمرك سيدي" عن حُسن نية، كلمات "سحلية" الغاضبة من أن هذه الصحيفة باتت تمسخر المهّمين أمثاله، وتلمّع التافهين أمثالي. لم أعلّق، ربما لأني كنت على عجلة من أمري، أو لشك في أعماقي أن رئيس التحرير لا يقصد مسخرتي أو إعلاء شأني، ولكنه لا يعرف أهمية مفكر مثل "الجابري".

اكتظت القاعة بالحضور، على مستوى فيلسوف وما فوق، إلا أنا و"حسن"، مجرد متطفّلين على العالم المجيد، ولأني سأقع في تضليل الكلمات فقد قررت أن أعمل كجهاز تسجيل أمين من دون زيادة أو نقصان، لن أبدي وجهة نظر أو تحليل ما، أليس هذا ما يفعله الصحفيون عادة؟ والله إننا مخلوقات عاقلة لا تتدخل بأكثر من مقتضيات مهنتها، ثم لا أريد أن أكون هدفاً مكشوفاً وسهلاً لغيره "سحلي".

دفعني تفاوت الفهم وتناقضه وغرائبيته للتأمل بما حولي من عقول، يقولون إن هناك عقلاً جمعياً، يملي على العامة توجهاً بعينه، ولم أرَ إلا جزراً معزولة، عقولاً مفردة تنطّ في ملكوت الله مثل جندب قرّس النبي.

يدعو "الجابري" إلى مناقشة الغرب في حوار جديد، حيث لا أهمية لشرح معطيات حضارتنا العريقة، ولكن الأولوية لتبيان واقع الفكر الذي يصدر عن الغرب والذي يسيّد فيه ثقافته ويراهها

تعلو عن باقي البشر، ويعتقد فيلسوفنا أن الوصول إلى هذه الحقيقة س يهدم الغرب في ذاته وادعاءاته الإنسانية النبيلة، وقد يدفعه إلى إعادة فرز أوراقه مكتشفاً أن تقدمه قام على أسس خاطئة ومغلوبة! لماذا؟!

من يستطيع أن يناقش فكراً كهذا؟ بيني وبينكم هناك أمر مهم غاب عن فيلسوفنا.. هل تراه يعتقد ببراءة تامة أن الغرب يجهل هذه الخاصية اللا أخلاقية في ثقافته! ألا يحقق الغرب قوته وانتصاراته من هذا الواقع؟ ألن يدافع عن تفوقه ولو بدمائنا؟ مجرد أسئلة عابثة لا معنى لها لأني رحمت أسجل ما قال "الجابري" بدقة متناهية، لم أناقشه كما يفعل الآخرون كي لا يتهمني أحد بالعنصرية ومعاداة الدول المتقدمة حسداً وغيره.

وقف رجل متحمس بين المستمعين معترضاً.. ها قد بدأ الحوار..

- كيف ترتضي أن تناقش الغرب من داخل بنيته الفكرية، لا بد إنك تنتمي إليه م..

يا سلام!

ماذا فهم هذا المستمع؟ يبدو أنه لم يستمع إلا لذاته.

يا سلام أيضاً على ذلك المتحذلق الذي اقترح حلاً لمجمل الترددي العربي، وطريقة فريدة لمواجهة الغرب، وذلك بالعودة إلى التصوف..

مدد.. مدد..

أقول لـ"حسن" غاضبة:

- عاجبك؟!

يهز كتفيه مستهيناً:

- وأنا شو دخلني! والله يرضى عليك لا تساوي حالك فاهمة وعندك موقف خاص.

لا موقف لي، هناك أزمة لغة، ما يُفهم ليس ما يقال، وما يُقال لا يُفهم، أزمة عقل، عبارات ومفاهيم ومصطلحات تقود إلى دهاليز وأنفاق بعيدة عن الدروب، هناك أناس فاهمة و أناس نائمة، آذان تسمع وآذان بها صمم، فوضى داخل أدمغة بشرية تميد بالرؤوس في ندوة وقورة، يطمون الكلام والمعاني مطاً، يخضعون كل القضاة لي لعبث سمج ينقلب جَدّاً، لن يتورعوا عن تمديد الأحبال الصوتية لراغب علامة على مشرحة البحث الفلسفي، يتفرجون، "يلغوصون" بها

بأصابعهم، ولا من يبحث ولا من يمتلك مشروطاً أو دواءً.. أيضاً يغيب البنج.. آخ. آخ ،  
المشكلة أن "حسن" حذرني من الادعاء أي مهمة أو فاهمة أو صاحبة موقف، حتى "حسن" لا  
استعداد لديه لسماح وجهة نظري المتواضعة. تحمل صحف الصباح صورة "الجابري" ومستمعيه  
الكرام، ومقالي الفهيم الواعي التسجيلي الخالي من التحليل يحتل نصف صفحة من الصحفية.  
على مسمع من "سحلية" الذي صار لون وجهه أسود، قال رئيس التحرير:  
- أنت تتقدمين... برفو "نارة".

رئيس التحرير يغالي.. فالتقدم الوحيد الذي أحرزه أنني أستطيع تسجيل محاضرة مهمة، وأتمكن  
بكل شجاعة من إلقاء أوراق الحوار في سلة القمامة، وأصرف نظري عن البقع التي توزعت على  
وجنتي "سحلية" الحليقتين، تبقع وجهه بغيره بنفسجية مكشوفة، برفو "نارة".  
هناك حراك مدمر حولي لا أعني تفاصيله، الغيرة المهنية تتمشى في ممرات الصحيفة مثل عنكبوت  
سام بأرجل مشعرة ورأس مدبب، أقفز برشاقة فوق الأذرع الممتدة ما بين مكثي ومكتب  
"سحلية" ومكتب رئيس التحرير، يطور "سحلية" طاقاته الكامنة، أتذكر منظر السحالي التي كان  
"صبحي" يقطع رؤسها أو أذناها تحت درج العمارة فتفاجئنا بالانطلاق مقطعة الأوصال في كل  
الاتجاهات، وكيف كنا نصرخ ونتقافز مثل حبات "الهشاش" إذا مر الذيل أو الرأس بمحاذاتنا،  
يجلو لي أن أضحك حول تفاصيل مؤامرات "سحلية" وأنا أرويها لـ"حسن"، فيقول لي:  
- أخاف عليك.. هذه غابة.. لا تتصرفي مثل قطة غشيمة في غابة أسود وتضحكي، افتحي  
عينيك.. لا تتهاوني..

يبالغ "حسن" كعادته في رعايته الأبوية، وأنا على يقين أن مناعتي قوية في مواجهة سمّ العناكب  
والأفاعي وأنياب اللبوث المخفية والبارزة. لا أخشى شيئاً، لأني ببساطة، لا أريد شيئاً، لا أحلم  
بالمغانم، كل ما أسعى إليه النجاح، والأمر مختلف جداً عن طموحات "سحلية". لسنا في  
منافسة، وإذا حدثت فليني أحرص أن تكون شريفة.. كنتفي بالعمل الذي أدرك أن هنات كثيرة  
تعتبره، وأترك رأس "سحلية" المدبر يجتاز دربه إلى حجرة رئيس التحرير ويدفعه للصراخ عالياً:  
- من أرسل "نارة" الحمارة إلى المؤتمر؟!

يقذف رئيس التحرير بغضبه في وجوه الآخرين وهو يهذر كما كينة آيلة للعطب:

- وإن تكن هذه الهبلة غطت ندوة الجابري بدقة! أساساً أنتم أنفسكم بالكاد تفهمون الجابري، وإن تكن سجلت قصائد سميح القاسم بلا أخطاء! أصلاً ما فيها هذه القصائد من إعجاز! أي طالب ابتدائي يستطيع أن يكتبها، وإن تكن فعلت كل هذه المعجزات، ألا ترون هبلها وارتباكها واضطراب بوصلة الفهم والتحليل لديها؟

ينقلب رئيس التحرير (الذي وظّفي) عليّ بسهولة، صائحاً:

- هذا ليس خبراً محلياً، ليس حفلة خيرية تقيمها جمعية وادي العتمات، ليس عرضاً للأزياء الشعبية، ولا أمسية شعرية لعائشة الرازم، ولا افتتاح معرض لفنانة سلطية، يا ناس يا عالم خافوا ربكم، هذا مؤتمر القمة وترسلون "نارة عدنان" لتغطيته!! خلص! أمحلت!!

المتع أني لم أسمع هذا الموالم المهين بأذني بتاتاً، فهاتفني الخلوي مغلق بأمر ضابط الأمن على باب القاعة، ومصادر مؤقناً في حوزة أحد جنود الحرس الملكي، بالتحديد أحد أنفار لواء حمزة بن عبد المطلب (سيد الشهداء)، عرفت صفته وموقعه من المصق الصغير الذي ثبتته على ظهر الخلوي، وأعطاني نصفه ليثبت حقي بهذا الجهاز بانقضاء المؤتمر . بصراحة يمتعني أن رئيس التحرير فقد أثري تماماً، ولن يتمكن من إجراء تبادل آخر بي لو أراد، فالوقت تأخر وبدأ المؤتمر، احتشدت النسوة في حديقة قصر الثقافة، أغلبهن اتحدن مواقعهن في الصالة الداخلية، أنا مررت بالإجراءات الأمنية التي صادرت جهازي الخلوي فأراحتني من نقيق رئيس التحرير . الإجراءات التي ترعج بعضهم تريحني، تسعدني، تحريري من متابعة أرباب العمل ولو لساعات معدودة . لا يعرف الناس نعمة إجراءات الأمن إلا إذا كانوا مثلي ملاحقين ب إجراءات الوظيفة . كل هذه ترهات مرت بخاطري. على الأرجح أن رئيس التحرير لن يسأل مطلقاً عمّن ذهب لتغطية المؤتمر، وأن الأمر لديه سيان أكانت "نارة" البسيطة (ال..)، أم الصحفي الأشهر في تاريخ الصحافة العربية "محمد حسنين هيكل". باختصار إنه مؤتمر للمرأة، ومن يهتم بما يدور في هذه المؤتمرات؟! أنا أهتم، دخلت بينطالي الجينز وسط حشد من النساء الجميلات الأنيقات، معظمهن قصصن شعورهن مدرجة تكاد تلامس الكتف ولكنها تنحسر عنه، هذه موضة عام 2002، ما أزال أترك شعري على موضة 1999 مسترسلاً، أحياناً أربطه وقد أقصّه قصّة الأسد كما موضة 1980، سأحقق راحة كبيرة لو قصصته قصة الصبيان، " آلا جرسون"، المكياج العام هادئ

ووقور، ما عدا قلة اختلط عليهن الأمر بين حفل عشاء ساهر ومؤتمر قمة يُفتتح صباحاً . تتناثر الفتنة في الطرقات كما اختلاط أريج عطور فرنسية، الخطوات جادة على شيء من الارتباك الخفي، عادت الثنائير القصيرة للظهور إلى جنب جلايب المحجبات التي تشحط قَصْرَ الثقافة المندى برطوبة الصباح، ومكياج ثقيل مؤطر بالغطاء الشرعي للرأس . هناك فتيات يبدنني كالصبيان ينطلون ضيقة مكحثة وأنداء متواضعة وخلفيات ممسوحة، وهناك جميلات فارهاث كسيارات الشبح، إناث لا يصلحن لمثل هذا المكان، أتوقع أن منظرهن على مسبح المدينة الرياضية سيكون مذهلاً، أغلبية الحاضرات يرتدين التاثيرات الكحلية والرمادية التي تعتمد البنطلون، ويتزيّن بمناديل حريرية ملونة حول الرقبة، يبدن عمليات، مسرعات، جادات، أشعر بالخوف.

عندما شُغلت معظم مقاعد المسرح الرئيسي كان لهكاني التلقت حولي ومراقبة نظرات السيدات اللواتي يتسمن لدى مرورهن بوجه يعرفنه، على الأغلب ينسين اسم صاحبتنه، ينقذهن ضيق الوقت من محاملات التقديم والتعريف المتبادل، وفتيات التنظيم يرتدين زياً قرميد طياً أنيقاً، الياقة مطرزة بقطبة تذكّرني بأثواب العجائز في مخيم الوحدات، في الوسط تطرير آخر على زنار، لا أجد في ذاكرتي شبيهاً له إلا في الصور، كأنه الزنار الكلاسيكي لنساء اليابلان، هل استعانوا بمصممة يابانية؟ ما عيب المصمّمات المحليات؟ من قال إن المصممة يابانية؟ هذا توهمي، انظروا أية تفاهة أتمتع بها! النساء يعقدن قمة للمرأة العربية ليطالبن بمزيد من الحقوق والحريات والمؤسسية المدنية والدور الإيجابي، يطالبن بمكان تحت الشمس، وأنا أفكر بالأزياء والمكياج وزنار فتاة الاستقبال وأتساءل: "إيش لمّ الفلسطيني عالياباني؟"، لو قرر رئيس التحرير الخلاص مني فلن هذا منطقي، حقّه، لعله يقوم بعمل جيد ولو مرة في تاريخه المهني.

بدأ المؤتمر، لم أسمع السلام الملكي، ولكن تمت قراءة القرآن بصوت الشيخ "هليل"، هل هو وزير أم مقري؟ التبس عليّ الأمر، إنها ورطة حقيقيّة، لا أعرف مقامات الناس ولا مناصبهم، ناهيك عن المسّم طيت التي يتم التعرف بها على الرتب وحجم الكراسي وتلك التي تسبق الأسماء لتفخّمها وتضخّمها وتنفخ في روحها، مثل "عطوفة" و"معالي" و"دولة". هذا مأزق لا يجوز لصحفي أن يقع فيه، ولكنني أثق بتصويبات زميلي "كعب الكباية" في هذا المقام، مؤتمر القمة

الثاني للنساء العربيات، لا أعرف معظم الجالسين والجالسات، إذا كنت لا أستطيع أن أتذكر رتبة المقرئ ومكانة وما إذا كان وزيراً أو معلماً كُتّاب، كيف سأعرف أسماء السيدات الأول؟ أين السلام الملكي؟ ماذا حدث؟

تتطوع شابة جالسة إلى جوارني بالتفسير، بروتوكولياً، لا يمكن أن يتم عزف أربعة وعشرين سلاماً وطنياً بحضور السيدات الأول، هزرت رأسي كمن فهم، ولكنني كنت في الحقيقة مصابة بدهشة كبيرة وحنق أكبر، لماذا يجب "بروتوكولياً" أن تعزف كل هذه الموسيقىات؟ وإلا لا شيء؟ الأصل، أن الحاضرات زوجات الرؤساء والملوك، أمهات أطفالهن، لا الرؤساء والملوك أنفسهم، ونحن دولة سخية صرفت دم قلبها على الاستضافة والتنظيم، من حقنا أن نسمع سلامنا الوطني، أحب أن أسمع، يذكّرني بصباحاتي المدرسية، ويبعث الرعدة في أوصالي، يقنعني بحب الوطن، هاتوا لي السلام الوطني.. أنا جاهلة بالبروتوكول وأحاول استعمال منطقي الخاص الذي لم يسمع به أحد.. ولن يسمع. مقدمة المؤتمر بارعة في مهمتها، يساعدي تمهّلها كي أسجل كلماتها من دون ارتباك، وبمحنى وقتاً لا كتب مقتطفات من الخطابات التي تُتلى . أُلقت الملكة الشابة الرشيدة بوصفها المضيفة ورئيسة المؤتمر كلمة الافتتاح، زادها بنطالها الأسود رشاقة ولا شك غاظ السمينات، أفسحت الكلمات بعدها لـ "سوزان مبارك" وتعاقبت البقية، غفلت عن منصة السيدات الأول، وطارت عيوني إلى الصالة، أقرب وجوه الحاضرات اللواتي يتابعن المشهد بلهتمام، تهاشم رقيق ومغرض بين بعض النسوة وغفوة أخريات، وقسيس "ذکر" يتقلد صليلاً ذهبياً كبيراً على صدره يجلس إلى جوار المفتي "الذکر" بعمامته البيضاء متقنة اللف، يتهامسان بين الفينة والأخرى، لا أسمع ما يقولان، للأسف لا أجيد قراءة الشفاه عن بعد، ولكوني مشتتة تماماً، فلن الخطابات تصلني مكسرة من المنصة الرئيسية، هناك مجزرة تُرتكب بحق اللغة العربية، ولكن لنكن واقعيين، إنهن مجرد زوجات طبيبات ساقتهن الأقدار لمثل هذا الدور المملّ، لسنا في مجمع اللغة العربية لنملي شروطنا حول الإلقاء والصرف والنحو والبلاغة، وعلينا أن نقبل تشابه السيدات الأول بكل نساء الأرض من حيث الإمكانيات والطاقة، يسعدني هذا الأمر، إنه دلالة صريحة على التماهي مع العامة، بشارة خير تستحق زغرودة من اللواتي يُجذّن إطلاقها ورجحتها بين اللسان والبلعوم، ولكن الموقف أكثر وقاراً ولا يسمح له ذه الفجاجة (أقصد الزغاريد)

بكشف الطاقات الشعبية الكامنة. أحلق في الشاشة الضخمة المنصوبة أعلى الحائط، تلك التي تقرب البعيد وتحول حوض السباحة محيطاً يمكن فيه أن تمثل فيلم "الفك المفترس". على الشاشة يلتصق خاتم ماسي بديع في خنصر "سوزان مبارك"، وعقد مدهش من لؤلؤة واحدة في جيد "أندريه لحد" المتغصن كأن عمليات التجميل في لبنان الفاتن تفوقها. هناك لؤلؤة أيضاً في كل أذن من أذنيه، تتحلى "بهية الحريري" بمجوهرات تقليدية (قطعاً تمتلك أضعاف ثمن ما تزين به وقارها) اللهم لا حسد، لكنها وللحق تتحدث بعربية سليمة. ملكتنا أكثر بساطة في زينتها، تشبه طالبات الجامعة. "لالا مريم" تتحدث عن عدد البرلمانيات في المغرب بكل فخر. لا نقل إنجازاً عنهم، فقد حظينا في الأردن باثنتين، إحداها عُينت تعييناً، والثانية! أنتخبنا، ثم غادرت البرلمان بغير رجعة. يسترعي انتباهي التنسيق الأنيق لباقة زهور صفراء عملاقة تزين وسط المنصة، أحب الورد الجوري الأحمر، لا بأس بالزنبق الأبيض، أما الأصفر فأمره غريب، ولو أحببته على جسد السيارة، أتذكر بائعة زهور في عمان الراقية تفهم في الزهور، والطيور، والعطور، والمراكات، و"البيجي فور"، و"الملفهي بالكرما"، و"البراوني بالشولولاته"، والأصول، والبرتوكول، شرحت لي أن الزهور الصفراء ترمز إلى الصداقة، مع أي تصورت دائماً أنها رمز الغيرة والحسد، أبعده الله نيران الغيرة ورياح الحسد عن هذا الجمع الطيب.

"عمرو موسى" جالس بين جمع النساء لأول، الرجل الوحيد، الديك الفصيح، قلبي عليه من هذه الورطة الناعمة، عالق في بيت العنكبوت الواهن، صعد إلى المنصة لإلقاء كلمة ممثلاً للجامعة العربية، من الطبيعي أن يمثل رجلًا جامعتنا القومية التي لا تجمع ولا ما يجزئون، عندما انتصبت قامته الفارعة دارت أغنية "شعبان عبد الرحيم" في سمعي، "أنا بكره اسرائيل وبجبت عمرو موسى". أحب هذا الشعبولاً وهو يطلق كلماته من حنجرة مخرشة، ويجب عمرو موسى بهذا الوله الوقح ويكره اسرائيل بهذه الفجاجة الجميلة.. الله.. الله أحب "شعبولاً" ولا يعني إن دمر ما شيد عبد الوهاب في مملكة الغناء والموسيقى، وإن أطاح بمملكة الخيال التي بناها عبد الحليم آه وراء آه. أسمع كلماته تحت مصارين أحشائي وتتلوى في الفضاء، وأنا كمان "بكره اسرائيل وبجبت عمرو موسى، بجبت عمرو موسى وكلامه الموزون.. إيبسيه.. إيبسيه.. الموزون.. الموزون".



للحق، قال الرجل كلاماً موزوناً، لا أعرف كيف أتصرف بمثل هذه الكلمات الثمينة، كيف أختصرها وكل حرف جوهرة! أكتب وراءه كيبغاء، يقول "عمرو موسى" إن الحضارة قطار سريع علينا الركوب فيه.

تنقطع الكتابة، في الممر الأمني أسفل المنصة الرئيسية، وبمحاذاة ألقى امرأة ونفر قليل من الرجال، في قلب مسرح قصر الثقافة رأيت القطار السريع يمر، تلاحق ت شبايكه وعجزت عن عدها، حدقت جموع النسوة بالمرور الخاطف وتدافعن للحاق به، فلنكسرت كعوب عالية، ومادت قامتهن إلى اليسار أو اليمين، مطّت أخريات تنانيرهن القصيرة منعاً لظهور لباسهن الداخلية وهن يشعلن أقدامهن في بوابات القطار الكثيرة، داست المحجبات على جلابيهن فوق راميات زميلتهن الكاسيات والعاريات اللاحقات بهن على حد سواء، انطرحن أرضاً وتراكن فوق بعضهن بعضاً مثل شرائح "اللازانيا" الشهية، عندما دلقت فوقهن كريما البشاميل علت الآهات والنداءات والصرخات والاحتجاجات، وواصل القطار رحلته بأكثر سرعة.

الله يجازيك يا "عمرو موسى" .. لم يكن هناك قطار ولا ما يحزنون، مجرد ترهات عنت على بالي بسبب كلامه الموزون، الصالة هادئة كما يتوجب، وافتتاح المؤتمر قد تم وانقضى بحمد الله ورعايته، عليّ أن أبحث عن زميلة صحفية أشاركها ما خطّت وأقتطف ثمار جهدها وتيقظها أثناء طيراني الاسطوري (هذا عرف صحفي، أحتاجك اليوم وتحتاجني غداً، ليس في الأمر سوء كما قد تتخيلون، مجرد تبادل منافع وتقدير ظروف، حالة إنسانية وليس ضعفاً مهنياً كما تقدرون) .. أحتاج لزميل يقدر ظرف خيالاتي التي ركبت قطار التقدم السريع، زميل طيب يمدني بوقائع الجلسة والكلمات الرسمية، وإلا فإن رئيس التحرير شانقي اليوم إذا ما عدت خالية الوفاض، تنقطع حيرتي وبحثي عن الزملاء بصوت يعلن فخوراً قوياً قراراً لمجلس الوزراء يقضي بتعديل قانون الجنسية والأحوال المدنية، ويمنح المرأة حقوق الرجل نفسها في هذا الشأن، أشعر بالحاجة الملحة إلى الضحك والسخرية القارصة.

\*\*\*

أشرفت شمس عام 2003. لا يمكن لهذه المهنة أن تبقيك على الحياد، ترمي ك مغتصباً مرعماً إلى خندق ما، حتى لو تغاييت كما أفعل أنا، أو تذاكيت كما يفعل زميلنا الفهلوي "سحلية" مغالزاً الحكومة يوماً والنقابات المهنية يوماً، عين على أميركا، وعين على البطولات الممكنة تحت شعار "لا للتطبيع"، ذكاء خاسر ومكشوف ورخيص، ولكني محاصرة بفوز هذا النوع من البشر على حساب النوع الذي أمثله، الصنف الأهل، الذي لا يعرف من أين تؤكل الكتف، مكتفياً من الغنيمة بالإياب "الحيط الحيط واللهم الستر" ..

في غمرة انشغالي المهني هناك أمرٌ ما يحدث، تعلن زوجة عمي حملها ، معجزة رابانية! لست مندهشة، "فتحية" في الخامسة والأربعين فحسب، ما المانع؟ قد تكون تعليمات جارتنا حول طرق الاستلقاء والنكاح واعتناق حديد السرير أثرت أخيراً، لعلها كانت منشغلة بكل فنون الإنجاب، ما المانع؟

تحاول "أم صبحي" تفادي لقائي على الدرج، ولكن المكان الضيق يوقفنا معاً في منتصف الدرب، أسألها عن غياب "وداد" منذ مدة، وتتمتم مسرعة إلى الأعلى أن ابنتها المصون ما شاء الله تعمل نادلة في مطعم فاخر في العقبة، "فتحية" و"أم صبحي" تُكثران التهامس والوشوشة! عمي مضطرب.. لا أهتم كأي لست في هذا البيت .. ولكل امرئ ما يشغله. ما أزال منشغلة بحكايتي مع "حسن"، أعتقد أنه فرصتي الثمينة كي أكبر وأفهم ما يدور حولي، قلت له بانبهار: - هل يجب الإنسان نفسه؟ لا يمكن تصوُّر ما يفعله البشر بأنفسهم وبيعضهم بعضاً، الإنسان يكره نفسه، يؤذيها، يحطمها وهو يدعي بأنه يحيطها بالحمايتي.

- صايرها حكيمة، فيلسوف. كبرت.

كبرنا معاً، أحبّ الشيبات بطرف الغرّة..

- كبرت لحالك.. فشرت.

تعاركنا بالوسادات الطرية التي تحمل آثار شعر الرأس وبقع الدمع الليلية، وانقلب عراكننا الضاحك إلى عناق حمي.

علمني "حسن" قبول الناس بعيوبهم، لأرضى بعيوبي على أقل تقدير، وصار من الممكن أن تفيدني خاصية رصد الأخطاء في فهم الطبيعة المزوجة للناس، حيث نحن لا ملائكة ولا

شياطين.

على ما تقدم من نضحي وعبقريتي وتفوقي واحترافي تأملت أن أحظى بفرصة مهنية أكبر، وبدا أن قمة "شرم الشيخ" أفضل فرصة قد أنالها، بالطبع ستليها قمة "العقبة"، أو كما هو اسمها الرسمي "قمة البحر الأحمر"، هناك معلمة تاريخ خبيثة تركت في ذاكرتي اسماً مضحكاً للثغر المجاور لثغر الأردن الباسم، أيام كانت تسمى إيلات "أم الرشراش"، لكن هذا لا يخصني، أردت فقط أن أشارك في تغطية أخبار القمة المرجوة، احتدمت المنافسة في صحيفتنا العزّاء، من الذي سيحظى بفرصة تغطية أخبار مؤتمر "شرم الشيخ"؟!، رغم كوني أكاد أصاب بالجنون لمجرد تخيل أنني سأرى "شارون" بعيني، إلا أنني كنت على استعداد للمجازفة . كان بإمكانني أن أغامر باجتياز الحاجز النفسي الذي كسره السادات بعد لعبة خطّ بارليف، فأطرد طيف أبي اللزج الملحاح الذي راح إلى فلسطين ولم يرجع، يا سلام!! تغيب كل هذه السنين، ثم تأتي لتغص عليّ طموحاتي المهنية المشروعة!

ظننت أن اسمي سيكون أول الأسماء المقترحة، كوني بُعثت سابقاً إلى تغطية مناسبات مهمة، خاب ظني باختيار الرفيق "سحلية"، هذا اختيار لئيم، وليس ذكياً بالمرّة، ماذا سيكون لون "سحلية" هناك؟ حيث البحر أزرق والرمل أصفر والبشر ما بين أسود إلى حنطي إلى أحمر (زرّ البندورة)، كيف يمكن لـ "سحلية" أن يثبت على حال؟ سيفضحنا ويكشف وجهنا، ولكنهم فضّلوه عليّ، رغم استعدادي للامتثال لشروط الصحفي الجيد المطلوبة، أن أكون بلخلاص ماءً قراحاً، لا لون ولا طعم ولا رائحة، لعلّي لم أصل إلى الحدّ المطلوب من انعدام اللون وغياب الرائحة، لعل شراري يشرقط في عيني وكلماتي الحمقاء تخرج من دون استدعاء، لعلهم اكتشفوا خبث أفكارهم وحول هذا العالم المحيط، أغضبني استئناؤهم لمواهب الإعلامية، وبدأت عينايتي تتحركان في رأسي مثل رادار يرصد ما من شأنه تشويه الإنجاز، انتقاماً لنفسني، بحثت عمّا يسليني ويعزّيني عن عدم تكليفي بمهمة تغطية خبر مثل هذا، وسخرت من دروس النضج الإنساني التي أسمعتها لـ "حسن" حول قبول الناس والتعاطف مع الاختلاف.

كُلفت بإعداد تقرير أرشيفي صبيحة انعقاد المؤتمر في شرم الشيخ، أما تقريري فكان حول ذكرى رحيل الشريف حسين الثانية والسبعين، ياااه، منذ اثنين وسبعين عاماً رُجّل الرجل إلى المنفى،

لعله غالى في رفض الوطن القومي لليهود! شعرت يوم ذكراه أنه ما يزال في المنفى، خاصة أن الملوك والرؤساء جرأوا على الاجتماع في غيابه مستغلين موته. خلع زملاؤنا الصحفيون أحذيتهم كأنهم يهيمون بدخول المسجد النبوي في يثرب امتثالاً لإجراءات أمنية وما شابه، لن يرغمني أحد على الانحناء وخلق حذائي، أحب أن أخلعه لأتحسس حرارة الأشياء، وربما لاستخدامه مصفعة إذا لزم الأمر، غضبي صار واضحاً، و هؤلاء الزملاء الصحفيون الذين عوّنا عليهم، وأرسلوا إلى "شرم الشيخ" لا يقومون بواجبهم كما يجب، فمعظم الصور القادمة من هناك التقطها مصوِّرو وكالات الأنباء الأجنبية.

تعمدت أن أعلّق على هذا الأمر بالقول إنهم "يلبّطون" في الشواطئ الراقية بدلاً من إرسال الأخبار إلى الصحيفة، لم يعزّ أحد كلماتي أيّ انتباه، ربما حُسبت على خانة التشقيّ الحاسد، ضحّخت الأجهزة المتطورة رصيماً ضحماً من الصور للمؤتمر التاريخي، بالمناسبة كل المؤتمرات تاريخية، كانت محطة فضائية لبنانية تلفظ اسم "شرم الشيخ" بطريقة معيبة، أما أنا فقد مضيت أقرأ الصور بعين شريفة.

في صورة لعناق الرؤساء، انثنى "مبارك" في حضن "بوش"، قدّرت في الماضي أن "مبارك" أطول قامته! بدا قصيراً لحيماً وهو ينحشر مثل قط وديع في طرف جاكيت "بوش"، الأجسام تشي بماكل الطفولة، حيث لا يمكن مقارنة فعل "الكشري" بسندويشات "الهمبرغر"، ولا عصارة الفول بالحليب البقري الغني، كما لا يمكن مقارنة لعبة "الاستغماية" اللطيفة الوداعة ب"البيسبول" العنيفة. يمكن أن تحزر من تركيب الجسد ما مرّ به من تاريخ المطبخ والملعب.

صورة أخرى لـ"بشبوشة" الطيّب يقود عربة الجولف (كأنها العالم)، ويركب بصحبته الأمير "عبد الله بن عبد العزيز" (يا حسرتي عليه)، سيصير ملكاً وقد مضى قطار العمر يا ولدي، تماماً مثل الأمير الإنجليزي الذي تقربطُ أمه بأسنانها وأظافرها بحكم ما كان إمبراطورية لا تغيب الشمس عنها، حالفها بقذالها ألا تمنحه فرصة الجلوس على العرش إلا شيخاً في أرذل العمر، لكن بالطبع لن ينسى طويل العمر ولي العهد العربي أنه ركب ولعب في عربة الجولف بقيادة "بوش"، هذا إنجاز يُحسب له. في الصورة نفسها يصاحبهما الضاحك الراق اللذيذ "مثل السفن أب"، "حسني مبارك"، إنها عربة قيادة العالم العربي بجدارة.



منطقة الشرق الأوسط، قبرث اليوم ذكرى والدي إلى الأبد، والكل مبسوط وضاحك، وفي شريط أحمر يتحرك متعجلاً أسفل شاشة محطة "الجزيرة" التلفزيونية خبر مفاده: "القوات الإسرائيلية تدخل جنين".

لا تأخذوا الترهات السائلة من عقلي أو فمي على محمل الجدّ، إنها مجرد غضب دفين وشخصي أعبرّ فيه عن احتجاجي لاستثنائي اللئيم من تغطية هذا الحدث التاريخي المهم، كأني مبعده من صرّوخ العالم، كأني بلا بصمة، الشعب أيضاً غاضب لتجاهله في هذا الاحتفال، خاصة وأن معظمنا يشتهي زيارة "شرم الشيخ"، ويتابع بحماسة الإعلانات عن الشواطئ الذهبية والشاليهات الفاخرة والرقص الشرقي، نلهم برؤية العاريات الكاسيات على شاطئ البحر الأحمر، تداعب إعلانات الأسعار السياحية المخفضة خيالنا كل يوم، ثم هكذا ببساطة تُمّع من الحضور! للشعب طرق عبقرية في لفت الانتباه وتحويل الأنظار والاحتجاج على استثنائنا من المهرجان البديع الذي بُثت الحلقة الثانية منه من العقبة، لهذا السبب دون سواه وقع الحادث المروع في قلب عمّان عند سقف السيل، حيث مكاني المفضّل للتأمل في حكاية المدينة. رن هاتف المكتب بإلحاح، أخبرني زميلة تعمل في مركز الحسين الثقافي عن كارثة حدثت في الطريق المنحدرة من جبل عمّان إلى رأس العين، وقفّت متحمسة معلنة أن هذا الخبر لي، ضحك مدير التحرير مستهيناً:

- مندوب الحوادث انطلق قبلك، لا داعي للذهاب.

لكن الحادث مروع.. يحتاج إلى أكثر من صحفي لتغطيته.

لن أترك أحداً يملي عليّ ماذا أفعل، حرموني مرافقة القادة والتفرج على مسرحيتهم، ولن يمنعني أحد من مشاهدة مسرحية الشعب. حرصت على أخذ كاميرتي الصغيرة لأن قسم التصوير رفض تزويدي بكاميرا للمحترفين، ورحت أدوس بقوة على دؤاسة البنزين لحوقاً بالأنفاق والجسور التي تقطع أوصال عمّان وتعيد ربطها من جديد، والتي قادتني من شارع الصحافة أو الجامعة سابقاً (شارع الملكة رانيا حالياً)، إلى الشارع الذي يشق جبل عمّان وصولاً إلى نفق يذلف قاع المدينة، صوت المغني الشعبي "حكيم" يصدر مخشخشاً من الإذاعة "نار نار.. نار.. أنا قلبي قايد نار". عليّ أن أصل.. ولم أصل.. علقث عند الدوار الثالث، فلم أتمكن من رصد الحادث، لكني رأيت

آثار الرعب في الوجوه، لماذا هذا الحزن؟ كل ما تلمسه النار يرتقي ولا يمحي بتاتاً، لماذا العبوس الأردني على كل صغيرة وكبيرة؟ هذه الوجوه المكفهرة المرعوبة العامرة بالأسى أفسدت فرحة المجتمعين المحتفلين في العقبة وعكّرت دماءهم، طبعاً ليس كل المجتمعين، فما أظن "بشبوشة" مستعداً للتخلّي عن ابتهاجه من أجل حفنة مواطنين أردنيين احترقوا على نزلة رأس العين... حتى لو كان السبب المباشر انفلات صهريج المحروقات من نوع "أم كي" أميركي الصنع، واندلاع النفط العربي فوق الإسفلت وانفجار عدد من السيارات وتفحم البشر أشلاءً وأجساداً متكاملة، فسائق الصهريج "منا وفينا"، وقد أتاحت له الفرصة كاملة للقفز من الصهريج المتهوّر، وفعل ما استطاع بصراخه البليغ " ... بنزين.. بنزين.. ". كتب محرر الحوادث الخبر ودعّمه بالصور، لم يتسنّ لي أن أضيف حرفاً إلى مقاله، صار للعَمّانيين حكاية محلية يفتنون بها نهار الغدّ، وصار للشعب مؤتمره الذي أنجزه على نار حامية، أما أنا فقد رحلت أحمق في شاشة التلفزيون المفتوحة في صالة التحرير بغيظ كأن بعوضة تقف على أرنبة أنفي، هناك نبأ عن مظاهرات في

"إسرائيل" تحتجّ على اجتماعات "شرم الشيخ" والعقبة.. يا سلام! من يحتجّ على ماذا!

ألمح في مظاهرة الاحتجاج الإسرائيلية لافتة مرفوعة ومخطوطة باللغة الإنجليزية، تمر اللافتة مروراً سريعاً على الشاشة معلنة شعاراً عبقرياً "الاردن هو فلسطين"، ويا سلام دق أجراسك، ويا تراتيل دندني، وساعدنا لرهائل كالمخاذيب وأتباع الطرق الصوفية.

أما الذين نفقوا في رأس العين حرقاً فقد أزعجوني.. خرّبوا عليّ فرحتي بقمة البحر الأحمر. حيث الماء أزرق صافٍ وراء الرؤساء.. نزعوا فرحتي بالدولة اليهودية الحيوية، والدويلة الفلسطينية منزوعة السلاح، أربكوا مسيرتي على خرّيجة الطريق.. وقته! أهذا وقت مثل هذه المغامرات الحمقاء! للشعوب طرائق وبدائل لا تُطاق، خبرة في تنغيص الأفرح، وإنبات الشوك على أعواد الورد. عندما جلست في حجرتي.. تربعت.. فخدائي تحتي، وقدمائي متقاطعتان، ارتخى كضلّبي... آه آه آه ه ه ه ه آه..

شكراً للذين تفحمت أجسادهم في سيارات التويوتا والشكودا والادا العتيقة.. من مكاني البعيد المنقطع عنهم، شمت رائحة شواء لحومهم الحية مثل زنج الشواية العمومية المنصوبة في شارع سياحي تُقلب دجاجات ميتة على أسياخها، شكراً.. لعشرة أو (قيل) أحد عشر أو اثني عشر

(تضاربت الأرقام) .. لقد منحوني سبباً مباشراً وجيهاً.. خنجراً صريحاً، أظعن فيه قلبي ويبرر صراخي عالياً... آآي ههه.. أجوح , أتنحج... آآه.. "حسن"... لا تلمسني.. لا تواسيني.. أريد أن أبكي حتى تنتهه الروح ويغتسل القلب تماماً.. ابكٍ معي.. سنفيق بعدها.. ابكٍ بشدة.. ابكٍ.. آهآه.. آآآه.. ابكٍ.. عيب أن تجفّ الدموع.

احتضني "حسن" بهدوء، غمرني تماماً، تمايل الوجع بين ذراعيه وتقدمت السكينة، مسحة رحمانية ترطبّ القلوب.. شكراً لهؤلاء الذين ماتوا حرقاً، فمكّنوني من البكاء الفاجع المفجع... فأنا لم أبكٍ عندما ضاع أبي، ولا عندما اجتاح الجيش الإسرائيلي جنين.. ولم أبكٍ وبغداد تتهاوى كصرح كرتوني وتسقط كعصفور أصابه قنّاص.. لم أبكٍ وهم يجرمونني من "شرم الشيخ" والعقبة... سأبكي على ضحايا رأس العين... على شهداء رأس العين.. سأنسب كلاً منهم إلى خريجة دمي، وسأدعي أن الرجال كانوا عشاقني، والنساء كنّ أمهاتي، والأطفال أبناء رحمي، سأبكي حتى تتورم عيناوي ويتشقق حلقي، وأهدّ في نوم كأنه الموت.

\*\*\*

صحوت على زقزقة عصفور قادمة من منور البيت، حتى العصافير تفتقر إلى الذوق أحياناً، فستبدل بوحابة البساتين وأعالي الأشجار رطوبة خرابات البيوت التي تبخر عنفاً . تبعت الزقزقة الصريحة شقشقة مشوشة خافتة وطريفة، يبدو أن السيدة عصفورة أقامت عشها في المنور الذي تلتفت حوله حمامات البيوت، فركت عيني وقلت: "ما أحلى الصباح، ما بئلل العصافير تزقزق في أحلك الظروف"، صفق "حسن" هاتفاً:

- برافو، تتقدمين..

- لا تستخدم تعبيرات رئيس التحري.

- قصدت أنك مثل العصافير، تزقزق في أحلك الظروف.

- صباحك عسل.

مررت بجدي مرفصاً في الصالة مسنداً ظهره إلى الحائط ومدلياً رأسه على صدره، ربما بفعل الثقل الذي يخلفه الفراغ في رأس محيي الذاكرة، ما الذي جاء به من القبو هذا الصباح؟ لم أسأل ولم ألق تحية الصباح، ما جدوى ودّ لا يصل؟



دفع عمي باب البيت منكوش الرأس بصورة لافتة، من أين عاد؟ وما الذي أخرجه في هذا الوقت المبكر من صباح الجمعة؟ لا أظنه مصاباً بحمى أداء الصلاة حاضرة، افتعلت تثاراً طويلاً كي لا يتوقع مني عبارات مجاملة على الريق، ولعل شعري المنكوش وقميص النوم البيج القديم وشبشي المقطوع أثارت حنقه، فصاح:

- كل هذا نوم!

- نوم.. ما المانع، ماذا يفعل الصحو؟

- المرهولدت وجنايبك نائمة.. يعني ما صحيت على حسنها وطلعتنا عالمستشفى؟ أمرك غريب! رأسي أثقل من رأس جدّي، ولساني ناشف، لم يحنقه مظهري إذاً، "مره ولدت!" من وكيف ومتى وأين؟ أسئلة مؤجلة ريثما أغسل وجهي. وجه عمي أصفر، وعيناه متسعتان رعباً أو غيظاً. لم أدقق كثيراً، ولكن خيّل إليّ أنه يرتحف، لماذا يتحول الرجل إلى مسخرة إذا ما صار أباً؟ دفعت باب الحمام بقدمي ولم أعاد إغلاقه، وقفت أمام المغسلة حيث المرأة متسخة ومقشرة وتعكس غباشاً طفيفاً، نسيت أن أقول: "مبروك"، أكثرت من المعجون على فرشاتي، وفركت أسناني بروية، راقب عمي ما لاح من جسدي عبر الباب المفتوح لثوانٍ، ثم سمعت باب البيت يصفق وراءه بقوة، يبدو أنه انصرف غاضباً من ردة فعلي الباهتة. تصرفت بلؤم غريب لم أقصده. هكذا حدث. فيما بعد سأمنح الفرصة لإبراز فرحي وبهجتي لمجيء وليّ العهد الذي مضى عمر طويل بانتظاره، لم أسأله "ولد أم بنت!" بالغت في برودي، واكتشفت أني من دون وعي لقيمة أرشح حقداً وخسة. وخزات الضمير الحي هذه لم تدفع بي للحاق بالعمّ الفرحان بخلفه الصالح لتقبيله ومجاملته، قدّرت أنه عائد إلى "فتحية" في "مستشفى الأشرفية"، قطعاً ستلد هناك، ولكني لم أتبعه، بل قدت سيارتي باتجاه المكتب، يمكنني أن أكون أكثر ودّاً عند انتصاف النهار. يا سلام، الآن صارت لي أوقات للمزاج الطيب، وأخرى للمزاج العكر، ولكني أدافع عن براءتي، فمزاجي كان رائقاً عندما أيقظني عصفور المنور، وتعكر عندما صرخ عمّي "كل هذا نوم!".

قلبت الصحف، كالعادة يعلق شحار حبر الطباعة في أطراف الأصابع، إنهم يسممون الشعب بطريقة بطيئة وطويلة الأمد باستعمال أصباغ تمتصها أناملنا ويشربها الدم يوماً بعد يوم، أما الأخبار فحدّثت ولا حرج، ليس هناك أية ظواهر خارقة ترحب بآبن العمّ الجديد، لا فيضانات

ولا زلازل، لم يخسف القمر ولم تكسف الشمس، كل شيء عادي، خبر عن انتخابات رابطة الكتاب اليوم، هذه مهمتي، خبر عن حفنة قتلى في غزة (كنا نسميهم شهداء)، وصورة لجندي أميركي يقبض على "حرامي" عراقي في بغداد! معقول حرامي عراقي في بغداد! أين تتوقعونه إذا؟ طبعاً في بغداد، وليس في واشنطن، المهم أين يمكن القبض على الحرامي الأميركي! هذه هي أخبار الدنيا، كل شيء معقول، كل شيء عادي، لماذا إذاً يتوقع عمي أن أقفز مثل المجانين وأبدي جزعي وأتراكض معه في ردهات المستشفى العتيقة وسط حشود المغضوب عليهم من المرضى؟ من الأفضل تناسي أمر الطفل الجديد . أيّ صوب مجمع النقابات حيث تجري انتخابات الهيئة الإدارية لرابطة الكتاب، يمكنني أن أتصرف بخلق كينات لأصول، فلأعرج على الجواهرجي لأشتري بنصف راتبي ذهبية صغيرة نُقشت عليها آية الكرسي علّها تقي الصغير الذي انضمّ إلى الحياة مؤخراً شرّ الحسد، وتحفظه من كل هذا البلاء المحيط، أم يجب أن أنتظر ريثما أتأكد من جنس المولود. قد أحضر خرزة زرقاء كفلّ لدرء الحسد ومعاقبة العيون الشريرة.

أشار أحدهم نحوي عند بوابة مجمع النقابات حيث تجري انتخابات رابطة الكتاب ينصحنى بعدم الدخول، سبقت سيارتي فهمي، صرّ في منتصف المدخل ورأيت الموقف يفيض بكل صنوف السيارات، لم أتمكن من الرجوع إلى الخلف، إذ تبعتني سيارة أخرى، هؤلاء الكتاب وكل من فيهم على حال من العوز لا يُحمد عليه، لماذا لا يتفقون ويحضرون بالباص منعاً للازدحام، لم يخف عليّ وجود سيارات فارهة، هناك مرسيديس شبح، وهناك "نمر" حكومية، وهناك "فوكس" الصفراء التي استطاعت ببراءة أن تندسّ في فسحة مثلثة بين سيارتين، الوجوه مألوفة لفرط ما نراه على صفحات الصحف وشاشة التلفاز، هؤلاء ضمير الشعب، هكذا يروّج للمبدعين، الشعراء والقصاصين وكتّاب الخواطر، هناك أشخاص يفجعني وجودهم ، إذ لم أدرك أنهم من الكتاب قبل رؤية طلعتهم البهية في هذه المناسبة المهمة ، كثير من التقبيل عند الباب الداخلي، وشيء من التهذيب يميز المرشحين في هذه الانتخابات . لا أثر للمناسف التي تلازم الانتخابات النيابية، مجرد مفكرين وأدباء يجتمعون اليوم ليمارسوا حقهم بديمقراطية، تنشق الأرض عن "عبد الباري"، صار ورائي تماماً، قال لي: "يا أحلى صباح".

صباح الزفت، ودمتم سيدي، أهرب إلى زاوية أخرى من الممرات المتقاطعة، أسمع كاتباً محدثاً

يجمال أديباً مخضرمًا، ثم لسبب غامض أرى كذباً يتكدّس في النظرات و يورق في العيون فجلاً وبطيخاً أقرع، كذب كثير يتساقط من جيوب المجتمعين ملحاً، ألم يقولوا الكذب ملح الرجال! هناك أيضاً كثير من الذكاء الذي يحوّل معظمهم لإدراك أن التحايا والمجاملات التي تصل حدّ التقديس والتمجيد ما هي إلا تأدية واجب، أو ربما محاولات لجمعة الأصوات الانتخابية، أشعر بالغرابة إلى الحدّ الذي قد يدفعني للوقوف حيث "عبد الباري" يقف، لكن قميصه الأصفر صفرة معموسة ومبقة يقرّني. إذا استمر أمام ناظري خمس دقائق زيادة سيدفعني لإرجاع سيارتي إلى الميكانيكي المغازل كي يصبغها بشحار أسود انتقاماً منه حسب . أتذكر الهدف المهني من وجودي في هذا التجمع، فقوم بإجراء مقابلات سريعة مقتضبة معتمدة على سؤال واحد: "ماذا تريدون من الهيئة الإدارية الجديدة؟". أقسم أن الإجابات فحّ عالمي مريع، كل امرئ يريد أمراً مختلفاً على هواه، هناك صحفي آخر ينافسني بصورة مزعجة، ينتقل بين المجتمعين بسرعة مثل كرة بيضاء زلقة على طاولة تنس، يعرفهم واحداً واحداً ويخاطبهم بأسمائهم وهذا امتياز له، ثم إنه يقلّدي فيسأل سؤالاً واحداً فقط، الملعون، فكّرت أنه أظرف من فكّرتي، يسأل:

- ماذا يحدث لو أن كارثة وقعت هذه اللحظة في هذا المكان، ومات كل أدباء الأردن؟  
يا للمجنون، الله يكسره ولا يكسبه، يفكّر بحرمان الأمة من ضميرها، يفكّر بهدم القلعة الأخيرة والحصن المنيع، أتلتصص على الإجابات بفضول، هؤلاء المبدع ون "دمهم خفيف" ، بعضهم يجيب عن سؤال الزميل الذكي بعبارة "أحسن"، بعض هم يراهن على ظهور من هم أفضل، بعضهم يخاف على ضياع قضية فلسطين، غريب! لم أسمع يوماً عن وقف وعسكر الأدباء على الحدود، سمعت عن مطّبعين وخلافه، لا أريد أن أكون شريرة إلى هذا الحدّ، هناك من نخبهم، وهناك من يستحقون الكارثة التي ابتدعها خيالي المشاغب، يمكنني فرزهم بإحضار باص إلى موقف السيارات، بالطبع لا بدّ من التذاكر لركوبه، سأتولى بنفسني أمر دفتر التذاكر، وأناذي على أسماء من أرشّحهم لصعود الباص، وأيّ باص! هذا الذي سأتمنى من كل قلبي أن يغادر مجمع النقابات إلى الأبد سالكاً أقصر الطرق إلى أعلى نقطة في جبال عجلون، وعند المنحدر تغلت مكابحه، هكذا، بفعل التميّ، ليتدحرج متدهوراً حتى أخفض بقعة عند البحر الميت، سأنادي الشقراء السمراء، شعرها أصفر وبشرتها "غورانية" وقصائدها سريرية: "اركبي فليس فيما

تخطّين من كلمات مبهمة أيّ ة جدوى"، سأنادي الجليل الذي خطّ الشيب فوديه وما يزال يتدرب في دفتر الخطّ للصف الأول، سأنادي المبدع الذي يتحفنا بروايات جميلة للغاية، لكنه لا يستنظف إلقاء السلام على خلق الله، سأنادي الصبية المدعورة التي تتخيل كل مجاملة أو ابتسامة عابرة دعوة إلى ليلة حمراء، سأنادي صاحب المسطرة الذي يقيس المبدعين بالفرجار والملحيتات، طبعاً أنا لي مقاييسي، وقد لا تعجب أحداً، فليدعوني إلى باصهم، ولكني سأنادي وأنادي ولو بـح صوتي، لن أنسى "عبد الباري" .. وداعاً أيها المتحذلق الذرب، يمكن لـ"عبد الباري" أن يقود الباص بنفسه كتكريم أخير للشخصية المعرفية الخطيرة التي يمثلها، فيضغط بكل عزمه وقوة عضلات قدميه على دواسة البنزين، ليطيّر الباص مع الأمنيات إلى حتفه الأخير حيث ينعجن حديداً ولحماً ونفايات كلام فوق صخور مسنّنة صلبة تجود بها بطاح ووديان عجّلون . استغرقتني تنظيم الباص وقائمة المدعويين ممن لا أرغب في وج ودهم على هذه البسيطة مطوّلاً حتى فاتتني العملية الانتخابية، واضطرت للاستفسار من منافسي الصحفي الذكي عن النتائج . دونت ما انتهت إليه إرادتهم الحرة المستنيرة من اختيارات وغادرت الجتمع على عجل، لم أبال بهذا التردّي المهني الذي استفحل، يبدو أنني تعودت الطيران عند المهام الجسام، واستعارة التقارير من الزملاء من دون أدنى تأنيب للضمير أو شعور بالخجل . يا رب ساعني على أمنيات الباص المتدهور وترفق برعبهم وهو يتطايرون من الشبايبك المفتوحة، وساعدني على كتابة الخبر من دون أخطاء، وأبعد عني عينيّ سكرتير التحرير، وامنحني بركة وجود "كعب الكباية" في المكتب هذا العصر، ليرمم ما في مقالي من مثالب، فأتمكن من العودة مبكراً إلى "الأشرفية" . لا بد أن تشريف ابن عمي الصغير إلى العالم هذا الصباح أفسد عليّ مجمل هنائي، هزني بصورة ما، أبرز ما تخفيه نفسي من ضغائن، ربما حولني إلى مشروع ساحرة شريرة تركز جلّ آمالها لإهلاك الآخرين، ولكني قاومت ببسالة، لتتقدم نفسي الطيبة الوداعة وتسيطر على الموقف، جبتُ جبل الحسين بحثاً عن محل لبيع الذهب لشراء هدية للمولود، اليوم جمعة والبشر في إجازة، إلا المطاعم والكتاب القادمين جحافل لتغيير العالم، كل مشاريع البشر يمكنها أن تأخذ إجازة إلا رياضة البطون، قدتُ حتى الشميساني وابتعت كيلو بقلادة مصففة قطعاً صغيرةً في صحن من الورق المقوى من مطعم "جبري" الرابض عند الزاوية، وعدت إلى المنزل.

تبتقع حمرة الشمس كتف "الأشرفية" فوق الشرفات والأسطح المائية وقطع الغسيل المنشورة التي يعبث بها هواء ثقيل، وأنا أصعد بصفرائي الحنفساء الهبوط الحاد للشارع، تنتنح السيارة مرات وتصدر حشرجة كأنها تموت، لكنها تواصل الصعود، لم أعد الأشجار والمستطيلات البيضاء والصفراء في رصيف المشاة الضيق الذي بالكاد يتسع لماشٍ فرد، هناك هويات كثيرة دثرتها قيادتي السيارة، أحاول الهروب من الحزن الشفيف الذي يوقعه في فؤادي الغروب الأنيق فوق بيوت صغيرة فقيرة، ليتني ألتق ي عند الباب ب "موفق" مثلاً، فثرت في حديث فارغ حول رحلته إلى الخليج، فقط لأنسى حزني، وكى لا أثقل قلب "حسن" بالكثيبة التي تصعد الدرج جرّاً هذا المساء، وجدتُ جدّي متكئاً على خشب الباب يكاد يميد، ازددت حزناً، نظر نحوي كأنه أذكى الرجال، لعله كذلك، ما دام نظيف الدماغ والقلب، أمسكت برفق ذراع، وفاض التعاطف في نبرات صوتي:

- بتحبّ تطلع معي فوق والّا تدخل أوضتك؟

عنيت القبو الذي يقطنه، كم أنا فاسدة بموافقتي على أن يقطن العجوز قبواً معتماً، ولكنه لا يحتجّ، يبدو هائناً ويواصل تأمل حركة الشارع وكأنه لم يسمعني، يعبر بعض المارة يلتفتون نحونا بفضول، أقدّر أنه لا يجب مغادرة موقعه تلك اللحظة فلتركه عند الباب، فيما بعد سأعود له بقليل من بقلّاة "جبري"، أصعد الدرج متناقلة، ويدهشني أن عمّي في الصالة الصغيرة يجلس في العتمة، الملح طيفه فوق الأريكة ولا أسمع أنفاسه التي عادة ما تكون عالية، ماذا لو أنه يتمدد ميتاً! ضغطت مفتاح الضوء، فقفز من الأريكة كأنه فوجئ، عيناه منفتح للث، قلت:

- عدت! كيف خالّة "فتحية"؟

صمت وصمت، انعدم الهواء في الصالة، بلغت ريقى هامسة:

- مبروك.. ولد ولاّ برت؟

ودّ متأخر وباهت، وضعت البقلّاة على الطاولة الواطئة، وأنا أسمع صوته خلفي:

- ولد.. "فتحية" والبيبي جوّه.

لا أبدي دهشتي من خروجها المبكر من المستشفى، عمّي يحسب التكليف بدقة، ولن يسمح للمولود الجديد بتبديد جهده بيومه ببساطة، الآن عليّ أن أدعيّ أني أكثر حماساً ومرحاً، عبق ريح

فاسد في الهواء لحظة هتفت بطريقة مسرحية.. "ياي". تجلس في سريرها كأنها تنتظري، تحتضن  
بطانية ناعمة ملفوفة بعناية حول كتلة ما، اندفعت نحوها.. "ياي"... شغلت شفتي بالتقبيل  
المتكرر، بالغت قليلاً، عشرات القبلات فوق وجنتيها وصمتها، إلى أن تمكنت من الهمس مجدداً:  
- مبروك..

صمتنا، وواصلت تأنيب مشاعري اللئيمة، قبل أن أميل نحوها بصورة منافقة وأنا أبتسم:  
- أشوفه.

كشفت الغطاء عن كتلة اللحم الغافية والمحاطة بوداعة البراءة، مشروع إنسان طري أحمر مزرّق  
يرقد بين ذراعيها، يزداد هواء الحجرة عفونة برائحة هذه الكتلة المدماة، ماج قلبي نفوراً وشفقة،  
ولكني همست بأثر ودّ خفي:  
- بجنّ.. ما أحلاه... شبهك.. ياي.. بجنّ..

هزت رأسها، بدت متعبة، هممت كأنها تشكرني، انسحب الهواء من الحجرة تماماً، أكاد أختنق  
وقلبي مثقل، حسناً، لا يحقّ لي أن أقبع هنا شاعرة بلغيظ والغيرة، هل هي الغيرة حقاً؟ عليّ أن  
أتقدم في زجر نفسي الأمانة بالسوء، أفعل ذلك بقرار سريع، أنجح جزئياً:  
- شو سٲوه؟

تهمس متعبة كأنها في مسرحية "الأم":  
- "شعبان".

- بجنّ..

كل شيء يقود للجنون، من هؤلاء المعتوه ون؟ "شعبان بن رمضان"! هل انقطعت الأسماء عن  
وجه البسيطة؟

بدأت أستعيد طبيعتي، سألتها عن صحتها، والولادة، الأسئلة المعتادة في هذه الحالة، استفسرت  
عمّا إذا كانت ترغب بتناول شيء من الطعام، وأخبرتني أن "أم صبحي" (يكثّر خيرها) ستعد لها  
الشورية وكبدة مشويّ.

"أم صبحي"، يكثّر خيرها، قامت بمهام كثيرة خلال الأيام التي تلت الولادة، تابعت باهتمام  
صحة زوجة عمّي وأعفتني من افتعال الطيبة اللازمة، كما طبخت حلوى الكراوي هوأعدت صرر

الملبّس والشوك ولاته الملقوفة بالدانتيل الأزرق ليوم مباركة الجارات، قامت بواجباتي المفترضة بوصفي بنت البيت، شعرتُ بالحرج من الفدائية الطيبة "أم صبحي"، جاملتها وهي تصبّ الكراويج في الصحن وأنا أزيّنها بالزيبب والصنوبر:

- شو أخبار "وداد"؟ إن شاء الله مبسوطة بالعقبة؟

تنهدت بأسى:

- اللي ما إله حظّ لا يتعب ولا يشقى، خلصت من شغلها، طردوها من قيمة أسبوع، ورجعت، وهيها بلا شغل..

- يا حرام..

أبدت أسفي مستاءة من انزلاقي في مجاملات بلهاء ستفتح باب التنهد والتشكي والمواساة بيني وبين "أم صبحي"، ستع تقد أنها صاحبتني وتأخذ بالثرثرة، تركتها من دون تبرير وعدت إلى حجرتي، برنديتي، تصلني قهقهات الزائرات مختلطة من صالون البيت الضيق كأنها جعار جِراء مسعورة بهجة وفرحاً، بينما صمتُ كامل يأتي عبر الجدار الفاصل بيني وبين الجارة العجوز، نمت بين ذراعيّ "حسن" وتنهدت بعمق، مرر كفه على شعري، كلما توغلت أنامله في خصلات شعري أكثر، تساقطت الغيرة والقهر، لم نتحدث ولكنه راح ينقل راحته بين شعري ووجنتي في سفر هادئ حنون، وأنصتنا معاً إلى انبعاث مفاجئ لهمهمة الجارة عبر الجدار، لم تضحك هذا اليوم ولم تغنّ، هي أيضاً حزينة، أو مريضة! قلت لـ "حسن": "ذكّرني نوّدي للختيارة صحن كراويج".

شدّ "حسن" خصلة من شعري بقسوة متعمدة، نظر في عيني، وقال:

- صاحبة واجب! لأ.. مش عاجبني صوتك.. هذا مش صوت "نارة".. مش عينيها.. مش "نارة".. ابتسامة للنبي.. أرجوك.. مشاني..

ابتسمت من قلبي على تعب، ساعدني "حسن" على تجاوز الأزمة، ناكدي بتحريضي على الزواج من أي رجل يتقدم لي، يا أهبل لم يتقدم أحد كأني مشطوبة من صحيفة النساء، اقترح عليّ إغواء أيّ رجل يعجبني فأتلخص من رفقة العمّ "رمضان" وولده "شعبان" الجديد، أمرّ ارتباطي بزواج على سطح الأرض ليس وارداً، على الأقل في المنظور القريب، حتى لو تم خض عن الأمر

إنجابي لأبنائي الخاصين، قلت ضاحكة:

- وين بلاقي شبهك! بدك أرضى بالهمّ مشان الخلفه، وبعدين ليش بدني أخلف؟ للهّم والنكد!  
وشو وراي أورثه لابن الكلب المنتظر؟ شقفة سيارة فولكس مكنكة، ولسته ما خلصت  
أقساطها، يعني، خلّي "شعبان" يشبع بالدنيا والبيت، ما في إشي ينحسد عليه، الله يعينه على  
هالعلم.

تجاهلت أزمتي بحيث صرت أجتاز حجرتي وأسمع بكاء الرضيع "شعبان" ولا أكلف خاطري المرور  
في حجرة زوجة العمّ، دائماً مستعجلة وكأنّ الريح تحتي، أعمال كثيرة تنتظري في عرض البلاد  
وطولها.

تزعجني المهنئات يصعدن درج البيت مصطحبات طناجر الطبخ أو صغاره ن الأوغاد، تزعجني  
كثرة الهدايا التي أحضرتها "وداد" في حقيبة سفر كبيرة، البلهاء تفضح هديتي المتواضعة بسخائها،  
لم تلائمها الغربية في "العقبة" ثغرا لأردن الباسم، وجهها شاحب، وعينها حزینتان استقرتا في  
قعر وجهها، جسدها منحني وكأنها تلقت طعنة للتوّ، لا أريد أن أصف معظم الزائرات بهذه  
الروح العدائية حتى لا أتحمّل أمام نفسي وزر الكراهية الجماعية التي لا مبرر لها، ولإمكاني أيضاً  
أن أروّض فجاجة روعي بشراء هدية للمولود، ابتعث آية الكرسي فيما بعد، ولكنها ضاعت  
وسط الكراويش المتعددة التي شُبكت بدبوس كبير على قماط المولود، أفهم أن يحتفل الحي  
الطيب ب"فتحية" وفرحتها بعد عقم امتدّ أعواماً، ولكني لا أطيق احتشاد المهنئات في المساحة  
الضيقة وصوت حذاء "وداد" يقطع فوق أدراج البيت من دون ميعاد نهاراً ومساءً لتطمئن على  
الوالدة والمولود، يخرجني اهتمامها البالغ مقارنةً ببرودي، لماذا يحاول الجميع إشعاري أني شريرة لا  
تُقيم وزناً لصلة الرحم في مجتمع طيب متكافل نموذجي!

أكرههم، أتمنى لوهلة لو ألحق جيرانني وأهلي بباص رابطة الكتاب ، سأسمح لهم بالركوب المجاني  
تقديراً لأوضاعهم الاقتصادية، يمكن أن "يتشعلقوا" على سلّم الصعود أو يستقروا تحت المقاعد  
المهترئة إذا لم تتسع الساحة . غيرت رأبي، لا أريد مقاعد مهترئة، لتكن جلدية فاخرة، وليكن  
هناك تبريد يعمل بجدارة في سقف الباص، لنقل إن هذه طيبة مني تشبه طيبة من يسألون مقتاداً  
إلى الإعدام عن أمنيته الأخيرة.



يقول "أمرك سيدي":

- خير؟ بالك مشغول!

- أنا..! أبداً.. لا بالي مشغول ولا على بالي.

- مش شايفة "الأزعرينا" اللي عاملها صاحبنا؟

يقصد "سحلية". هل خلصت من جيراني لألتفت إلى "سحلية"! ماذا يفعل هذه الأيام؟ ربما ككل الأيام، يتقافز من مكتب إلى آخر، يديق مسامير علاقاته مع المهمين والمؤثرين، يُلقي بقشور الموز في درب زملاؤه، لا جديد، لا مثير، حتى لو كان السيد "سحلية" يتعلم المشي ببراعة على الحبال أسوة بلاعبي "القلا قلا" و السياسيين القادرين على التوازن على برزخ بين الأحزاب والحكومة، بين القطّ وحنّاقه، بين الشعب وحقّامه، بين الأبيض والأسود، و لإحقاق العدالة أقول إنه من المرعب أن نظن أن في الحياة لونيّن حسب، تعدد الألوان يكسبها ثراها وبهائها، لهذا ربما أحب قرّح، وأحب السياسيين، أراجوزات بوجوه بيضاء، وأنوف حمراء، و محدود مثل الورد.. لن أنسى الطراير البهيجة على الرؤوس الراقصة الطروبة، سياسيو آخر زمان، وأول زمان بالتأكيد، لا يمكن للسياسي أن يكون شيئاً آخر، ماذا يضيرني لو أن "سحلية" تحول إلى رجل مهتمّ بالسياسة؟ أو فدائياً ينبطح فجأة في طريق باص الرابطة لتدوسه العجلات وتسحنه عجيئةً تنضج رغيفاً بفعل حرارة إسفلت الشارع. إ نقاذي من نفسي الشريرة وهي تنامى مثيراً غضب "حسن" وخوفه عليّ، مشكلة تم حلها على يد البرلمان.

أراقب لعبة الكراسي، وأعتقد أن من حقّي الفوز بكرسي ولو كره "سحلية"، ربما لأني صحفية عبقرية موهوبة يتم اختياري لأصعب المهام، بالطبع لم أعرف من أين أبدأ حين تم اختياري ضمن فريق العمل الذي سيتابع الانتخابات البرلمانية .. بعد عامين من تجميد الحال نعود إلى ممارسة حقوقنا ونرفع أصواتنا، ندبّ الصوت الواحد، لعلي لا أعرف من أين أبدأ، ولكني حتماً معنية بتقديم إنجاز متفوق على زملائي، أولاً، على تحييد الواقع المحيط بنا، "الأردن أولاً"، ولا يجوز خلط المنسف الأردني بالمسقوف العراقي، ولا حتى بالمسخّن الفلسطيني، قطعاً لا يجب فتح دفاتر الهمبرجر الأميركي، فليعتن كلُّ بما خُلق له، وليكن الأردن أولاً.

أترك الأميركان مشغولين بـ"محش" البيت العراقي، والسعوديين بغريلة المنهج الدراسي من الإرهاب وشعارات الاستقواء وحصر آليات الحياة بالدعاء والذكر، والمغاربة بدراسة أسباب تحوّل دراويش الشوارع الذين كانوا يستقطبون السوّاح إلى فدائيين تتصدر أعمالهم الانتحارية نشرات الصباح.. أما الأردنيون فمشغولون بخياطة اليافطات البيضاء العريضة التي ترفرف في فضاء عمّان حاملةً الشعارات الثقيلة ومقاومة تبدل اتجاه الريح . في الانتخابات يفيض رزق الخياطين والخطاطين، ويكثر ذبح الخرفان ومَرَس الجميد الحجري ليصير أدماً شهياً يسكب فوق تلال الأرز الأميركي الذي لا يصلح لصنع منسف أصلي ولكن النساء الشاطرات يخلطن ببراعة قليلاً من أرزٍ مصري وقليلاً من الأميركي ليصير منسفاً أردنياً. بأمر من رئاسة التحرير شغلت بالانتخابات النيابية، في عرض البلاد وطولها بدأت مظاهر الابتهاج، بدأ الأردنيون سعداء وكأنه أول عرس نيابي، بعد تجميد عامين يحقّ للناس الابتهاج بعودة المناسف والكنافة بالجنبة اللذيذة التي تمطّ بين الصواني والأفواه، ويحقّ لي السعادة باستعادتي ثقة رئيس التحرير التي تُمنع وتُوهب وفق الظروف في مد وجزر متعاقبين . تم وضع اسمي ضمن المجموعة التي ستلاحق أخبار الانتخابات، حدّرتي مدير التحرير بصورة مبطنة من الفذلكة وخلط الحابل بلنابل، كما نصحني بالابتعاد عمّا يجرح المرشحين، وحدّرتي من تداول الإشاعات وحياة المرشحين الشخصية، وشرح لي أهمية الخبر البارد الحيادي، الخبر الذي يقدم المعلومة المفيدة، فقط.

باختصار، دعاني مدير التحرير إلى التزام الحياد المهني، ولما لم أكن في مزاج تهكمي، فإني حاولت تطبيق نظريته، فقط افتقدت "سحلية"، فالجو هادئ تماماً، ليست هناك أقاويل حولي، يبدو أن الفتى انصرف عني، خاصة وأنه حصل على دورة مهنية في أميركا، تناقل الأغلبية نبأ هذه الفرصة الذهبية بحسد وضيقه عين، ولم أكن منهم، فأجواء الصحيفة تصبح حميمة في غيابه، مما يجعل الأمر فرصة هناء ماسية لي وللآخرين، هكذا صار لدي ما يشغلني، نشطت في حركة دؤوبة، وكما يقول المثل الشعبي "من بيت اشقع لبيت ارقع"، من بيت مرشح إلى خيمة آخر، إذ أقام معظم المرشحين الخيام لاستقبال الناخبين.. لا تذكّرني الخيام بجّر الرابطة وليالي السهر، ولا علاقة لها بالداوة، ولكنها عندما تُضرب بهذه الفجاجة بين البيوت السكنية لا تحمل إلا احتمالاً وحيداً: المأتم. ولا أحب أن يتخذ العرس النيابي صورة المأتم، مجرد إبدائي هذا التعليق العابر محكياً

وليس مكتوباً استحقَّ نظرة تأنيب من مدير التحرير، تجاهلته، أشعر بالفرح في مهمتي الحالية، ولا استعداد عندي لمصادرة فرحتي.

كتبت عن إقامة سيرك في مقر انتخابي، بداية ظنّ المدير أنني أسخر، حاولت تأكيد صدق الواقعة، وصفتُ بلسهاب إقبال المواطنين بحثاً عن التسلية، هناك أراجوز حقيقي وساحر يلعب بالثلاث ورقات، هناك أيضاً مدرب يلعب قرداً، وغناء بأصوات قبيحة ولكنها محتملة، ورقص فولكلوري يتعد عن الخلاعة .. سيرك بكل معنى الكلمة . لم أكن ضدّ مثل هذه الدعاية الانتخابية، بل إني تعاطفت مع المرشح . إنه منذ البداية يعدّ الناخبين بالفرح والبسط، ما المشكلة؟! لم يوافقوا على إدراج الخبر بصورته التي صغتها، وتم جزره وتقليم أظافره وتجميد كلماته، النار ممنوعة منعاً باتاً بالقرب من البنزين، حذفوا أيضاً إشاراتي إلى أصناف الطعام المستخدمة في الحملات الترويجية لهذا المرشح أو ذاك، لم يجدوا مبرراً لمقارنتي بين مناسف اللحم ومناسف الدجاج وصواني الأوزي "شُغل المطاعم"، وصواني الكفتة إعداد ربات البيوت، قال لي مدير التحرير:

- ديري بالك.. لسنا صحافة صفراء.. أنت بصراحة تسيئين للوحدة الوطنية وتلمزين وتغمزين إلى أصول المرشحين ومنابتهم عبر تحديد نوع الطعام.

لم أظن لثانية أن مناسف الدجاج لا تناسب إلا من كانوا من أصول فلسطينية، وأن اللحم للعشائر الأردنية، وأن الأوزي يؤشر على المنبت الشامي .. ظننت بذكائي أن نوع الطعام يؤشر على الحالة الاقتصادية والطبقة الاجتماعية فقط، هل هناك شكّ في أن تحليلي أدكى من تحليل مدير التحرير؟! إنه أقرب إلى ربط العوامل ببعضها بعضاً، إذ تلعب الحالة الاقتصادية دور البطولة في هذا الفيلم الديمقراطي الاستعراضي الكبير، لكن مدير التحرير يرفض إعطائي فرصة إثبات وجهة نظري، كما رفض أن أتولى مهمة مراجعة حسابات محلات الحلويات وأرباحها لهذه الفترة، شطبوا تعليقي الماكر حول حركة السوق وإمكانيات الشعب المخبوءة "تحت البلاطة" والقادرة على إنعاش الحالة الاقتصادية من دون المرور بشروط البنك الدولي، لم يتكروا لي إلا الحديث في برامج المرشحين، وما أثقل ظلها : "الأردن أولاً"، "العراق وفلسطين قضيتنا"، و"القضاء على البطالة"، و"فرصة لكل متعلم"، و"إلغاء رسوم الجامعات"، و"الحفاظ على سقف الأسعار ثابتاً"،

و"الانفتاح على العالم والعمولة"، ومناطحة الزمان، و"الإنسان أعلى ما نملك". أشك أن دور البرلمانين يتيح لهم معالجة كل هذه البؤر المتوترة، أعني أن صلاحياتهم لا تمكنهم من صنع المعجزات، والزمن المتوقع لانتهاه صلاحيتهم قصير بحيث ستفوح رائحة عفنة عند انتهاء السنوات الأربع، ولن تتيح تركيبهم المنتظرة التحليق طويلاً على جناح الأحلام الوردية. أعرف أنني متشائمة، هذا راجع لكوبي أعود كل مساء لأرى بيتاً مزدحماً بمحبي "شعبان" الغالي، وربما لأني أتفادى ملامة "حسن" وأغرق نفسي في العمل من دون أن أمنح عينيّ فرصة ذرف الدموع والتخفيف عن الروح، أعود للانشغال بالبرلمانيين، ألمس خلطاً خطيراً عند المرشحين بين صلاحيات البرلمان والحكومة والملك والاتفاقيات الدولية مع الجيران والأشقاء والأعداء، لهذا تكبر الشعارات وتنب لها الأجنحة وتكتسي بالريش، وتتداخل انتماءات الأحزاب وتوزعهم بين اليسار واليمين، ولم أفهم كيف ينحاز الحزبيون إلى العشائر، وكيف تُشترى الذمم، وكيف يقاهر الرجال بعضهم بعضاً.. قهرني مدير التحرير وهو يلقي بمقالي التحليلي أمام ناظري في سلة المهملات، كأنه يستخفّ بي ويتعمد إهانتي، قال والشرر في عينيّ هـ:

- شو ست "نارة"؟! ! بدنا نرجع نعلمك ألف باء الصحافة؟! شو هالقصه اللي كتبتها؟ بدك تفتحي علينا أبواب جهنم؟

علمونا في الجامعة أن الخبر الصحفي ليس في كون الكلب عَضَّ رجلاً، ولكن الخبر أن الرجل عَضَّ كلباً، هكذا أفهم الخبر المهمّ المغاير، لماذا إذاً لا يرى مدير التحرير في خبري أيّة مغايرة! ليس أمر الراعي الذي قصّوا جدائله وقادوه إلى الانتخابات خبر يستحق أن نتوقف عنده! دخلت خيمة المرشح الراعي من دون أن أراعي إخفاء نظرات الدهشة، لم أكن بحاجة إلى سيل من الأسئلة الذكية، كان لقاءً شعبياً محبباً، فرشت زوجته منديلها وتربعت أمامي على أرض مغطاة بالحصير، نثرت سبع ودعات بحرية من كفّ سمينة وكبيرة، ما أبعد البحر عنا، من أين أتت بالودع؟!!

قالت بثقة ونبرة متواضعة: يا بنتي لا تستغربي، حكى الودع ما بنزل الأرض، وحياتك، وحياتة لقمة هالزاد (أشارت إلى طبق أرز بحليب) والأ يجعلني أنعمي وأتكرسح، شفت "منصور"، أبو فايز (زوجها) قاعد على كرسي عالي مذهّب، وحواليه الناس أمم أمم، بحبوا على إيده وبصيحوا:

بالروح بالدم نفديك يا "منصور" .. شو بتقولي؟ هذا مش منام عادي، هاي رؤيا يا بنتي، أنا قلت له، هذا كرسي البرلمان، وشو لعاد؟ يعني البرلمان ما يصلح غير للطياز المريرة، و إحنا مانا؟ شو ناقصنا؟!

قلت للمرشح "منصور":

- طيب هالكربي بده كفاءات، يعني قصدي تعليم، لا تزعل مني عمّو، بس الشهادات مطلوبة إذا غابت العشيرة، الموضوع بده...

قاطعني ضاحكاً:

- ما بده إشي يا صبية، بكقيني حبّ الناس، أنا بس اللي فاهم جوعهم وعريهم، والأ تفكري القاعدين بالفلل أفهم مني؟!

أبدأ، فَشَرُوا اللي قاعدين بالفلل وحملة الشهادات العالية، و أبناء العشائر والحزبيين والمستقلين، والمتقنين والمعارضين والمصقّين والمطبلين، وأصحاب الكرامات، كل هذه الأمة لا مكان لها حين يتقدم "منصور"، وراء الكواليس كان هناك بعض الضاحكين، يأكلون طعامه ويتحدثون عن رهان المقاهرة الذي قاد "منصور" إلى الانتخابات النيابية، ولا أخفي دهشتي من شعب يأكل ويطعن، كانوا في خيمته يأكلون "البحتة"، مزيج السكر والحليب والأرز المزين بالسمن البلدي، والذي فضّلتهم على المناسف والكنافة على سبيل تغيير الطعم ، يتلعون ما صنعتها يد زوجته الفلّاحة قارئة الودع ويضحكون مؤكدين أن هذا الترشيح مسخرة، مقاهرة رجال لا أكثر ولا أقل، مع ذلك هناك فرصة ذهبية لنجاح الراعي الطيب، عادة ما يأكل الشعب الأرزّ بحليب مع الملائكة، أليس مثل هذه الوليمة وعدّ ملائكي جميل؟ عندما كتبت مقالي اختلط الحابل بالنابل رغماً عني، عرض مدير التحرير الغاضب المقال على رئيس التحرير، والذي بدوره سحب ثقته الغالية بقدراتي، مردداً مقولة لـ "سحلية" الغائب في أميركا: "هذا هو حدّ قدرات نارة" .. أردف وكأنه يعطيني فرصتي الأخيرة:

- لا تنحشري فيما لا تفهمين، شو خَصْنَا إذا كان له جدايل وإذا مرّته فتّاحه، شو فرقت معنا أكلوا بحق ولا كنافة!

عندما تجرأت وكتبت حول ظاهرة كَيّ بطاقات الانتخابات، تم استدعائي مجدداً إلى مكتبه

العامر، قطب جبينه قائلاً:

- "نارة"، ليش مش فاهمة عليّ؟ نحن لا نتناقل لإشاعات، عيب، هذا أمر يسيء لمصادقية الصحفية.

قلت بحماسة:

- لم أكتب كلمة تشكك بالمصادقية، كله حقائق، تصور..

لم أنتبه لكوني أتجاوز حدودي وأتستط بالكلام، واصلت:

- هيك عيني عينك عُرف مخصوص لكوي البطاقات، بحطوا ورق الفويل وبمَرزوا المكواي ة بتطير النجمة اللي دُفها مراقب التصويحت.

نصحتني:

- يا بنتي إذا بدك تستمري معنا، بلاش حكي الجرايد الصغرا.. أقولك، اختصّي بالمرشحات من النساء فقط.

انتهت المقابلة وكأني سقطت في الانتخابات، تأتي مرارتي الداخلية من بيتنا الذي واصل الاحتفال مطوّلاً بالمولود الصغير، تأتي من القيود على طريقي و أسلوبي في تغطية الانتخابات، تأتي من الغيظ كوني أدفع للمهام البسيطة، ويرسل سواي لتغطية محكمة العصر التي كانت قد بدأت تزاحم الانتخابات أهمية إعلامية، على الأقل بالنسبة ل أردنيين الذين تقطعت جلود أحيديهم على درب مبنى المخابرات العامة، وأولئك الذين كانوا يستمتعون في زن ازيهم بصحبة الصراصير ويطلقون عقيرتهم في الغناء: "يا ظلام السجن خيم، إنا نهوى الظلاما" .. ما أكذبهم! من يهوى الظلاما؟ لعلهم يداوون أنفسهم من الانهيار. انظروا كيف خرجت عن الموضوع! كنت أتحدث عن غيرتي من الزملاء المكلفين بمتابعة قضية الفساد الأكبر في تاريخ المملكة، قضية البطيخي "رئيس المخابرات السابق" وتابعه "زنونة" .. ما أطمعني، الدنيا نهيبة، أرغب في أن أكون في كل مكان، في تغطية انتخابات البرلمان و في محاكمة رئيس المخابرات الأسبق، الحقيقة أني لست في أيّ الأماكن.

تجاوزت خيبة رجائي بسرعة وبتّ أبحث عن سبق صحفي عبر المهمة المتواضعة التي أوكلت لي، استدفع "الكوتة" النسائية بستّ من الحرّيم إلى قبة البرلمان، ولشدة ما أربعني السيد رئيس التحرير

من الاقتراب من المواضيع التي لا أفهم بها، فقد حاولت أن أفهم بموضوع المرأة، قرأت كتاباً حول "الجنדר"، وأذهلني الحديث عن مجتمع ذكوري، هو أمر لم أناقش تأثيره في حياتي، لو لم أكن "نارة"، لو أنني "أحمد" أو "محمود"، هل يجروء عمي على إحضار أوراق التنازل عن البيت إلى عقر البيت؟ ولو لم أكن "نارة"، هل كنت أوقع اسمي البهي فوقها طوعاً بلا إكراه! هكذا بطيب خاطر؟! هذه المنظمات قادرة على تحريض النساء عبر مقولات العدالة، يمكنها أن تخرب بيوتنا العامرة بالألفة والمحبة وتحرمنا نعمة الرضا. تناسيت كتاب "الجندر"، نؤام الرعب الذي يصيبني به صحن شوربة العدس، وقلت يا بنت اعقلي وانصربي إلى عملك. فكرت بصنع قصة متابعة شيقة لسيرة واحدة من المرشحات لاحتلال منصب في مجلس النواب، أعني نائبة محتملة، استخدام تعبير "نائبة" لا علاقة لي به، ملعونة هذه اللغة القادرة على الإفصاح عن النوايا السيئة للثقافة الذكورية، عذراً، يبدو أنني ما أزال متأثرة بكتاب "الجندر" سبب الذكر، سأحاول أن أكون أقل تطرفاً، سأكتب قصة عنوانها "نجاح امرأة".

عليّ أن أختار واحدة من المرشحات التي تميل الترشيحات إلى إمكانية فوزها، لن أذهب إلى المحافظات والقرى حيث ما نثال المرأة ضلعاً قاصراً لا يسمح لها باعتلاء ذرى المجد، قدّرت أن فرص المرشحات العمانيات أكبر، لا لكونهن يتقنن الحديث ورسم الكحل في العيون، وتحديد الإطار الأنيق للشفاة الممتلئة، ولكن لكونهن يتمتعن بهذا الوهج الطبيعي الخاص بنسوة المدينة، حيث تبدو المرأة مقلّعة "تبيّض الوجه"، ليس مهماً أن يشعر المرء أنه شقيقته التي نسيها في سهول حوران أو مزارع جلعاد، أنا لا يضيرني أنني بلا شقيقات، المهم أن أناقة العمانية غير قابلة للنقد والتعليقات المهينة، قررت أن أبدأ مشواراً يسبح لي مستقبلاً تأليف كتاب أعنونه ب"كفاح امرأة".

أحالي العنوان إلى بدايات كفاح السيدة "ديما"، اسم ألق ذو شفافية عالية يليق بمهمة شاعر عذري، ولكنه هنا مفتاح انتخابي، لماذا لم أفكر بترشيح شخصي الفقير ما دام اسمي أكثر إثارة! قد أحصد أصوات باعة الهريسة في عمّان الشرقية كوني حفيذة أحدهم، وقد أخسر عن جدارة لأن باعة "الدونت" وتجار "البا نصيري" سيعملون ضدي، بسملت وأنا أدعس على السجادة العجمية في الصالون الفاخر حيث أنيقات جميلات كُثُر واقفات جالسات، رائحات غاديات،

يشبهن "مانيكانات" فاترينة العرض ، لم أتمكن من معرفة "ديما" بينهن، إلى أن قالت لي "الفلبينية" بعربية ركيكة:

- ماما ديما ما في موجود.. راح شغل..

أي شغل؟! المساعدات الأنيقات اللواتي يتصرفن كفتيات ومرشدات الكشافة، يرحبن بالجالسات، ويفسحن للرجال درياً للتسلل إلى قاعة داخلية، يشرفن على نظافة المفارش المكشكشة فوق الصواني الفضية، لكنهن لا يملكن إجابة عن سؤالي، الفلبينيات يرتدين تنا نهر قصيرة مغطاة بمراييل الدانتيل، ويضعن فوق رؤسهن طراوير لم أشاهدها إلا في السينما (وهذه غير "طراوير" الصحاف الشهيرة).. أيضاً لا يملكن جواباً، لكنهن يتمتعن بالأدب، فلا ينظرن شزراً لتواضع ملابسي. أصبحت على يقين أن الفلبينيات أفضل من السير يلانكيات في خدمة البيوت وأبهج منظراً، ولكن الست "ديما" تأخرت، وأنا "فرطت" روحي، تناولت كأس عصير "الكيوي" الأخضر بتلذذ، وقلت وأنا أعيده مخاطبةً حاملة الصينية: وين شغل ماما؟ في إشي مهم لازم أنا بشوفها.. في مصاري مشان مام!

أكذب مستخدمةً اللهجة الركيكة نفسها التي تستخدمها الفلبينية رشوةً لها وتقرباً منها، فترتبك الخادمة الأنيقة، ثم تمس حذرة:

- صالون روميو.. ماما راح "صالون روميو".

طرت وفولكسي إلى "صالون روميو" في "عبدون"، كنت قد لمحت اليافطة مرات مقابل مطعم الحمص والفلفل ولم أفكر بتاتاً بالدخول، إذ تصورته صالوناً ذكورياً، هذه المرة وأنا أدفع باب الزجاج هاجمتني رائحة اللافندر الطيبة، عيني على رائحة شواء الشعر الحي التي تفوح من صالون سندرليلا في "الأشرفية"، هبت الرشيقة عند الاستعلامات لئمن شاهدت شبحاً، قالت:

- شو بؤهر الأنسة؟!!

أمُر! معاذ الله، ادّعت أي أكوّن فكرة عن المركز قبل أن أقرر ماذا سأفعل. سارت أمامي مترددة، كأن بساطة ما ارتديه فضحت انتفاء علاقتي بالمكان، أغضبني تصرف العاملة التي رجحت أنها جاءت من موقعي الاجتماعي نفسه، ولكنها تقمصت دورها سريعاً وأجادت تثبيت القناع فوق وجهها المجدور، فبدت صبحاء بيضاء. حملتُ بالنسوة الجالسات تحت رحمة



"السشوار" وقد لففن رؤوسهن بورق القصدير الفضيّ مستسلمات لجمع من الرجال المستأثنين الذين يرتدون قمصاناً لامعة ويعلقون سجاثرهم فوق الأذنين وهم يشدون خصلات شعر النساء ب"السشوار" الجبار، لم يغطّ وشيشٌ مجفف الشعر على صوت الجنس الناعم و لم تكن "ديما" بينهن، واصلت سيرتي وراء جميلة الاستعلامات وهي تشرح لي مهام الصالون باقتضاب وإهمال مقصود، شرحها لا يعنيني على أية حال، وأخيراً في حجرة مستطيلة عثرت على ضالتي، السيدة "ديما" مرشحة البرلمان ممددة على كرسي، قدماها مرفوعتان في وجهي، وصبية فلبيزيتي تقرفص لصيقة بها تكشف اللحم الزائد في أظافرها بجمّة، بينما فلبيزيتي أخرى تدعك كعب قدميها بحجر يشبه مرجاناً بحرياً، هتفت:

- بدّي هذا، بدّي أساوي هريك.

غفرت جميلة الاستعلامات غبائي وجهلي بالمصطلحات، شارحة:

- مناكير وبدي كير! عشرين ديناراً..

هزرت رأسي موافقة، عشرون ديناراً! الله لا يكسبكم!

- تفضّلي ما عنا غير زبونة واحدة.

"نارة عدنان" .. الزبونة الثانية في حجرة المناكير والبدي كير، أتمدّد مثل الست "ديما"، ما المانع؟ الشعب ومثّلوه معاً يحقّون كعاب أقدامهم، ليصير قفا رجل الست "ديما" وقفا قدمي أنعم من بشرة "شعبان بن رمضان"، وإذا ما صبغنا الأظافر التمعّ المناكير الأحمر على قمة الأنامل الحلوة.. حاولت الدردشة معها بتقدم متمهّل مدروس، لم أستلق هنا وأدفع عشرين ديناراً لأحظى بهذه المعاملة الجمالية الفريدة، أريد المعلومات، لهذا لم أفصح عن هويتي منذ البداية، تحدّثنا عن فرص المرأة في الوصول إلى البرلمان، أكدت أن أحباها كثر، وأن أملها لا ينقطع، حكّت عن إيمانها بقدرة المرأة على الإقناع، نددت عنها صرخة حادة قطعت تدفق المعلومات، فالفلبينية الغشيمة سهت ومنتشت رأس الأصبع الصغيرة في قدمها اليسرى:

- أووو.. شو ما بتفهمي؟!!

ذكرتني بنبرة رئيس التحرير، وواصلت احتجاجها:

- وين دوريس؟ ميت مرة قلت ما بحب حدا يعمل أدافري غير دوريسي.

اعتذروا لغياب دوريس في "مانيلاً" لإجازة قصيرة، تنهدت بغيظ قبل أن تنطلق في موال شكوى يبرز رقتها في قلب الحروف وتلطيفها، شكت حالها كأنما الخطيئة الفلبينية وحدثنا ب وصفنا مواطنات مغلوبت على أمرهن وضعن أطرافهن في رعاية شعب غريب:

- لولا ما أنا ممتّرة، ما كنت رديت غير دوريس.. شو بدي أساوي؟ عندي مناسبة.

ظننت أن هناك حفلاً ما، ثم أدركت أنها تتحدث عن "مناسبة" الانتخابات، عند ها قررت أن أسألها عن رأيها بالقوانين الخاصة بالمرأة و إمكانية تعديلها لتصير الأثنى مواطناً كاملاً من دون انتقاص، وقفت وأظافرها مطلية بريق متألئى غاية في الجمال، ولوّحت لي مودّعة، ورحت أتقلب على الكرسي كأنه كرسي لإعدام الكهربائي، قلت للفلبينية المخلصة في تزيين أظافري وكشط الجلد الميت من كعاب قدمي:

- خلص.. ما بدّي.

- ما بصير.. لسه ما خلصتي..

- ولو... ما بدّي..

ما بصير.. بدّك ما بدّك.. مصاري ما برج ع..

تنمّرت القطة الوديدة وأمسكت بقدمي تقيدها كأن لحم أظافري الميت يهبها آخر زاده.

- عمره ما يرجع.. لازم أروح ورا "ست ديما" على "عبدون"..

- بس "ست ديما" مش رايح على بيته في "عبدون"..

لم أهتم لطيران العشرين ديناراً، عددتها ثمّن شراء معلومة صحفية مهمة من فلبينية الصالون، إنها مهنة التضحيات الجسام.

لبست حذائي مسرعة من دون تخفيف قدمي، متجاهلةً ازدراء عيون جميلة الاستقبال وأنا أرمي بالعينين ديناراً أمامها، هرولت خلف الست "ديما" إلى صالون آخر عند الدوار السابع.

صالون آخر! تتحلّى الست "ديما" بطول الهال، هكذا تكون النائبات وإلا فلا، ولجت إلى ما يشبه العيادة في جبل عمّان، و ادّعت أن عندي العادة الشهرية مبررة عدم مشاركتي في تمارين

النط والمطّ على نغمات الموسيقى، مطالبةً كربونة محتملة التفرج على فعاليات النادي، قادوني من

حجرة إلى حجرة حيث النساء مكسيات عاريات، خارجات من حمامات البخار إلى مسابح

الجاكوزي إلى أسرة المساج حتى عثرت على "ديما" ملفوفة بأقمطة بلاستيكية كبيرة مثل مومياء في قلب دولاب سيارة أبيض اللون، كانت تتصبّب عرقاً، فغرت فاهي أتصنع الدهشة:

- معقول! ياي.. "ست ديما"! يا محاسن الصّدف!

شرح ت الممرضة المختصة آلية عمل الأجهزة التي تشدّ الأرداف وتلك التي تدكّ معاقل "السيلوليت" في الأفخاذ السمينة، ثم تنبّهت إلى أني لا أستمع إلى شرحها، بل و أستغرق في حوار جاد مع النائبة المحتملة وهي تستحمّ بعرقها جراء جلسة التنحيف المضنية:

- غلبة كثير يا "ست ديما".. مش هيك؟ الله يشدّ عزمك.

تنهدتّ تعباً:

- مش مشكلة.. بتعرفي الواحدة ما بتستخسر بالنيابة إشي، هذا أقلّ اشني نقدمه للوث.  
رنت كلمة "الوطن" المرفّقة المنعمّة في سمعي مثل نغم منفلت، ما أصعب إخفاء دهشتي وغبائي واستنكاري، لا أعرف أي الملامح تسابقت على وجهي البريء، لتسرّع الست "ديما" في التوضيح والشرح المسهب:

- لازم الناس تعرف الحئيّة، والحئيّة.. إن الستات عنا ما بطلّوا عن الستات في الغرب، يعني مش عشان هن شتر ورشيّك نستلّ بحالنا، صديئني إنهن مسلّوعات وما فيهن أنوثة، بس لو ندير بالناغ حالنا اشوي، وبعدين صديئي الست اللي بتهمل رشائتها وحلاوتها بتسريء لصورة المرأة الأردنية، شوفي "نائبتنا".

- ماها؟! بعلمي.. حلوة ورشيقة وفهيمّة..

- مش أصديغ حلاوتها.. حلوة.. آه.. بس بيني وبينك الشركس بمرموا بسرعة، لازم البرلمانية تكون صورة حلوة بتشرف بلدها.. مش معي يا أخت "نارة"؟ صارت تسميني "أخت" بعد إعلان هويتي الصحفية، ربّ أخ لك لم تلده أمك، حاولت أن أقود حديثنا نحو قانون الجنسية والأحوال المدنية الذي يخصّ المرأة، بدأت رائحة عرقها تنتشر في المكان، وهي تجيب بدكاء:

- بعدين.. بعدين، بعد ما أرا التأثير اللي بحضروا لي إياه عنه، ما بصير الواحدة تحكي عن الآنون حيا الله مثل الرجال اللي بفكروا حالهم أشطر منا، ليش نحننا شو نائصنا! زي الفل، حتى الستات بقطّ لمسة حنونة و ناعمة على برلمان الخناشير، كمان بصيروا يعملوا حساب لكل كلمة

بحكوها، عمرك شفتي رجال بحكوا سفالة في أعدهفها ستات محترمة.

لم أفهم، هل تظن الست "ديما" أن الرجال يتحدثون بلغة نائية تحت قبة البرلمان؟ أظن أنهم يحسبون حساباً لكل كلمة يتفوهون بها من دون وجود المزهريات النسوية الجميلة، حتى إن بعضهم يغالي في أدبه ويميل إلى الصمت البليغ والنوم الثقيل طوال مدة تمتعه بمزايا مهامه البرلمانية. أطرده أفكاره وأستمع إلى المزيد من عبقریات الست "ديما"، تقول:

- شو بعرفني كيف هذول الفلاحين بودّوا نسوان على البرلمان، شفتي بالله كيف صوّزهن؟ كيف هذول بكره بدهم يطلعوا بالصور الرسمية؟ شو إحنا افغانستان! بس بتعرفي مش مشكلة، أنا بعرفهم هذول الفلاحين، بكره ما بخلّوا الواحدة تطلع على عمّان مشان تحضر الجلسات، بصيروا يقولوا لها ليش تأخرتي ومع مين كنتي، مع مين بدنا نكون يعني؟ مع الشعب طبعاً، مشان هيك بقول أحسن تنتخبوا ستات عمّان، أكتبي هالحكي.. آه نسوان العاصمة بظلوا هون أأرب، وبروحوا بوئث معنول غ بيوتهن، هيك ما بصير لّت وحكي بلا طعمة، واللي عندها صالون أو سهرة بظل عندها وئث بكّفي، وبعدين لهجتهم بالحكي مئبولة، وأوزانهم معنولة.

شدت الممرضة رباط الكاوتشوك حول جسد الست "ديما"، فانفلق الشحم من الأرداف، ملمت الهبر والدمسم منتقلةً إلى جهاز آخر، لفت حولها أربطة جديدة وصلت أردافها وفخذيها وبطنها بنوابض كهربائية، وما إن أخرجت ورقة وقلماً ودونت ما سبق من أفكار، حتى اخ تلج لحمها وانقضت تحت وقع المساج الصناعي، وشعرت باطمئنان كبير على المظهر الذي ستبدو عليه النائبة عندما تُلتقط الصورة الرسمية الأولى للفائزات في الانتخابات.

ضحك "منذر الفاتح" حتى كاد يقع عن كرسيه وأنا أنقل له وجهة نظر الست "ديما" بنساء المحافظات، قال لي:

- لا تنعشي بالمظاهر، مين قال رجال المدينة يحترموا النسوان! مجرد حاقد فجعني منطقته، كيف أصدّق ما يذهب إليه من أن القرويين أكثر إيماناً بقدرات المرأة وأكثر ثقة بها من رجل المدينة المتعلم الدمث الذي يفتح لامراته باب السيارة ويفاخر بخيط البروتيل النحيل الكاشف لكتفيها الجميلتين النحيلتين، والبكيني على نهديهما التفاحتين، إنه من يسمح لها أن تعمل مضيغة طيران تحطّ في عاصمة وتقلع من أخرى.. ولا يمنعها من تدخين

سيجارة في "كافيه لاميرابل" في الشميساني، ولا شفط دخان الأرجيلة في "كان زمان" ولكن! عند المهام الجسام فإن على النساء أن يتجنَّين، ممنوع الضبط والربط.. مح ظور على الرؤوس الجميلة الابتلاء بالفكر والثقافة.. ممنوع على الشفاه الوردية أن تقرر، عليهن إفساح الطريق للخيل والخيالة، جيش الإنقاذ من الرجال لأشواوس، وينحصر واجبهن بللمتتع بفرصة كونهن غانيات صغيرات مدللات!

قلت لـ"منذر" بصراحة:

- أنت مجرد فلاح لم تستوعب المدينة، تكرهها، حاقد، ويجلو لك تجريح رجال العاصمة ونسائها، كما أنك تزور للريف وجهاً جميلاً بعيداً عن الواقع.  
هز رأسه مستهيناً:

- بكرة بتشوفي بعيرك.

استضافتني الست "ديما" في منزلها العامر في "عبدون" قبل الانتخابات بيومين، وشريت مجدداً عصير الكيوي الأخضر الحامض حلو، لتهدت بطعمه وأنا أمرر حبابه مرطبة شفاهي، بينما تلقوي الست "ديما" خطبة مرتجلة بليغة، قالت:

- تصوروا هاي الحكومة ما بتخاف رها، ليش يعني ترفع الأسعار، والله حرام.

سألته دمية شعرها أحمر:

- أسعار شو؟!!

- كيف أسعار شو! إنت مش بالبلد؟! الخبز.. ولك الخبز ثوت الشعوب المتهورة.

واو.. وآه.. وياي... ما أطفهن من دون ملطمة فجّة.

هناك تعاطف عميق مع النزعة الشعبية التي تتبناها الست "ديما"، نسوتنا الفاضلات أكثر وعياً من ماري أنطوانيت، يتأوهن حسرة على كسرة الخبز الغالية، وعلى الشعوب المتهورة بالتأكيد. وضعت كأس العصير فارغة تماماً، لقد ارتشفتها حتى الثمالة بشراة معيبة، وبقي بعض الوشل الأخضر الكثيف يلطّخ مرايا الكأس بهجة ربيعية، وفيما كانت الفل بخية ترفع كاسات الشراب على الصينية الرافلة بكشاكش الدانتيل، وتسدل بها حلوى مصنّعة من اللوز الخالص والسكر، أكملت "ديما" تفسيرها الفذّ لواقع الحال، قالت:

- إذا ما بتعرفوا، أكيد ما بتعرفوا، أنا بخبركن، يعني شو هي ثليلة يزيدوا أسعار الكاز، والله مصيب

أنا شخصياً لم أعرف أين تكمن المصيبة، احتجت إلى لحظات لأفكر بأهمية الكاز، لأتذكر ليالي الشتاء القارسة والمدفأة الخطيرة التي تبت دفعها وسمها في قبو جدّي، لم أكن وحدي في حيرة .  
الدمية الحمراء الأكثر دهشة سألت براءة: الكاز! شو لسه حدا بستعمل الكاز!؟

- آه، والله يا أختي، شو إنني بتفكري الناس كلها مثل بعضها؟ ما عندك فكرة كيف بستعملوا الكاز في عمّان الشريّة، المساكن، في "جبل النظيف" و"الجوفة"، و"الأشرفيّة".

توقفت يدي عن رفع لقمة اللوز المحلّى إلى فمي، "الأشرفيّة"! ها قد دخلنا التاريخ، نحن سكان الجبل العالي المطلّ على المدينة صرنا جزءاً من خطاب الست "ديما" الانتخابي. توجست ريبة من ذكرها لحجرة القبو التي يقطنها جدّي، لا أحب نشر غسيل عائلي المتسخ على كنبات "عبدون" البيضاء النظيفة. مترقبةً وضعت قطعة الحلوى في فمي، أكملت الست "ديما":

- هناك، في الشريّة، بستعملوا الكاز كثير، آه والله، كيف لعاد بدهم يتلوا العمل في شعره ن؟!  
هناك البيئة وسخة كثير، والعمل سارح.

اختنقت باللقمة وفاض مرار اللوز على حلاوته، أ صابني غضب هز أطراف أصابعي وصبغ وجنتي بأحمر قاتم، أشتهي خنق الست "ديما" بالضغط على جيدها العاجي المتصابي، بصقت حلوى اللوز بحركة وقحة مصدرّة صوتاً ناخعاً من بطن حنجرتي، والتقطتها بلنامل من دون حرج قبل رميها في صحن الكريستال البوهيمي . لست معنية بالعيون المكحّلة والمثقلة بالأصباغ التي حملت استنكاراً .. شددت حقيقتي على كنتفي وغادرت "عبدون"، يا سلام على أرتال الخادماات الس يربلانكيات الواقفات عند البوابات الفخمة المزودة بأجهزة الإنذار، لا بد أن أسراب القمل تكثر في "عبدون" الفارهة وتنتقل من العاملات وكلاب الحراسة إلى الأطفال المدللين، زجرت غضبي واعتذرت من أعماقي للكلاب الوفية والس يربلانكيات المكافحات، لم أقصد إهانة ريفقات النضال الاجتماعي المرير القادمات من آسيا . قاتل الله الغضب الأعمى .. وفيما السيارة تنقلني من عمّان الرفاء تلك التي بيوتها حجر أبيض ورخام إيطالي، وحدائقها خضراء، إلى عمّان الشقاء والحجر المشخبر المتعانق متسلقاً بعضه بعضاً، تمنيت من أعماق قلبي

فشلَ مساعي الست "ديما" في الوصول إلى البرلمان، ولتذهب الكوتا النسائية والسبق الصحفي وكل المرشحات والمرشحين والحكومات إلى الجحيم، أو يمكن إنشاء طابق ثانٍ لباص الرابطة أسوة بالحفلات اللندنية الشهيرة في الماضي، يمكن استخدامه عليّة مكشوفة لكبار الشخصيات وأهمّها، تُقدم فيها المرطبات حتى يستمتعوا في آخر مشاويرهم في غابات عجلون الغناء قبل أن تُدقّ أعناقهم السمينة على صلب الحجر.

\*\*\*

تعرفت على وجه الاكتئاب الأصفر، عينيه المريضتين، فمه المرخي، ومشيته البطيئة تحت جلدي، همد الغضب حزناً رائقاً في أوردتي، مؤشر البنزين في السيارة يضيء منذ الصباح، لو تباديت في تجاهله سأضطر إلى حشر جسدي مجدداً في السرفيس الذاهب إلى "جبل الأشرفية"، أقف عند محطة البنزين في عصر رائق تنبعث منه حمم ساخنة وكأن هناك موسيقى جنائزية تغدّ مسيرتي، أسدد قيمة ما ابتلعت السيارة من البنزين، يهزأ "حسن" من حزني قائلاً:  
- العبي مع الحزن قليلاً، مش مشكلة، في النهاية تتوقفين لملء خزان السيارة ومواصلة السير من جدي.

- وحياة أبوك بلا فلسفك

الملعون الحبيب الذي لا أب له يجيد إنقاذني عند فوهة الهاوية تماماً .. أدخل البيت أكثر تسامحاً مع الحياة، الأضواء خافتة كأن الساكنين ارتحلوا، أسمع ترويدة ناعمة وصوتاً ملائكياً يغنيّ بشجن:  
"ليلاً تنام.. ليلاً تنام.. لأذبح له جوز الحمام".

ما يزال قلبي عامراً بالأنس والمحبة، سأرعى نفسي الودودة وأحبّها، أخطو على مهلي رغبةً في الحفاظ على تواتر الترويدة الحانية، باب "فتحية" مشقوق قليلاً وضوء ناعس ينسرب نحوي، عند طرف السرير جالسة تحني رأسها وقد احتضنت الصغير وكشفت عن ثدي يلوح أبيض مكنزاً تحت الضوء، بحلمة مدوّرة كبيرة سوداء، والرضيع يتشبث بلحم الثدي بكفّين صغير يقين، وقد أنشب فمه برأس الحلمة وراح يمتصّ بطمأنينة بالغة، استوقفني المشهد كأني أمام لوحة فنان عبقرى، ثم كشفت اللوحة عن خباياها في لحظة دهشة مرعبة، تلك التي تغنيّ منحنية، من تلقم الرضيع ثديها، لم تكن "فتحية" زوجة العمّ، لكنها "وداد"، الصبية "العذراء" العائدة من رحلة

عمل غير موفقة، جالسة في حجرة النفساء تغيّ وتُرضع بسخاء طفلاً مطمئناً!

سمرتني المفاجأة، وجفّ حلقي، دفعتني كفت "حسن" بحزم لأجتاز رعب المشهد إلى حجرتي حيث أغلق بابي، وأرمي بمؤخرتي فوق سريري كما يسقط الحجر.

ناظراي على الجدار، وأنفاس "حسن" تجوم حولي قلقةً.

- ابتعد الآن لحظة، أرجوك، أريد أن أفكر ملياً، أن أفسر، أن أحلل، أن أفهم.

يا سلام..! مفهومة.. واضحة وقحة مثل عين الشمس، "فتحية" لم تنجب ولياً للعهد يرث بيتي المتداعي. لـ"فتحية" رحم عاقر بريء من كل سوء. وتنداعى الصور من ذاكرتي المهمة التي لم تتوقف عند تفاصيل بدت عابرة. "وداد" الساذجة المرتبكة تحت الدّرج مع الفتى موفق. "وداد" تمببط من سيارة تاكسي آخر الليل عند المفترق الذي يقود إلى الحارة. "وداد" تدخل بيتها. بعد دقائق يدخل موفق بيته. موفق يطير إلى الخليج. يغيب طويلاً. "وداد" تختفي. تجد عملاً في العقبة. "فتحية" حبلى. العمّ مضطرب. الهمس يندسّ في زوايا الحجرات وتحت الأغطية. السعادة تمثيلية هزيلة في زوايا البيت، والقلق يجوس المكان. أشهر قليلة قبل الإعلان المتردد عن حبل العاقر. "المرة ولدت وأنت نائمة!" "المرة! من؟! ثم تظهر "وداد" بعد طول سفر، وتقف أم صبحي في مطبخنا تقلب مزيج الكراوية. وجه "وداد" شاحب وعينها حزينة. حقيبة سفرها مثقلة بجهاز المولود. أم صبحي تكاد تقيم معنا في رعاية الصغير. تتجمع الخيوط، وأنا منشغلة بلوسال الجميع إلى باص رابطة الكتاب لينقلب من أعلى بقعة في عجلون؛ في حين أن أهل بيتي وجيراني ركبوا باصهم الخاص وتدهوروا على طريقتهم، لعقوا جراحهم وعملوا على تحويل الكارثة أو الفضيحة أو الخسارات إلى أرباح تعمّ الجميع. صار للعمّ وريث شرعي، وصار لـ"فتحية" ولد، واجتازت "وداد" الفضيحة بمساعدة شكيمة أم صبحي الماهرة. عاشت الحارة فيلماً هندياً.

وحدي لم ألعب دوراً هنا مع أني أحب الرقص تحت المطر في الأفلام الهندية. لم يُشركوني في اللعب وأبقوني في الصالة جاهلاً بما يجري. انفجرتُ بالضحك طويلاً وعالياً. ضمّني "حسن" بقوة وأنا أرتجف وأتفتت بين ساعديه، لست حزينة ولا مصدومة، أفكر بـ"وداد" تنحني على الطفل وتلقمه صدرها، أفكر بمخاوفها وأوجاعها، وبالندل موفق.. أفكر ببطولة عمّي وزوجته، أو بصفقتهما، وبني! طار البيت وإلى الأبد! هل كنت أحلم يوماً بأن يعود هذا البيت بحجارته



المتكلمة للملكيتي، هل يعنيني؟!

لولا "حسن" لقررت أن لا يركب باص رابطة الكتاب أحد سواي، سأقوده أنا على الطريق التي تتكثف فيها غابات السرو واللزاب، حيث الهواء عطر عليل، والسفوح والمرتفعات خضراء فاتنة، سأعتلي المكان، وأترك باصي يهوي حتى القرار، وينفجر مُحدثاً لهباً ملوناً وأدخنة سوداء، لولا "حسن" ..

أمسك برأسي بين كفيه، وجاء صوته عميقاً:

- عزيزتي.. حلوتي.. ولا إشي بمكانه.. صَحَّ؟ كمان هالشغلة هيك، مشقلبة، تعودني تشوفي المشقلب.. عادي.. عادي.. المهم، ابتسامه في وجه كل الدنيا، ابتسامه للنبي، ابتسامه لي "حسن" ..

أبتسم في وجه الدنيا، هناك ما يستحق الحياة دائماً . أبتسم وأودع اكتشافي في خاوية أسراري المكينة، أتلهى بما أسفرت عنه الانتخابات من نتائج مريجة للحكومة.. شهر عسل وطني، ذكرني "منذر" بمحدثنا حول نساء المدينة والمحافظات، لم نفجح نسوة عمّان في الامتحان، كأنها النتيجة الموجعة لامتحانات الثانوية العامة في بعض المدارس البعيدة .. عادت نساء عمّان إلى بيوتهن، حتى عن طريق "الكوتا" جاءت النتائج في صالح نساء القرى .. منطلق "منذر" أقرب إلى الواقع من تصوراتي، شمتُ بللست "ديما" بطله كتابي المتوهم "كفاح امرأة"، وكتبت أخباراً بلا أسماء عن مرشحات أُصبن بالإغماء، وأخريات ضربن مساعديهن أو أزواجهن .. كتبت أيضاً عن مرشحين رفعوا شعار "الشعب أولاً"، ثم سبوا أبو "سنسفيل" الشعب الذي لم يمنحهم من الأصوات ما يكفيهم، فحرمهم من اقتناء سيارة كُتبت على لوحتها بالأحمر "مجلس الأمة" .. كتبت عن بعض الأوراق الانتخابية التي استبدلت بأسماء المرشحين عباراتٍ مثل "طز عليكم"، أو "فخار يكسّر بعضه"، أو "عدّي رجالك عدّي من ا لأقرع للمصدّي" .. كتبت عن عودة الكنافة بالجنبة النابلسية والعكاوية والقشدة بقوة إلى الساحة مع أرتال الأكيلة، أقصد المهنيين، ولا عزاء للفاشلين .. كتبت أيضاً عبارة دفعت بم دير التحرير إلى إلقاء ورقتي مجدداً في سلة المهملات أمام ناظري، أشرت إلى أنها أغرب انتخابات مرت في تاريخ المملكة، حيث لم يكن هناك ما يدعو الحكومة للقيام بمحاولات استقطاب وتزوير، كما يحدث عادة وكما هي طبيعة

الأدوار التي تلعبها الحكومات في كل انتخاب سياسي، فالشعب هذه المرة قام بالمهمة على أكمل وجه، كوى وزور واستبعد واختار .. إنه شعب فطن يلعب بمصيره ويتمتع بالديمقراطية من دون أن يدفع الحكومة للعب دور عدا دور ال رعاية والسقاية .. انضم المدير إلى الشعب فألقى بأسراره وكنافته ومناسفه في سلة المهملات، قال إن خبري لئيم، أوافقه بأنه خبر لئيم يستحق الإعدام، وقد كان، حمله مدير التحرير متقززاً بأطراف أنامله وكأنه جرد ميت، هوت الأوراق التي حبرت فيها أخباري وأفكاري إلى قعر السلة المتسخة بسجائر الزملاء وأوراق أخرى ماتت هناك. لم تكتفِ صاحبة الجلالة "الصحافة" بلقاء أوراق في سلة المهملات، جرى قتلي ببطء، لم يعد اسمي يظهر في الصحيفة، لم أعد أكلف بتغطية أيّ خبر كان، ولما لم يكن السيد "سحلية" في البلاد فقد استبعدت الشائعات التي سرت عن إمكانية نقلي إلى الأرشيف. في الأفلام المصرية يرد ذكر الأرشيف على أنه عقاب وظيفي، لم أفهم، فلدي معلومة تقول إن نجيب محفوظ كان موظف أرشيف، من أين استقيت هذه المعلومة! ليس مهماً، لعلي في طريقي لجائزة نوبل! من يهتم سواء كنت في الأرشيف أو في ساح الوغى .. بالنسبة لي تهدأ المطاعم والمطاعم جازةً ذيل خيبتها المتكررة، كأنما النار المتقدة حمراء تستحيل إلى شعلة رائقة زرقاء تتعادل فيها العناصر، لا شهوات مضنية ولا عيون تتسلق أدراجاً وهمية نحو الغلا، العمل يعني لي مكتباً مكيفاً أتسكع في ردهاته بعيداً عن صالة البيت و"واع ويع" "شعبان بن رمضان" الذي يشتد ويغلظ صوته بصورة مقيتة، هذه الأيام ليس في شرق المملكة ولا غربها، لا جنوبها و لا شمالها، من هو هنا بالأمني، حيث الفراغ يكتنف الحياة وحين لا يهمني شيء.

لأني استسلمت إلى الهناء، عادت بعض التفاصيل تغيب عني مجدداً، لم أهتمّ لعودة "سحلية" من أم يركا مرتدياً قمصاناً مشجرة سخيفة مرصعة بثمار أناناس أضحكت الزملاء، والحق أنهم يتمتعون باللكياسة، تبدأ ضحكاته م بعد مغادرته القاعة وابتعاد همسافة كافية تعزله عن نوبات السخرية والاستغابة .. عندما يطل مجدداً، أتمكن من رصد الخطوط المرحة و الألوان الصارخة للحديقة الاستوائية التي تستلق ي على صدره وخلف ظهره، أبتسم علناً، فيحدجني بنظرات غاضبة، وتقول عيناه: "لن تتعلمي حتى تكون خسارتك عظيمة"، الفتى "سحلية" عاد للكيد لي عند رئيس التحرير، ولكن كيده طفيف، إذ يركز اهتمامه حول زملاء آخري أثبتوا كفاءة في

غيابه، بينما بقيت أنا محلّك سرّ .. ما أسعدني بهذا الركود الذي يصدّ عني أذى الحساد إذ لا يجدون ما يحسدونني عليه، التفصيل المذهل الذي غاب عني لفترة كان عودة "موفق"، شاهدت "وداد" مراراً شاحبة ومتعجّلة في مرورها من بيتنا إلى بيتهم، ولم تغب عني قسوة "فتحية" المتعمدة، لم تُعدّ ترغب في زيارات الصبيّة المتكررة إلى البيت، خاصة عندما يكون عمّ ي رمضان "حاضراً، والعمّ صار يجب البقاء في البيت رافعاً كتلة اللحم التي أسماها "شعبان" في الهواء مؤرجحاً هاتفياً:

- كر كر كر ..

يككر الرضيع في الهواء قبل أن يقذف بمرجوع ما في معدته أبيض خائراً فوق شعر عمّي الذي يلقي بالصغير إلى حضن "وداد"، لكن "فتحية" تحوّل دون وصول الكتلة الحية الطرية إلى يد الجارة اللدود الولود مثل مدافع بارع في ملعب كرة القدم، تشدّ جسد الرضيع الطائر محتدة لتكاد أطرافه تنفصم، تنقطع الكركرة وينظر عمّي بطرف عينيه، ثم بحركة منتظمة تتجه "وداد" إلى باب البيت، وعمّي إلى المغسلة ينظف ما علق بشعره، و"فتحية" إلى الحجرة متممة بأحرف مبهمة، وأظلم في الصالة أضحك حتى أنقلب على أريكة تفوح بالعرق وعبق المنظفات .. تسليت بتلك الصور، وفاتني القلق الذي حدث في الحارة منذ عودة "موفق". شاهدته للمرة الأولى عند عودتي عصراً، مشى نحوي مباشرة واثقاً، وكأنه سيرتطم بي، مرتدياً بدلة كحلية محروقة وربطة عنق عريضة، ذكّرني بصور الرجال في السبعينيات، التصقت ذؤابة شعره بجبهته بأناقة مفرطة تبعث على الغثيان، وبدا كما لو أنه أفرغ فوفه أنبوبة كاملة من "موس" الشعر، عندما صار في مواجهتي تماماً شممت رائحة عطر نافذة، رغبت بشد ربطة عنقه وسحله ورائي على إسفلت الشارع وإيساعه ضرباً وتأنيباً للخسة التي عامل بها الجسد الذي لاحقه وهصره تحت درج عمارتنا، لكنني لم أفعل، قال:

- مرحلب

- مرحبيني.

- والله زمان يا "نارة" .. شو أخبار الصحافة؟!

أهلاً! صاحبنا يتلطف ويدردش، وأنا أتجاوب!

- أخبار الصحافة في الصحف.

"ها.. ها.."، يضحك بغباء كأني أمازحه، أتحرك من مكاني تاركة جسده يسد الشارع، فصلتني ثوانٍ فقط عن صفعه أو شد ربطة عنقه، ودخلت البيت متوترة بعض الشيء قبل أن أضحك من نفسي، إنه مجرد فتى قميء يفتقر إلى الرجولة، وإن كان أنجب طفلاً تضحج صالة المنزل بصراخه عند دخولي.

هتفت "فتحية" جزعة:

- استنيت تيجي إنتي ولا عمك، الولد نافوخه زي النار، بدّي اوخده ع الدكتور.

- "موفق" تحت بالحارة، ناديه، هو أولى.

صفقت الباب خلف ذهول "فتحية" وفمها المفتوح وعينيها المذعورتين، ألقيت حقيبتني فوق السرير ورميت بجسدي وراءها مقاومةً نخزة حزن عابرة، كما لو أن روحاً شريرة تحاول الاستحواذ عليّ. ما ذنب العالم إذا كانت كل طرقاتي محكومة بالفشل!

أي فشل يجلّني الآن؟ كوني في آخر سلّم المنصب الصحفي، وبالكاد أتمكن من الإبلاء فيه؛ أم هي مسألة "شعبان" والبيت! أهو جدّي معطوب الدماغ الناسي في زمن نحتاج فيه للذاكرة! جدّي الذي لم أره منذ يومين! أم هو الكرسي المخملي الفاخر الذي وفرته المحكمة لرئيس المخابرات السابق أثناء محاكمته بتهم الفساد.

هذا ليس عدلاً، فعمد أشهر وأنا أطلب الإدارة بكرسي دؤار غير الذي يوازن مؤخرتي وقد عرجت إحدى عجلاته فمال بي لاوياً عمودي الفقري. يتجاهلون م طالقي بكرسي عادي؛ في حين أن أدلة العصر الجديد يخظون بفراش مخملي وثير. لا أنكر أنني أتفصد حسداً تجاه تلك المعاملة الخاصة التي توليها حكومتنا، ومزاجنا العربي الطيب، موفرةً للمتهم كرسيّاً أحمر فاخراً مذهباً، من مبدأ "ارحموا عزيز قوم ذلّ".

يبدو هذا منطقياً ربما بالنسبة لكم، أما فيما يخص "نارة" الصحفية الصغيرة التي لم تكن يوماً عزيزة قوم، فيمكن إرجاء أمورها إلى أن يفرجها الله عليها فتتعلم كيف تعزّ حتى إذا ما أدلّتها الأيام انتصرت لها الشهامة والنخوة. بصراحة لا أعرف أي العناصر أكثر إزعاجاً لي في تلك اللحظة، ولأني لا أريد تسليم روحي لعقدة الاضطهاد التي تمارسها الشعوب المستضعفة أغرقت

عقلي وجسدي في نوم عميق لم يسبق لي أن جرته، حتى إن غطائي ووسادتي تركا على جسدي أنلاماً وخريشات، وتغصن خدّي وفقاً لثنيات أقمشة تخشنت بفعل القدم، وبدا كما لو أن "حسن" يخاصمني أيضاً، لعله ملّ مزاجي السوداوي.

أيقظني من سباتي الأعمق قرعُ بابي ووشوشةُ خافطة ينادي بها عمّي عند باب الحجر، حملت دقاته الرصينة المهذبة رسالةً حول أهمية زيارته الغامضة الصباحية إلى حجرتي، لم يسبق له ولوج صومعتي، وكان لهكانه أن يستدعيني إلى الصلاة!

اختلط الارتياب بالوسن، ولكني همست ببحة ضجرة:

- تفضل.

ضجر صباحي معطوف على قلق مسائي، وعمّي ي تصرف كأنه يمتلك سرّاً حول سلاح كيماوي يجب مناقشته بعيداً عن مسمع "فتحية"، لسبب ما ظننت أن الأمر أشبع نقاشاً في فراش "فتحية" الكئيب قبل انتقاله إلى حجرتي، لا أكفّ عن الشك حتى في مواجهة تصرف بسيط وعادي مثل هذا ؛ في حين تفوتني المؤامرات الكبرى في الحياة، لا أكتشفها إلا بعد حدوثه.

جلس عمّي على طرف السرير، وتلقت بعينه يستجمع شجاعته متظاهراً بأنه يستطلع تفاصيل الحجر، وليؤكد هذا الأمر، همس:

- حلو.. اللون.

لا يخلو لي أن أفتح فمي بجديث لحظة الصحو من نوم ثقيل، فكيف إذا كان المطلوب حواراً باهتاً حول لون الحجر يُفرش لمجاملة مجهولة بالنسبة لي . اكتفيت بالصمت وهرش وجنتي بأصابعي، تنحنح مرتين قبل التفوه بكلمات مرتبة متسارعة كأنه خائف من نسيان ما تدرب عليه مسبقاً. أظنه قال شيئاً عن كوننا عائلة مستورة، وعن احترام الحارة لاسم جدّي وأبي، وربما أشاد بلنجازي الخاص كحفيدة بائع هريسة صارت صحفية لامعة، قال شيئاً عن احترام الناس، وأمر ما يخص "شعبان" الذي نريد له أن يكبر بيننا معزراً . طيب! كما يقول المصريون في الأفلام، "هات من الآخر يا عمّ".

صارت "نارة" صبية وعروساً، أعرف، مرآتي تقول لي هذه الحقيقة منذ سنوات، ولكن الحديد

الذي قاله عمّي من دون أن يمتحوز على اهتمامي في البداية، أنني وأخيراً حظيت بعريس، بالنسبة لفتاة مثلي لم يكن هناك أيّ سبب للسخرية ، من الطبيعي أن يحدث هذا يوماً، ومن الخبث أن أدّعي أنني لا أنتظر أحداً كسواي من الفتيات، بصفاتي المتواضعة لن أستعلي على العادات وأرفض هذا المصير، ولكنني ابتسمت ساخرة، علّي الحصول على مباركة "حسن" الجالس محايداً على الطرف الآخر من السرير، قلت لعمّي:

- طيب، مين عريس الغفلة أعمى القلب؟

- "موفق".

ارتعشت الحروف الأربعة على شفّتي العمّ الذي يدرك وقاحة ما يجرضه، ويمضي مستنداً إلى غفلي..

- "موفق" ما غيره!

الصورة الرائقة لفتى يذرع سطح منزله رافعاً كتاب التاريخ في صبيحة امتحان التوجيهي تشير التعاطف، لكن صورة الجسدين المتداخلين تحت درج بيتنا تلح وتقطّى في مخيلتي مانعةً احتمالات التعاطف، لم تחדش حيائي مداعباته "وداد"، ولكن تلك النتيجة المذهلة التي أثّرت بشراً يسمّونه "شعبان" وينسبونه لعمّي، كائناً لحمياً دبقاً صادر بيتي إلى الأبد، كائناً بريئاً في جوهره إلا أنه وُلد لصاً.. يصير لالتصاق الجسدين الفارع والمكتنز دلالات كثيرة أبعد وأعمق من الصورة، يتململ عمّي في طرف السرير حيث البروز الخشبي يضغ فخدديه، وتغطس مؤخرته عند الانخساف الناجم عن الفراش اللين، سيسعدني أن يعثر على كدمة بنفسجية أعلى فخذ غداً، لعل رضّة في اللحم تؤلمه.

قلق وتململ أكاد أشم رائحة احتراق أعصابه، و إن نظاهر بالهدوء .. كل الخيوط في يدي . أشعر بموقعي يتيح صفع الجالس أمامي بيسر و من دون تبعات من تأنيب ضمير، هل أخبرته "فتحية" عن تعليقي اللئيم؟ هل جاء "موفق" في غفلة مني ليعبّر عن وله بعد هذا اللقاء العابر في منتصف الشارع! ما هو لون فستان "مونيكا لونييسكي" الذي طار معه رئيس الولايات المتحدة الأم يركية؟ الآن أعرف أنني أهلوس، ما الذي جاء بفستان المتدريّة البريعة في البيت الأبيض إلى حجرتي في اللحظة التي ينتظرون مني فيها إعلان موافقتي على الزواج من الفتى العائد

من حقول النفط في الخليج والساكب علبة "الموس" كلها على شعره الملتصق اللامع، هكذا يرسمون الحكاية السعيدة، سيدخل "موفق" إلى بيتنا ويرث ابنه بيتي، ويرثني هو، ويتأكد عمي وزوجه من انجاس لساني ما حييت، ونعيش في تبات ونبات، وقد نلخف صبياناً وبناتاً، إخوة وعزوة وسنداً للعزير "شعبان"، و"توت توت" خلصت الحدوتة"، وينسدل الستار. بارع عمي وزوجته في تحويل التراجيديا إلى ملهاة ممتعة بنهايات سعيدة، قُبِلَ وابتسامات عريضة، ولكني ممثلة سيئة للغاية، أحبس ضحكتي فيحتقن وجهي احمراراً لا علاقة له بخفر الصبايا، يتنحى عمي مرات، ويصير لزاماً عليّ أن أضع حداً لهذا العزف الغامض المنفرد، أتففس كي أسيطر على عضلات وجهي الضاحكة، ثم بهيئة ممثلة أحنى جذعي إلى اليمين و أدير رأسي يساراً، هكذا صرت في مواجهة وجه عمي تماماً، هربت عيناه من عيني، ولكني ناورت قليلاً، تستهويني لعبة القط والفأر، ابتسمت بوداعة لثانية فخدعته، منحته ابتسامتي اطمئناناً مستريباً فتجاسر على العودة بناظره إلى وجهي، سحبت كمية أكبر من الأكسجين وأوشكت على تفجير قبلة روحي المكبوتة، وظل "حسن" يخاتلني من وراء ظهر عمي، يرجوني المحافظة على وداعة الماء، يسكب ماءً على ناري، واتي الفرصة لإشهار خنجري ولم أفعل، وقفت بجزم مهذب:

- يدور غير عروس، أنا ما بوخذهد.

- ليش؟! -

سنتحاور!! حذار أيها العمّ العزيز، سيستدعي الحوار الشريرة فيّ، عندها لا ضمانات على أن شكل الحياة سيستمر على ما هو عليه، عليّ أن انهي الأمر قبل تغلّب منطق الغضب، قلت بهدوء:

- ما بعجبني، وسى..

وقف عمي متأرجحاً مثل حصان كبا، تهدّل رأسه بين كتفيه وهو يغادر غرفتي، لم أتوقع انسحاباً هزياً مثل هذا، إلى متى نظل وهذا العمّ الحبيب نرجى صدامنا؟! انكفأت في حجرتي لا أخرج إلا إلى المرحاض، وعاملت "حسن" بجفاف، حملته مسؤولية طيبي في التعامل مع فرصتي الوحيدة للانتقام، ولكني في أعماقي كنت أدرك أني أحاول حمايته من الاكتئاب الذي ألمّ بي، اكتئبت! أنا "نارة عدنان" المتوهجة دائماً وأبداً، الساخرة التي تحملت

لطمات الحياة الخفية ضاحكة هازئة، يصيبني الاكتئاب، هذه نكتة، ولكني حبست جسدي في الحجر ليومين حتى صار أحضرها حشيشاً ميتاً، مررت أناقلي فوق الأشياء المتناثرة، الإطار حول صورة زهرة، علب الزينة، دُبّ أبيض بأذان خضراء، أقلام وأوراق وبطاقات دعوة قديمة إلى مؤتمرات صحفية، علق الغبار برؤوس أصابعي، فتسلّيت بنفخه في الهواء ومراقبة تساقطه مجدداً فوق الأشياء نفسها، الواضح أنني أهملت تنظيف حجرتي مؤخراً، لم يقرع أحد بابي ليومين متتاليين، تناولت كِسراً من بسكويت جاف، لم يكلف الزملاء أنفسهم بالسؤال هاتيفاً عن الزميلة المتغيبة .. قبل خروجي للقاء الدنيا مسحت الغبار عن كل جزء في الحجر، ووصفت شعري، ملونة شفّيّ بوردي لا أعرف في أيّ الأدراج العتيقة عثرت عليه، تج لس "فتحية" باسترخاء فوق أريكة الصالة تشاهد أغنية ضاحكة لمحمد هنيدي وهو يلعلع مرتدياً ثوب امرأة "وراس أمي تعبانة"، نعم، "وراس أبوي تعبانة"، قطعت "فتحية" ضحكها اليلهاء عند مغادرتي غرفتي وعدلت جلستها ضامّة "شعبان" إلى صدرها كأني سأعضّه! فلستقام ظهرها، هذه اللئيمة لم تسأل إذا كنت قد تناولت وجبة خلال أيام اعتكافي، على أية حال هي ليست أمي، فعلى ماذا ألومها؟ قلت بلهال:

- هاي.

لم تردّ، ولم أنتظر، واصلت خطواتي وفتحت باب المنزل، هبطت الدرج بجسد متهدل، حاولت رفع رأسي قبل دقّ باب جدّي مرتين، دقق الرجل الناسي في عتمة الحجر وأنا أنسلّ مثل طيف الرعب، زمّ شفّتيه وعينييه ثم استرخى فابتسمت، لعله تعرف إليّ! لم أره منذ زمن، حتى أنا نسيت، كان يعرف ألقا سنسناه، فقرر نسيان الجميع قبل أن يغتالوه بنسيانهم .. خبيث هذا الجدّ الحبيب. جلست قربه، رائحته مزيج من عرق جديد و آخر جاف، وشذى خفي يماثل تلك الرائحة المنبعثة من رجع الحليب في فم "شعبان"، فاضت روحي وانثى رأسي يبحث عن متكاً .. رغم أن كتف جدي صلبقوحافلة بمديبات تنغرز في فروة الرأس إلا أنني استرخيت تماماً، واستمر على حياده لا يستجيب للحظات وجعي ولا يحرك ساكناً، كأنما رأسي المنثني الباحث عن أمان، وهمّ لا ثقل له، وان استقر بحمله ووجعه فوق كتفه. في هذا الفراغ الموحش عادي "حسن"، مرر كفه فوق خصلات شعري، متجاهلاً جدّي الذي يتجاهلنا جميعاً، التقط "حسن" بجنوّ شفّيّ



الحزبنتين، شعرت بحرقه دموعي بطل أسفل ذقني وفوق الكتف المحايد ة الذي مرغث عليه ا أشجاني، بكينا قبل أن يعنّ على بالي أنا و"حسن" أن نضحك ونغني "ضحك طفلين معاً". لا أعرف امرأة بمثل سذاجتي.. في الوقت الذي يستوجب الفرح أشعر بالحزن، أخشى أن يعاودني الشعور المرير كثيراً في سنوات عمري اللاحقة والمتاحة، لعلي أُصبت يوماً في مركز المناعة النفسية إصابة طفيفة تفاقمها الأيام، ومثل ذئبة تسعى للبقاء ما أزال أتمتع بالقدرة على لعق الجراح .. عاجلت مجمل الجروح في الماضي، وليس من الذكاء أن أسمح لحدث تافه وعابر أن ينكأها مجدداً، وإن ارتخت همتي ليومين لئيمين لعبا بجراحي، فلقد تعافيت وعدتُ إلى صحيفتي، لم أعاتب أحداً لعدم الاستفسار عن غيابي، في الواقع أنا لا أفقد أحداً إذا غاب، ولا أتوقع أن يفتقدني أحد، وليس من المنطقي أن أشتاق لـ"سحلية" أو "كعب الكباية" أو "منذر" ولا حتى لـ"أمرك سيدي". وجدت الزملاء غافلين عني، مهتمّين أكثر من أي وقت مضى بحدثٍ محليّ، المحلية لا تعني أننا نتحدث عن تعبيد شارع على خطّ الموت السريع بين عمّان والكرّك، وليست قطعاً ردم حفرة في ماركا، لقد فوجئت بأن محليّتنا انتفخت أوداجها، وتكوّر بطنها، وتلوّنت بالخطوط الزرق والحمرة كما لو أنها إعلان لمعجون الأسنان "سيجنال 2"، وباتت تضاهي العالمية أهميةً وفائدة، و إلا ما الذي دفع الزملاء للتناطح لتغطية أحداث المنتدى الاقتصادي العالمي المنعقد في البحر الميت؟! صغار يبحثون عن بدل مادي لأبني مهمة، إنها مبالغ صغيرة بخيلة، لكن مهامها متعددة، للزملاء أبناء وزوجات و أمهات، ولهم مرضى، و أقارب يتزوجون، وفي بيوتهم أن اييب معطوبة وأسقف تدلف من حمّامات الجيران، ولهم أحلام متواضعة في مشتريات أساسية وأخرى نافلة، مكيف محليّ يعمل على الماء، مدفأة علاء الدين الحديثة، شراشف ل لأسرّة، فيديو، خروف، نذر نجاح الولد في التوجيهي، كلها أفرح صغيرة لا يتمكّنون من تحصيلها لولا انعقاد المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، وأنا التي تكالبتُ على فرص المهنة فيما مضى، أتغفّف تماماً كأني زاهدة بوذيتي.

هناك حيث البحر غير قادر على ا لإدلاء بشهادة غير الملح القراح، اجتمع العالم يرسم صيغة جديدة للاقتصاد، بعد هذا الحدث الجلل لم يعد لائقاً استضافة ذاكرتي لعَمّي و"فتحية" و"موفق"، غسلتهم بملح البحر الميت، ولو لم يتم اخيطني للذهاب إلى هناك .. كان لا بد من

إرسال المراسلين الأقدر على فهم كيف يُدار الاقتصاد، وأنا بصراحة لا أعرف من أين تؤكل الكتف، بل وإني أترك نصف لحم الفخ ذ في عظمة الدجاجة المشوية التي أبتاعها من "مشاوي عمّان" في شارع الصحافة كلما استبد بي الجوع، تبّهني "حسن" إلى هذا البطر، ولكني لا أتجاوب معه تاركاً فتات طعامي لقطط المزابل، على الأقل أشعر بشراء يمنعي من نهش لحم يفيض عن شعبي لأهبة أقاربي من الحيوانات الأليفة .. من الطبيعي أن فتاة تجهل التدبير الاقتصادي مثلي، وتتغيب يومين عن العمل من دون إبداء الأسباب، س تُحرم من النزول إلى البحر الميت، لهذا كانت مهمتي رصد الصور القادمة عبر جهاز الكمبيوتر عن المنتدى، ثم تحويلها إلى جهاز التنفيذ في قسم المونتاج، لأكتشف أن المثقفين توقفوا عن التنفس في تلك الفترة بانتظار ما تسفر عنه توصيات المنتدى، لم يُعقد نشاط واحد ولا حتى أمسية شعرية لمبتدئ ينثر الكلام ويهيم في العبارات، فقد زارنا أكابر العالم وأثريائه، وتجنبت بنات الاستقبال الذكيات المنتقيات بعناية ارتداء الفساتين بحضور الرئيس الأسبق "كلينتون"، كازانوف الأميركي، توقفنا لمراقبتهم يستمتعون بالنخيل المتمايل في الفنادق الفاخرة في غور الأردن حيث شجّت حفرة الانهدام العظيمة العالم إلى نصفين طويلاً، مما يثير دهشتي، فإذا كانت الطبيعة قد اختارت التقسيم الطولي، لماذا يقوم البشر ممثلين بالكتلات السياسية الكبيرة بتقسيم العالم عرضياً؟

كل ما جرى في البحر الميت ليس مهماً تماماً بالنسبة لي، إذ ما أزال ألمح الموظفين يسارعون الخطى للحاق بالباصات عند الفجر، وما أزال أشعر بالغرابة عند دخول فندق "الرويال بلاس"، لكن المهم حقاً، والذي يهيج وجوهنا أمام الزوار الأكابر، هو حلّ المشكلة الأزلية لمنطقة البحر الميت بإعادة الذباب الكبير الطنّان الذي يجب مرتادي المكان عادةً، ويتعلق بأكياس النايلون وشطائر اللبنة في أيدي الصغار، وفتحات كاسات الشاي المحلاة، كما يخلق حبوراً فوق أسياخ اللحم وهي تُشوَى في منقل الفحم .. لقد وقعت معجزة حقيقية، فلم يصادف الزوار ذبابة واحدة من تلك التي تتمسح بجلود المواطنين كالقطط المنزلية .. حدثت إبادة جماعية لأسراب الذباب ترحيباً بالضيوف، لقد داهمت المبيدات الفتاكة كما تفعل صواريخ شارون في المخيمات الفلسطينية. وعلى أهمية هذه الخطوة الحضارية في باب مجاملات الزوار وكرم الضيافة الذي يشهد القاصي والداني لنا بالتفوق في مضماره، إلا أنني ولجورد المخالفة، أعجّ ما حدث تعدياً صريحاً على

البيئة وموجوداتها، وقد شعرت بالسعادة عند انفضاض المنتدى وعودة الذباب الذي سرعان ما تحركت جحافل الميمونة من مناطق الأغوار المجاورة لتحرير مواقعها من الغرباء والعودة إلى مواطنها مجدداً.

بعد انقضاء المنتدى لم أعد أنقل الصور عبر الإنترنت إلى قسم المونتاج، ولم يُبَدِ المدير الموقر أية إشارة تكليف بعمل محدد لي، وكانت لديّ أسبابي في عدم العودة إلى البيت .. ليست مرابضتي في المكتب لنهارٍ بطوله، وتحملي السندويشات البايطة في كافيتريا العمل كلّها همّة ونشاط أُحسد عليهما، كنت أعمل القلم لساعات في كلمات لا معنى لها، أخطط، وأحياناً أنسخ أوراقاً متناثرة حولي، أو أخباراً قديمة، وأردّ على الهاتف فأتسلى بمحاولة معرفة أشكال الناس من أصواتهم، بعض الأصوات تسمح بمعرفة أعمار أصحابها، أما الأشكال فهي اختراعي الخاص، أعرف أي أقع في بئر الملل.

\*\*\*

منذ الخطوة الأولى في الحارة، وعندما يلوح دكان موظف المخابرات السابق تبدأ رحلة الغربة، لو أن جدّي العنيد المغلق كصندوق في قاع البئر يتلطف يوماً فيردّ السلام، لكان هناك ما أنتظره من هذا العالم المنطوي على أسراره، أجسد "حسن" بمجرد مروري من الصالة الكئيبة المقفرة إلا من أشباحها الثلاثة، عمّي، وزوجته، وابنتهما المزعوم، بتّ الحظ انقطاع زيارات "أم صبحي" و"وداد"، هذه الـ "فتحية" لا تخلو من بأس، لا بد أنّها عاجلت الأمر بنجاح لتحمي أسرتها الصغيرة من الطفيليين، قرأت تعاويذ سحرها الأسود كي تغيب المرأتان من حياتها، وظللت وحدي عصيةً على السحر، شوكة في الخاصرة، وغصّة في الحلق، أشعر بثقل وجودي، لهذا أمرّ بسرعة موصدةً بابي خلفي، أحياناً أخرج إلى الحمام وأرمي بأكياس البسكويت الرخيص على الطاولة وسط حجرة الضجر، قائلة:

- هذا لـ "شعبان".

بلغ الرضيع سن الفطام وما خرّ له جبين، اللهم إلا جيبني، بات "شعبان" يقضم البسكويت كما يقضم عمري وحجارة بيتي، أساعده على سنّ أسنانه بصورة تليق بابنة العمّ البارّة، تقلّب "فتحية" مربعات البسكويت من دون تعليق، عندما أخرج من الحمام يكون الرضيع قد فتّت

بسكويتي فوق "مربلته" المتسخة وعلى الأريكة وتحت أقدام أمه، أغلق بابي وتأمل خضرة حجرتي، ثم أمدد جسدي بالكامل على فرشتي المنبعجة صعوداً وهبوطاً كما تضاريس جسدي، يتبخّر الناس، ويسقط سكون ناعم، تنعدم المهمات الغامضة من الجدار العازل بيني وبين الحارة الهرمة ويتلاشى الوشّ المنتظم لجهاز التلفاز في الحجرة المجاورة، و أستدعي ارتباك الحب ووهمه الغامض، يتجلى سحر الخيال كأن نبع ماء يغدق من مكان عميق، ويسيل فوق صخري وناري، تتردد أنفاس "حسن"، تداعب بهجته الروح، ويتنزل عليها غموض وفتنة الحب المستحيلة، طاقة الحنان الماتعة التي يشكلها البشر في مخيلاتهم مثل الطين الزلق بين أنامل فنان يحوله إلى إناء فخاري، هكذا يمنح العشاق أحبا ءهم قاماتهم الفارعة ومحاسنهم السماوية، هكذا يتشكل المستحيل، وتسهل رؤية اللاموجود بتاتاً، لماذا لم أعثر على رجل من لحم ودم ألبسه ثوب خيالاتي؟ لماذا يعجز الرجال الحقيقيون عن إشعال فتيل ناري؟ لماذا أشك أساساً بأن أحداً خلق مستحقاً للحب الكبير الذي أملكه، ولماذا أكتفي بطيف يمنعني من مجرد الاقتراب والتجربة؟ رغم تسبب هذه الأفكار بوجع يتسرب في فلجات اللذة ويحوّل دون اكتمالها، فليني أدوي مللي لمئة عام قادمة، مثل بنت على أرجوحة، دخت، ولا أرغب الترحّل.

أعاقب محبتي بإخضاعها لمنطق التحليل، أتهم "حسن" بلُنه وراء ضباية الرؤيا وحجب الآخرين عني، وصرم آذاني عن نداءاتهم، رغم أن قلبي فراشة تتخطفها بهجة ألوان الربيع، أقدر الجمال وأتبع دروب الشذا، ألمح بفرح التماعات الوجد حينما ألتقي برجل جميل، لا يعاتبني أحد على استخدام صفة "الجميل" عند الحديث عن الرجال، لا أعرف من هذا المأفون الذي ربط الكلمة ربطاً محكماً وفجاً بالنساء وحدهن، فالرجال لا يخلون من الجمال، أيبدو ما أقول تناقضاً واضحاً بين إقبالي وإدباري؟! ربما، ولكني محمّلة بجدس لا أحسد عليه، أتمنى لو حُرمت هذه النعمة المقيتة، فمنذ لحظة الملامسة الأولى بيني وبين أيّ رجل، عندما تمتد اليد للسلام المحايد البريء، ترتقل في ثانية كل جينات الرجل الذي أودع كفه كميّ خالي الدهن، فأرى الخديعة في اللحظ الفتان، في زاوية انطباق الجفنين بالتحديد، ألمح الازدراء المتواري وراء نظرة الإعجاب، والعطاء المحسوب بقطارة في ضغطة الكفّ على الكف، وأقدر برودة القلب وفتورته في حرارة الابتسامة المغتّعة، وتقول لي العيون إن كل ما هو متوقّع مؤقت وخادع وغير ما يبدو تماماً، لحظتها ترتفع

الأسوار العالمة بيننا، تنطلق صفارات الإنذار في قلبي وعقلي.. وي وي ويبيبيبيبي، أسمعها  
ترحف كياني وتحرمني من متعة الذهاب إلى لحظة مضيئة، يصير الكون مظلماً، لا يمكن القول  
إني أبني تصوراتي بناءً على تجربة فاشلة أو موقف مسبق، ربما كان من حياة ماضية لم تعشها  
"نارة" التي تحكي اليوم، هذا الحال ليست مصدر سعادة لي، فمثل كل امرأة على وجه الأرض  
أشتهي أن يغشني أحدهم مرة ومرتين وثلاث، أن يلتبس كلامه عليّ، أن تعمى ظنوني ويموت  
حدسي، فلصدقه، ثم أقتسم قلبي معه مثل رغيف، ولما لم تقع المعجزة بعد، وما أزال في انتظار  
غودو! من غودو هذا؟! اللعنة على عشرة المثقفين والمسرحيين ومجانين الكتابة الذين يلحسون  
عقل المرء بنمادجهم المضحكة وأراجوزاتهم وفزاعات الحقول وأوهامهم المخيفة، أما أنا فأكتفي  
ب"حسن" ويكتفي بي، أتوجس ضياع العمر، أرقب في منابت شعري شيئاً مخادعاً يتسلل عند  
المفارق، فأعمد إلى تلوين شعر فوديه بالفضي البديع، أشببه معي، وأعدّ معه آثار ضربات  
السنين على وجهينا، تجاعيد صغيرة فاتنة تلوح في الثنايا حيث ابتسامات العيون، وفي انحدار  
الأنف إلى الذقن، في الغالب تثير هذه التفاصيل الاشتمزاز عندما يتعلق الأمر بوجه يحدق ببلاهة  
كما "موفق".

أنحشر بين مكتبي وحجرتي بين حبر الورق وطيف "حسن"، يصبح العالم صغيراً وموحشاً، فكل  
مخاوفي من البشر لا تدفعني للاعتكاف النهائي في حجرتي الخضراء، ربما إذا شئت ولم تحملني  
أقدامى بفعل هشاشة العظام، أو خانني جسدي بكساح مفاجئ، أقول ربما أصل إلى مصالحة  
مع الهروب من العالم، فأكحل عينيّ الك تلب المنطفئتين، وأربط شعره المغبر بالشرائط، أسميه  
تأملًا، وأمنح أحزاني وأوجاعي صفة الفلسفة، أما اليوم وأنا بخفة ريشة عصفور، فإني أشتاق  
للنشاطات التي تخلط البشر وتوزع الأرباح بصورة تضحكني وتغضبني ولا تحقق سعادي، ولعلي لا  
أبحث عن هذه السعادة إطلاقاً، لا أتمتع بصبر وحمق الفلاسفة الباحثين عما يسمونه "الخلاص"،  
ربما كنت أتمتع بدور الشاهد أو بتلك الخلطة السرية بين الجمال والقبح في العالم، بين الفرح  
الذي يتأتى من تفاصيل صغيرة لا تغير في مسيرتي شيئاً، وبين الحزن المنهمر من فيضانات الدنيا  
كلها، هكذا أتمشى على برزخ سعادي ولا أجهها، أريد أن أضحك، أريد أن أعمل، أن أغذي  
مزاجي كمتعاطي الحشيش، أن أحب الناس، أن أعدّل ثقافتني أيضاً.

أغلق بالشرك كلما سمعت بكاء الرضيع ووقع نعل عمي متنقلاً بتثاقل بين حجرته والحمام، تجوس "فتحية" البيت حافية في معظم الأحيان، كأنه بيتها. وسط تيارات التناقض التي تغمر أوقاتي أفكر بفعل شيء جديد، شيء يحولني إلى فتاة لا هم لها، ينسخ بطفرة عين كل ما حولي. بدأت أفكر بالمشي الطويل مثل السيدات الممتلئات اللواتي يربطن شعورهن شاذات بشرة الوجوه الناصعة وهازات أردافهن المثيرة فائضة الأنوثة في محاولة لمعاقة كل هذا السخاء وضبطه في بنطلونات الجينز القبيحة، النساء اللواتي يتمشّين عصراً في شوارع "الرابية"، الفرق بيننا فائض في اللحم يمتزّن به، اخترت "جبل الأشرفية" ملعباً لرغبتني الجديدة، س أذرع هصعوداً وهبوطاً كأني أوسّع حجرتي الشخصية، ليس منطقياً حصر العالم في خضرة الحجر التي تجثم على القلب حيناً، وتشق شرايينه عنوةً أحياناً، يمكنني مدّ مساحة سروري البسيط المتواضع عبر طرقات الجبل العتيقة، لو مررت بباب المستشفى أو المسجد، وإن ارتاب المصلّون بفتاة ترتدي الجينز الضيق على أرداف مُذابة؛ في حين ترم المحجّبات آمناً وقد احمرت حدودهن بفعل الخجل أو تراكم بوردرة المكياج رديئة الصنع، تردّني النظرات المستريبة على عجل لأمارس رياضي اليومية في الأحياء الداخلية، أراقب الصبية وهم يلعبون الكرة ويتلصصون على مؤخرتي التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وأسمع عباراتهم المضحكة وهم يبحثون عنها مشتعلين حماساً، والملح رؤوس الأمهات تطلّ من شرعات النوافذ، وعيون الباعة الجالسين في بوابات دكاكينهم تتحرك برزانة خبيثة مع التفات طفيف لأعناقهم، أشعر أن وجودي محقق ما دام هذا الجمع من الناس ينظرونني وينتظرونني، لا عن افئف بي، ومن قال إني أنشد فنتتهم واللعب برؤوسهم الطيبة! فقط أريج من مشاويري الساذجة أن ينطوي مروري على معنى ما، من دون تبادل ثقل من أي نوع مع الكون، لا أثقل كاهله بجسدي وروحي، ولا يثقل صدري بتفاصيله حلوها ومرّها، أصير خفيفة متحررة، وقد أمرر رائحتي بالمكان ليدروها الهواء أو أطبع فوق التراب مقاس قدمي الذي سيمحي بمرور عجلات سيارة أو خطوات إنسان أو حتى قطة شاردة، لهذا أفرعتني كفتّ "وداد" وقد أطلقت على ذراعي بغلظة عند عودتي عصراً من مشوار المشي الممتع، كأنها عثرت على لقية.. إن مجرد اقتراب أحدهم مني بعد ساعة متواصلة من المشي يربكني، يوقعني ببعض الشك في أن رائحة عرقني تفوح من إبطي، فاجأتني "وداد" كجنيّة، فقابلتها بجفاء، تجاهلت نفوري

وأحكمت قبضتها على ذراعي، سحبتني وراءها بإصرار لزج، قالت باستعطاف:

- الله يخليك، بدّي أحكي معك، تعالي شوي، شوي، مش رح أأخرك.

لا أرغب في الحديث معها، لكنني انسقتُ وراء انكسارها بفضول مستتر، توقعت متعةً في جانب من الحكاية، وقاومت الدهشة التي اعترتني عند دخولي بيت "أم صبحي" الذي لم أدخله منذ كنت طفلة.

كم ابتعدت عن الناس وابتعدوا عني، عندما أشعر بمثل هذه المفارقات، تعاودني فكرة أن وجود "حسن" في حياتي شرح علاقتي بالبشر، وأقام السدود والحدود، وصادر اقترابي من الآخرين، وأحار إذا ما كان هو حلاً لغرّبي، أم سبباً فيهما.

أطرد أفكار الشيطانية وأأمل المكان، كل الأشياء في مكانها، فيل خشبي عتيق انشقّ بطنه بفعل الجفاف، ومنفضة سجائر نحاسية اسودّت الخنءات وخطوط الزركشة فيها، حتى تلك المزهرية الزجاجية الملونة بفجاجة وزهورها البلاستيكية الوردية مغسولة ومنتصبة فوق طاولة الصالون المربعة كما كانت منذ زمن مع مزيد من الحدوش والتخرشات التي رُسمت فوق سطح الطاولة.

وحدتي تغيرت! كبرتُ وقستُ ملاحمي واشتد جلد ذراعي وبتّ أتحمك برعشات وجنتي إذا اهتزت، ربما تغيرت "وداد" أيضاً، رغم كونها ترتجف مستجيبةً لضربات عواطفها الحمقاء، تلك التي كانت "مربرية" بدت شديدة النحول وعيرها غرقان في تجويفين رماديين، وقد ضمّرت وجنتها، واختفت ريلتا الساقين الممتلئتين وراء قماش البنطلون البني .. حذّرني عقلي من التعاطف، ففكرت بالهروب السريع من البيت الذي يفوح برائحة الوجيعة، يمكن أن أقف على حين غرة وأركض نحو الباب كمن رأى شبحاً، ولست مدينةً لها بأي تفسير أو تعليل، احتمال اندلاق أحزانها على يدي يزعجني، لكنني أثبت في المقعد مدقوقة بمسمار الفضول والحشيرة، أقول:

- أنا مستعجلة.

لم تسمعني، جلست إلى يساري حائرة خائفة لثوانٍ، ثم انتقلت إلى يميني بقلق واضح وأنفاس مهممة، انسكب الوجد من عينيها فطارت كل إمكانية لتعاطفي، لا أحب هذه البكائيات ولا

استعداد عندي لتراجيديا الأنسة "وداد"، أطاحت بفضولي لأشحد في وجهها سكاكين قسوتي وإهمالي، لا يمكن التكهن بالأسباب التي تدفعني إلى مثل هذه القسوة تجاه رقيقة الطفولة التي تجيد شطف الأدرج.

التمعت دمعتان كبيرتان في فضاء عينيه!

- صحيح بدك تتحوزي "موفق"؟!

سقطت الدمعتان، عاودني التعاطف ممزوجاً بالسخرية، لعل ملاحمي رقت لحظتها وفقدت شيئاً من قسوته.

- موفق! مين! هذاك الهبيله!

ارتعش صوتها وانحدرت الدمعتان خطّين:

- يعني مش مزبوط؟ إشاعة؟ مش صحيح؟!

وصلت الدمعتان حتى نهاية دقنها وانفلشتا:

- شو هو هذا اللي مش م زبوط؟ أعوذ بالله، طبعاً مش مزبوط، أصلاً لا هو بطيقي ولا أنا بطيقه، من زمان، من وين جبتي هالحكي؟!

يلهكاني أن أكون شريرة، فأدعي أنه غازلني رغم أنه لم يفعل صراحةً، ثم تقدّم لخطبتي وردّته، وهذه فعلها، لكنها غريقة وليس في الحوار إلا يدي، صارت فجأة امرأة مكلومة جريحة، وصار لزاماً عليّ أن أبدي مؤازرة نسائية أسوة بمفكرات "الجندر" وقضايا تحرير المرأة وانتزاع حقوقها، يلهكان الوغد الذي أحبّته أن يعلّق فؤادها على مذبح جزار في واجهة زجاجية وستظل هي أسيرته مثلما تقول الأغنية الشعبية "حبيبي لو ضربني بشبريته لامسح الدم وأمشي ورا خطوته"، كأنها مندورة للذل على يد الحبّ والغيرة، ينكفئ رَجُلها فقد يدها متسولة حياً مستحيلاً واهتماماً منقوصاً، تنسحل وراءه مخربشةً جسدها وروحها معفرة بتراب طرقاته، جريمة لا يطالها قانون، اغتيال كراهية على يد الحب، لن أسمح له بالانتصار علينا هكذا بمجرد المقاهرة الصبانية ولو كرهت أوجاع الصبيّة التي لا أحب أن أكون مكانها، ولا أتنازل عن الصورة الوردية الآمنة التي يوفرها "حسن" لصالح وجع مجنون لا معنى له ولا قيمة! تقول ناري إن هذه حماقة لا يجدر بالنساء الانسياق خلفها، ولكن وحالها نثير الأسي والمرارة، عليّ التصرف بنبل .. فيما بعد،



عندما أسحبها إلى الشاطئ الوهمي الآمن، يمكن أن أتيح المجال لخسستي كي تشمت بأوجاعها، سأنكر معرفتي بها وأنسحب تاركَةً لها معالجة جروح ذلتها وحيدة، أما الآن، فمن أجل نضال النساء التاريخي المجيد عليّ طمأنة خوفها، كلماتي حوّلتها إلى ذبابة طنانة، غمرتني بعبارات التقدير والعرفان الجوفاء، وسقّعت من الفتى مواردٍ اهتمامها وجزعها، قالت إن الأمر لا يهّمها، ولكنه مخادع يستحسن الحرص منه . لم أسألها عن التفاصيل وتركتها تعلّمني بحصافة وعن خبرة ضرورة الحذر من خبث الرجال، كل ما كنت أخشاه أن يصل تسارُّزنا حدَّ الاعتراف بشأن "شعبان" النائم في بيتنا، قطعت الحديث على عجل، كانت نصف راضية، كذلك كنت، فأنا لا أملك لامرئ (ولا حتى لنفسني) رضا تاماً.

\*\*\*

منذ غادرت بيت "وداد" ضاحكة، راضية بعض الشيء عن حكمي على الأشياء وتحكّمي بنزوات مشاعري، وأنا معجبة بحكمتي في مواجهة التفاصيل العاطفية المخلّة بالكرامة، وحصافتي وقدرتي على الاستماع إلى الآخريين من دون أن أكون طرفاً، كما أفعل مع حوار الزملاء في المكتب.

- إحنا شعب ما برضينا إشي، بنوكل وبننكر مثل البسّاس.

كل هذا لأني أبعثُ رأياً حول مقال صحفي كشف الطابق!

أكتب لإهمال شديد خبر خلاف نما إلى علمي في رابطة الكتّاب، أحاول أن أبود ذكية وأنا أشير إلى الوقائع من دون الدخول في معركة الأسماء، لم أنضمّ إلى حوار "سحلية" و"منذر" الذي يديرانه على بعد خطوات مني وكأني لا أسمع، توشك الطاولات أن تنقلب إثر نقاشهما السياسي، أضحك في سري كثيراً، إذ تبنغ أعراف الديوك الشرسة من مقدمة جبين كل منهما ملوّنة ومتشنجة، لا يستخدمان منقاريهما أبداً، كونهما ينتميان إلى فئة البشر الذين تلقوا تدجيناً حضارياً عالي المستوى.

كتب صحفي أم يركي مقالاً عن الأردن الواقع بين المطرقة والسندان، ولا أحب الإشادة بذكائه وحكمته وسعة أفقه كما يفعل السيد "سحلية"، ف"سحلية" هذه الأيام مخطّط بجرأة رسام حدثي، يخجل "سلفادور دالي" أن يضيف مثل هذا التنافر اللوني في لوحته، لكن "سحلية" أكثر

حادثة وجرأة، وقد تناثرت النجمات على وجهه منذ عاد من أم يركا ونال علاوة خاصة عن الخبرة التي اكتسبها هناك، والتي لم نلمسها بأنفسنا، ولكن رئيس التحرير، وهو الأقدار على قياس الأمور بحكم كرسية الوثير المجلوب أساساً من أميركا، لمس تلك الخبرة وثمنها عالياً.. بصراحة لست قادرة مثل "سحلية" على تصفح "النيويورك تايمز" والادعاء بأي فهمت مقال المدعو "آلان كاول". حتى هذا الاسم الفني لا يتجاوز أهميته عندي اسم "كعب الكباية"، بل إن الأخير يُفضله بما تتيحه خبرته من إخفاء عيوي في الكتابة، فإذا كان "كاول" هذا يدعي بأن الأردن مشهور بين عدوين، العراق و إسرائيل! فإني أستهجن كل كتب التاريخ والتربية الوطنية، وأتساءل عن المدارس التي أضع فيها صحفي "نيويورك تايمز" عمره من دون أن يميز بين العدو والشقيق. هو حرّ، أقصد هذا حد معلوماته، لم يَضِعْ له وطنٌ ولم يفقد أبلاً وكل حماسة صديقنا الأثير "سحلية" لن نتعني بأن معلوماتي مغلوبة وقد عشت عمري أتمتع بعدوٍ وحيد.. من باب المتعة أن يكون العدو واحداً، وأن لا نعلق في حجيم تعدد الأعداء والجبهات، ألا نستحق أن نلظر باتجاه واحد خائفين عوضاً عن التلفت المذعور لكل جهات العالم! وإلا ما الذي ذهب بأبي إلى فلسطين! ألي العجيب الذي يحضر كيفما شاء، ومن دون استدعاء، وفي وسط كتابتي لخبر رابطة الكتّاب، يتراءى أمامي معقراً بغبار طريقه، وقد علقت بعض أشواك في رداءه الكالح المخزق، وابتلّ بنطاله وهو يعبر النهر، يجلس اللحظة في مكثي منطعاً كأنه قادم من الموت، مبتسماً كأنه يتذوق الحياة، يمنعني من فهم نظريات "سحلية"، ومن إتمام المقال المحايد الذي أحاول تفصيله من دون إثارة النعرات، ما هذه الزناخة! يجب أن يكون حرس بوابات المؤسسات الإعلامية أكثر يقظة، فلا يسمحون بمرور الآباء، خاصة أولئك الموتى، المفقودين أو الشهداء. لم أتدخل في حوار العالمين هذا رغم رفضي لمقولة العدو الثاني، لم أبح بأفكاري، ف "منذر" يعجبني أحياناً ويكفيني مشقة فتح فمي، وهو ينبّه إلى عبارات المقال التي سمّاها "السم في العسل"، فعلى حين يدافع المقال عن الأردن، فإنه يسمّي الشعب بالمواطنين الحرونين. الله الله.. يشتمنا في عقر دارنا.. وينعت الجوار بالقسوة.. مشفق على بلدنا من شعبه ومن جيرانه العرب على وجه التحديد، لا أنكر ذكاءه في تحويل المعاني، ومزج الألوان وتضييع الملامح، والدفاع عن حكومتنا أو عرشنا، أشخبط بقلم أحمر مربعاتٍ في مثلثات في دوائر، وقد أقطع الخطوط أو

أقاطعها، "خرايش حاج" يعني، وأتفرج بفضول على الأشكال التي لوّثت بياضَ الورق. وقف مدير التحرير في الردهة منادياً باسمي، يا الله، لقد نسيت أني جزء من هذه المؤسسة الإعلامية، فإذا بالتكليف يتذكّرني، استثناءً، عليّ حضور جلسة مجلس النواب التي تنظر في قانون الخلع، نظر "سحلية" باستنكار قبل أن يفسر له مدير التحرير أسباب هذا القرار المتهور في تكليفي دون سواي، فالموضوع اهتمام نسائي تام، أحياناً يُحَيَّل إليّ أهم يتذكّرونني سهواً، همس المدير بلؤم في أذني وأنا أنصرف مليئةً نداء المهنة:

- من دون فخلقة، كلمة ورّد غطاها، اكتبني اللي بقولوه وسب.

أفسد فرحتي بذكر خيبتني.

قبل الوصول إلى ازدحام الحركة المرورية في قلب "العبدلي" توقفت بفولكسي "الصفراء في الشارع المقابل لمجلس الأمة أتأمل الفن الرفيع الذي هندس هذا المبنى وذلك التوؤم الفريد بينه وبين مسجد الملك عبدالله على الجهة المقابلة، يقع المبنى الجميلان الأنيقان على مفترق المساحة بين عمّان الغربية وقاع المدينة الشعبي، وتزدحم الطرقات بالسيارات المتجهة إلى العمق أو تلك الخارجة إلى الضواحي، وتصطفّ خلف مجلس الأمة سيارات المحامين والقضاة الذين يتوجهون إلى المحكمة العدلية في الاتجاه المقابل مرتدين بدلات أنيقة تميزهم عن أصحاب الحاجات المتعزّقين الداخلين من البوابة الفارحة نفسها ليحسموا بالقضاء أموراً تعقدت في مسيرة حياتهم، كل تلك الحركة المشبعة بصهد الظهيرة وسياط الشمس و أوجاع الناس وغاياتهم تلتفّ التفافاً قاسياً حول مجلس الأمة الذي شفطني لحظةً ولجّثُ بوابته، كأن هناك سحراً للمكان .. إنه الفيصل المدني لمدينتنا، وهو الوجه المشرق لدولتنا. هذا ما سأكتبه، أبتسم لنفسي كأني محترفة حسيمة، رسخت كليشيات الصحافة الرائجة مكانها في ذهني واستعدادي النفسي، ونظراً للحصانة التي يتمتع بها هذا المجلس الموقر، والشرعية التي استمدّها من الانتخابات الحرة (لنتصرف بطيبة ونسرى أمر كّي البطاقات)، فليس بالإمكان أن أسخر كعادي من الأشياء والبشر المحيطين بي، وهكذا أكتشف أن مزاجي السري ينساق مرغماً إلى حكم القانون والمتعارف عليه وحوله .. أسعد بكوني مواطنة نموذجية تحترم نوابها، رغم أني شخصياً تنازلت عن حقي وتهاونت بشأن الانتخاب، فلم أدمغ بطاقتي الانتخابية بالنجمة.

لكن امثالي لمواطني المحترمة والملتزمة بالشوايث لم يمنع نارقي المشاغبة من مشاغلتي في أكثر اللحظات أهمية، وحين كان النواب يترافعون عن قضايا البيئة ويشيرون بلستحياء مؤدب إلى بعض حالات الفساد والتطبيع، كصحفية تحترم مهنتها كان عليّ أن أهتمّ وأبذل جهداً في رصد أقوالهم، على الأقل لآمن ردّة فعل مدير التحرير وعدم اغتياله لي مجدداً بالتناسي، لكنني معذورة وأعرف الأسباب التي جاءت بنارقي المشاغبة إلى المكان، لم أتمكن من تجاهل النائب الذي يفقد توازن رأسه بين الفينة والأخرى فتسقط أجفانه ثم يتدلى رأسه إلى الأمام قبل أن يعدله في قفزة مفاجئة كلما سمع صيحة أو تصفيقاً في القاعة الدائرية، لم أتمكن من تجاهل التطريز الفلاحي للنائبة الجميلة وهو يلوح بكباقي الوشم في معصم اليد، مبدداً جهود أبناء المدينة في تمدين القاعة، ثوبها جعل للريف الأردني حضوراً فاقعاً.. شد انتباهي التنافر بين الثياب، لإشارة الأكثر أهمية على اختلاف المنابت والجذور في بلد صغير قادر على ضمّ المتناقضات تحت قبة البرلمان، أليست هذه التفصيصة مبعث فخرنا واعتزازنا؟ يجب أن أذكرها في تقريرتي، لكن الذي حال بيني وبين الاستماع الدقيق لمناقشة قانون الخلع، أولاً تأكدي المسبق من أن هذا القانون سيمر مرور الكرام كونه مطلب العولة الجيدة، وثانياً مراقبتي ذلك النائب الذي كان يخصص شفثيه متلذذاً بكلماته، يبربش عينيه موافقاً نفسه حول عبقرياته، يرقص حاجبيه استنكاراً أو تعاطفاً محاولاً إيقاعك في فخ وجهه نظره الجوهريّة الفريدة، وزميله الذي يحرك كفيه ملولواً أنامله كمن ينقر أصابع البيانو، "يلخحك" ليطمعك تلك الأصابع الثخينة مثل حبات الزلايبا، فإذا ما انهمر صوته تيقن أنه أنشب أظافره في مخك الصغير البريء، وكتب رسالته الخالدة، إلباذته التي لا تبزها إلباذة.

الحقّ أقول لكم، لقد شاهدت مثل هذه النماذج تماماً كأنها نسخ كربوني أو جيني لا يقل عبقرية عن استنساخ النعجة "دوللي"، شاهدت هذه "المساطر" في منتديات المثقفين، وراقبت المثقفين يبربشون أعينهم ويمصصون شفاهم على الصورة نفسها، يلولوون أناملهم أو يتحدثون برؤوس منطعجة كأنها "ملوية سامراء" العتيدة، يعلّقون عيونهم في الأعلى إذا ما تحدّثوا كأنهم مثقفون كونيون، وقد يقبلون نظراتهم الطائرة الهائمة في الأفق كأنهم مستنسخون عن "القذافي"، وهنا بيت القصيدة.. لقد اكتشفت وجه التماثل والشبه بين المثقفين والسياسيين، إنهم خريجو مدرسة

درامية واحدة في فن الأداء والتمثيل، وقد تكون لهم التوجهات الحميدة نفسها، من هؤلاء الخبثاء الذين يقولون بمسافات ضوئية بين السياسي والثقافة؟ هذه إشاعة مغرصة يُراد بها شقّ الصفوف، ويجب وضع حدّ لانتشارها المدمر والمعيق لإنجازات مشتركة مباركة.

الحقّ أقول لكم، ما يجب أن يُلجَم، هو شطحات عقلي المدمرة التي منعني من تبين ما حدث حقاً في المجلس عدا تلك النتيجة التي لم أصدّقها ولم أتوقعها برّد النواب لقانون الخلع، برفووووو، ما نوال قادرين على التصدي للتوجه الدولي، والصراخ بأعلى صوتنا بلنّ رجالنا أكثر فحولة من أن يرتضوا بهذا الذلّ والعار في منح النساء حقّهن في الفراق مع دفع الحقوق المالية للرجل، وإعفاً من متربات هذا الزواج أو الطلاق، رجال حقيقيون، لا تُملى عليهم شروط ترفع ولايتهم على حرّيمهم وتحرمهم من حقوقهم في سحل النساء في ردهات المحاكم، رجال لا يرتضون الضيم، ولو جاء بأوامر من النظام العالمي الجديد.

أعترف أن "منذر" كتب الخبر عوضاً عن خبري مستعيناً بتقرير وكالة الأنباء "بترا"، ولكنه حوّر وعدّل قليلاً، ثم بكرم حاتمي كتب اسمي في مقدمة الخبر، فمنحني بهذا العطاء السخي شيئاً من الحرج المؤلم الذي جرّته ورأني إلى السيارة قبل أن أصدع "جبل الأشرفية"، إلى متى سيخفي زملائي الطيبون عثرتي! فجأة، يكاد صدري ينشقّ ضحكاً، الضحك الكثير الذي أمارسه سراً يثير الشجن ويميت فرحة القلب، ولكن كل ما يحيط بي يكتسب تلك الطاقة الكوميدية التي ستنتهي بي إلى الوقوع في جبة الحزن.

خبر "منذر" الموقع باسمي شفع لي عند مدير التحرير، بدا كما لو أننا ندخل مرحلة ثقة جديدة، فأخباري نموذجية، وتعليقاتي منعدمة، ودوامي منتظم، ومجلس النواب أبدى ثقته بالحكومة الجديدة، وردّ قانون العقوبات، وسحب جواز السفر الأحمر ممن امتلكوه زمناً من دون مسوّغ .. كل ما يحدث في البلاد والعباد يبعث على البهجة، ويشبه فرحة العيد على الأراجيح المخلّعة التي تتقابل فيها المقاعد الخشبية التي بالكاد تطير.. فرح غامر، وموالم غزل علي ومقبول ومشفوع له مع العزيرة أم يركا، يغازلون انفتاحنا وديمقراطيتنا، ونغازل كرمهم ومواقفهم الشجاعة في مكافحة الإرهاب ونشر محلات الفلافل في البلاد طولاً وعرضاً، أعتذر، موضوع الفلافل هذا لم يحدث أبداً، من أين لأم يركا أن تعرف أننا أصبحنا نحب الفلافل؟ وأن مطاعمها انتشرت بالسرعة

نفسها والاجتياح نفسه الذي تشهده مطاعم الهمبرغر والبتيوزا؟! الحق أننا نحشر أم يركا في كل شؤونا رغماً عنها، رغبةً منا ورهبة، وأن كثير بني منا يدعون بأنهم يفاج أون بتصريحات "بوش الابن" ومحبه العميقة لـ "شارون" ورعايته الدائمة لجارتنا التي وقّعنا معها معاهدة السلام (إسرائيل).. لا يخلو "بوش الصغير" من الحبث رغم طبيته وصراحته، فكثيراً ما يفاجئنا، فيحرن الرؤساء العرب مثل أطفال اكتشفوا أن رفيق اللعب في الحارة يتقاسم مع فتى من حارة أخرى سندويشاتهم، ويسمح له بركوب دراجتهم من وراء ظهورهم . ما ينال الرؤساء ببراءتهم الأولى، براءة يفتر لها الصحفيون والكتّاب، غير أن جارتنا "أم موفق" التي جاءت لتلقي خبر إضرابي عن الزواج، وجلست تفرقز نزو البطيخ أمام شاشة تلفازنا، وتصدر أصواتاً كقرض الفئران تتبعها بتفّ ناعم باتجاه كيس من النايلون، سألت جادّة لتجيب:

- شو رأيك يا صحفية؟ والله ما أنا داري من شو متعجبين! قال مش عارفين! انصدمو الحزاني، قطيعة، والله أني كنت عارفة هيك بدّه يسوي "بوش"، مش هجرة!

رغم ظني للوهلة الأولى أنها تقصد سداجة ابنها، إلا أني تبيّنتُ سرعتها في تناسي مهمتها الأساسية العائلية، عندما راحت تشاطرني نقاشاً سياسياً ربيعاً وهي تشفط الشاي قبل أن يبرد.. شعرت بالاسترخاء وأنا أجالس امرأة لا تحمّل نفسها عبء الإلحاح في مسألة الخطبة لابنها، خاصة أن بكاء "شعبان" بدأ يختلط بحديثنا . استمعت لإعجاب لتحليلها السياسي وتكهنتها حول ما سيفعله رئيس الولايات المتحدة الأم يركية. أذهلني بمعرفتها وذكائها، تحكي ما سيفعله الرجل وما قد يكون سراً عسكرياً وسياسياً لا يعلم به إلا خبراء البنتا غون، كأنها ضالعة مع المخابرات الأم يركية، تشير عليهم وتنسّق معهم، اللثيمة! هذا وارد في زمن الأعاجيب.. إذا كان صاحب الدكان على الناصية صاحب رقم ورتبة في يوم من الأيام الغابرة، لماذا لا تكون هناك أسرار حول أسلحة الدمار الشامل في حوزة الحيزبون "أم موفق"! أو لعل الحجاب رُفع عنها، فصارت من أصحاب الكرامات، وإلا كيف لها أن تعرف أن "بوش" سيساند "شارون" حتى آخر قطرة دم فلسطينية، رغم أن أحوالنا معه سمن على عسل، وبيننا من الخفايا ما لا يعلم بها إلا الله، و"أم موفق".

الرؤساء "يا حرام" يفاجأون بموقف "بوش" كل مرة، يُصدّمون "الحزاني" على حدّ تعبيرها .

بصراحة، للهجة الشعبية عبقرية لا تتمتع بها الفصحى، أما الحكام فلعلهم أكثر انشغالاً بحال شعوبهم، وهذا النمى "بوش" يغتنم الفرصة لمدّ اعتبارهم بقسوة، يتحرك من ورائهم ومن دون علمهم، يوزع سندويشات الزيت والزعتر التي أعدّها أمهاته م زوادةً للشبع، على أولاد الحارة المنافسة، ويترك "البسكليتات" الآمنة عرضةً لركوب المازّين من العصابات والحرامية الذين يحملون "الأمواس" والسلاسل القوية، وجارتنا "أم موفق" تحكي ما سيفعله "بوش" كأنها تقرأ أفعاله في فنجان القهوة المقلوب.. هذه المرأة ثروة قومية، وعلينا استغلالها كمحلل استراتيجي أو مستشار سياسي، ولكن منذ متى يستشير أحد امرأة مثلها؟! صيف حار، وقد جلس النواب لإعطاء الثقة بالحكومة، وقلت لمدير التحرير بثقة ما بيننا من ودّ مفاجئ:

- اعفني، يمكن "منذر" أفهم بالسياسة، أنا حابقاً أروح على مهرجان جرش. سيارتي تكرر، وهناك دخان أسود ينفلت من مؤخرتها بين الحين والآخر، أرهقني الميكانيكي عند نزلة "الأشرفية" عبثاً ببطن السيارة المسكينة، ومع ذلك قدّمها حتى شارع الأعمدة في جرش مسافة ساعة وسط تتابع السيارات الخارجة من عمّان لحضور المهرجان، قبل الوصول رحت أغني بصوت مرتفع أغنية لـ"فيروز"، ضحك "حسن" الجالس في المقعد المجاور متّهماً ذوقي بالخلل.

- مش حافظة إشي من شعر "أدونيس"! على الأقل وانّ رايحة تكتبي عن أمسية الافتتاح اللي بدّه يغني فيه.

- يا فهم، قبل ما تتفلسف شوف حالك، أولاً "أدونيس" مش مغني، شاعر، وبعدين شوي بحفظني هيك خزعبلات؟ لا يكون مفكره المتنبي!

- مين المتنبي؟

- واحد شغل الناس وراح، الله لا يرده، مش مه م.

- والله صايره مثقفقا

- من عاشر القوم أربعين يوم أ، وبعدين ها ي ثقافة عناوين، الأهم ثقافة الغناء الخفيف "أحاصمك آه".

واصلت الغناء، وحسن يردد خلفي "أسيك لا"، هكذا اقتنعت أننا نشبه مهرجان جرش السنوي ونقيم مهرجاننا الحميم في السيارة، غفرت للناس التصادم الذي لا يليق في المدرج الأثري الروماني

المبهر، نظراً لأن "نانسي عجرم" جميلة مثل دمية باربي وأحلى، تناسيت الازدحام، كما تجاهلت الحرارة التي انصبت فوق الرؤوس قبل ساعات من غياب الشمس، وظهور السنيورة الأثورة على المسرح الذي استضاف في الماضي "فيروز" و"ماجدة الرومي"، واليوم يقتفي آثار الموضة. ثوب "نانسي" كان على آخر خطوط الموضة، مشدود ملصوق، شفيف مثل أداء الحكومات النزيهة، وكانت الفنانة الفاتنة ذكية ومبدعة، إذا خانها الميكروفون أو صوتها، وفترت صفقات آلاف المعجبين المنتشرين المتسامحين مع أوجاع مؤخراتهم إثر الجلوس الطويل على حجارة المدرج، تستدير مثل حنظلة "ناجي العلي"، وتبدأ في وصلة تلوّ مثيرة ومبدعة تحتزل كل فنون الشرق، فشتعل الحماسة مجدداً في دماء المتعبين، ويصيح الحضور كلهم، أردنيين وسواحاً خليجيين وعرباً وأوروبيين فضوليين، يصيحون معاً وأنا معهم، بصوت قوي واثق: "أخاصمك آه، أسيبك لا"، ويهتف "حسن" بحماسة منقطعة النظر:

- تعيش "نانسي عجرم"، تعيش، تعيش، تعيش.

الغشيم، التبس عليه الأمر، فظن أننا في مظاهرة من أيام زمان. أما مقالي "الجرشي" فلم أسمح لـ "منذر" أن يضع فيه نقطة واحدة، في محاولة للتمرد ولإثبات قدراتي الذاتية، مع ذلك نال الاستحسان، خاصة أن الصحف الأخرى هاجمت ضيفتنا الفنانة بما لا يليق، ورحبتُ أنا بها مثنئةً دورها في إشاعة الفرح بين جمهور حزين. أنا شخصياً شعرت بالفرح، ليس هناك حولي من هو أجمل من "نانسي عجرم"، فكيف لا أفرح بالبقية الباقية من دلال المرأة وأنوئتها وسطوتها الجماهيرية، رغم أن مدير التحرير أساء الحكم عليّ مرجحاً أنني أصلح تماماً لمثل هذه الأخبار الخفيفة اللطيفة، فحرص على تحويلي إلى كتابة تقارير سريعة وموجزة عما حدث في برنامج "سوبر ستار" التلفزيوني، لو أنه تكرم بإرساله إلى بيروت أسوةً ببنت الكردي مذيعة البرنامج الحسنة، لهان الأمر، ولتحملت مشاق المهمة ببعض المشي على كورنيش البحر الذي لا نعرفه، أو في "شارع الحمرا" الشهير، ولكنه طالبني بمشاهدة البرنامج مساء كل أحد وموافاته عن حجم التصويت لـ "ديانا كروزون" ونوع الأغاني التي اختارتها منافستها "رويده عطية"، ورصد أي تطرّف بينها وبين الفتى مكنز الوجنات "ملحم زين"، وبالطبع كان لا بد من الإشادة بالحملة الإعلانية التي أطلقتها شركات الاتصال ومالكي الموبايلات



لدعم بطة الأردن ذات الصوت الذهبي . بصراحة كنت أنجز مهمة وطنية، وأتورط بالتصويت أيضاً كي لا أرى تلك السورية "سوبر ستار" للعرب، أما كفاهم مطربات ومطربات لأعوام طويلة سابقة، لفسحوا لنا مجالاً، "الأردن أولاً" وإنا قادمون، وها هي "ديانا" تشق الصفوف دافعةً بجسدها العريض وصوتها القوي جموع المتنافسين، الكارثة الوحيدة في هذا الشأن أي كنت مضطرة لمشاهدة البرنامج وسط الأعراف "رمضان" و"شعبان" و"فتحية"، بالطبع يجلس "حسن" لتخفيف غربي، أحب سخريته من الأمور التي تنبثق عن المهام الجسام، أحب بساطته، براءته، أحب نفسي معه حيث أكون نقية ككرة ثلجية، طفلة بجديلتين، أحب لارتقاء في أحضان بهجته الخالصة، هكذا أحتمل عمي وزوجي و"ملاكهما" الصغير، هكذا أحتمل العمر نعيماً وعذاباً.

في خضم متابعتنا الجادة للحملة الشعبية والرسمية لإيصال فانتنا الجسيمة إلى لقب "سوبر ستار العرب"، أتوقف لحظات أمام الهجوم على مقر الأمم المتحدة ببغداد بقتلاه وجرحاه الكثير، أتعامل مع روحي كما أتعامل مع غريق، أشرب فوق الموج وأتنفس وأحاول الإبقاء على ناري مشتعلة، لا أدعي أن مثل هذه الأخبار المكرورة توجعني إلى حد الموت كما يفعل الشعراء والكتّاب عادة، لعلني تبلدت قليلاً في سعبي لتوطيد أركان مناعي، لعلّي أقل حساسية من الآخرين في انشغالي بحماية نفسي من الانهيار، لعل هذا البرود حصني المنيع في وجه الحياة، لعل الكل مثلي، وإلا كيف يتسنى لشعبنا أن يواصل التصويت لمعبودة الجماهير ذات العيون الكحيلية والنظرات التي تذكر بلمعان عيني "سميرة توفيق" في صباحها رغم مقتل ممثل "كوفي عنان" في بغداد، ووقوع ما لا يقل عن مئة وخمسين إنساناً من لحم ودم مثلنا بين جريح وقتيل في انفجار حافلتين في القدس، وإيقاف "إسرائيل" للمباحثات بينها وبين الفلسطينيين! نحن مصابون بداء اللامبالاة. إنها خبرة السنوات الطويلة من الدماء المستنزفة وموت الأحلام وتوقف السعي نحوها والزحف على رمضائها. فقط نفتح أعيننا دهشةً عند اعتقال "طه ياسين رمضان" ونعود لتلك الأجهزة العجائبية فنضغط على أزرارها لإيصال دعمنا ومحبتنا وتأييدنا لـ "ديانا كروزن" التي وصلت إلى اللقب المعجز المثير، وتسمنت المكانة اللائقة الرفيعة في دنيا الطرب في الزمان الذي استلمنا فيه الجثمان المفتت لصحفتنا الصغيرة النحيلة "رهام الفرا" التي شطرتها القنابل أشلاءً في

بغداد.. بغداد.. بغداد.. جرح جديد، سأخيطه على صديده وأنساه.

صمْتُ حارتنا يشبه صمت العالم إزاء ما يحدث كل يوم . الغريب أن الحارة تكون في حراك قبل أن تقتحم "الفولكس" الصفراء الدرب، فإذا ما لاحت وعمّ المكان رجُعُ نشازها، تبتلع الأصوات امتدادها، وتنكفئ من دون مبرر، أهو مروري؟ متى أضحيت بهذه الأهمية؟ متى اكتسبت تلك الهيبة التي تدفع الصغار الذين كانوا يلاحقون الكرة ويتدافعون بالمنكب، إلى الاصطفاف عند جانبي الطريق مفسحين لـ"عطوفتي" الدخول بجلال إلى الحارة؟ أوقف السيارة عند أول النزلة، لا أثق بقوة المكابح فيها، وتراودني الأفكار أحياناً حول احتمال أن أصحو لأجد سيارتي تهورت حتى النهاية جارفةً في دربها عامود البلدية الذي يحمل إشارة "تمهل أمامك مطب"، إذا ما تراجلت من سيارتي بدا لي الشارع مثل لقطة في فيلم مشوّش بطيء، بسبب خلل حدث في بكرة التشغيل، يتحول الراكضون إلى مجرد أشباح تتحرك بصمت، يتناقص الهواء تدريجياً حتى لينعدم، حركة بليدة تؤكد كون كل ما يحيط بنا مزاحٍ سمج، الحركة الوحيدة التي ألحها في تلك اللحظة، يدُ صاحب الدكان المخابراتي المتقاعد تمتد نحو مذياع صغير معلق في منتصف بابهِ الحديدي، أتنبه إلى كون المذياع ليس معلقاً للعرض تماماً، كأنه محبّباً! يلوح بصعوبة بين كراكيب الألعاب البلاستيكية وفراء الأرانج ذات العيون الزجاجية الملونة .. تعبت يد صاحب الدكان بمفاتيح المذياع، أقترّب أكثر فأقترّب وراء شاشة بلاستيكية شريطاً بنياً كائياً يتوقف عن الدوران بتوقف أنامل صاحب الدكان عن العبث بالمفاتيح، أدرك من دون دلالة أن المذياع مسجل صغير .. عندما أجتاز الرجل، تتفتح الفكرة في مخيلتي، صاحب الدكان ارتد إلى الداخل بمجرد رؤيتي كلصّ مذعور ضُبط متلبساً، ورغم أن قدمي واصلتا جرّ جسدي باتجاه البيت، وأني كنت أختير نفسي بين الصعود إلى حجرتي أو السلام على جدّي في القبو، إلّا أن الفكرة اندلقت فجأة كحمم بركانية .. لماذا يسجل هذا المأفون؟! ولمن؟! إذا افترضنا أن الصغار اللاعبين في الحارة خطر على الأمن القومي، فإلن كل ما سيتداولونه هذه الأيام تحديداً مفاضلة ساذجة بين "ديانا كرزون" و"رويدة عطية" الرشيقّة، سينحازون لخير بلدهم الوفير وهو يفرض في زنديّ البطة ديانا. وإذا ما مرت "أم صبحي" فلنّها ستسأله عن سعر المطهر المقلّد لماركة "ديتول" والذي يفوح برائحة كريهة. وليس مرور جدّي بمحتمل ولا هو بمفيد نظراً لصمته. "أم موفق" الخطيرة قد تكون

غاضبة لحظة مرورها فتسبب "سنسفيل أبو بوش"، بوصفها متخصصة فيما يفعله في الشرق الأوسط، ولكنه تخصص لا يزعج أحداً ولا يتجاوز قيد أنملة قيمة وأثر المحللين السياسيين في الدوائر العربية شرقاً وغرباً. وبطبيعة الحال لا يظن صاحب الدكان أن "وداد" ستقف معاتباً فتاها النذل تحت حديد الدكان الصديء، هي تفضل درج بيتنا حيث لن تصل أصواتهما إلا إلى جدّي الحريص على كتمان الأسرار في بئر العميقة. وأنا أمر صامتة عادةً، وعمي المتجهم لا يحدث أحداً، و"فتحية" قد تترك صوت بكاء "شعبان" وهو في حالة مغص قوية مسجلاً كسيمفونية للفرع.. لمن يسجل هذا المتقاعد في حارة أحييت على المعاش أسوةً به!! أم هي الخبرة السابقة التي لا يمكن التحلي عن شرورها ومحاسنها!

لأن الفكرة اكتملت في مخيلتي، دفعتُ باب القبو الغارق في العتمة، داهمتني رائحة برميل السولار الذي تركته "فتحية" الحمقاء هناك، لم أنتظر لحظات لمعرفة طريقي، بسهولة عثرت كفي على ذراع جدّي، شدته مقهوهة:

- بعدك قاعد، قوم، قوم يا زلة، تعال نتسلى، نروح سوا، نحكي عند مسجل الدكان، مثل ما بدنا، عن جدّ مش مزح.. مثل ما بدنا، اعتبرها "هايد بارك الأشرفية"، تعال نحكي نكت سافلة يتسلى عليها صاحب الدكان في المساء، تعال نعرف عن أسلحة الدمار الشامل اللي مخبّئها في القبو، يلاً بطل لؤم، وعامل حالك ساكت وناسي، تعال نغّي ونسجل لصاحبنا الدكنجي أغنية "فوق الخيل فوق الخيل شد العزم وشد الحلي".

استجاب جسد جدّي لشدّ ذراعي، لكن ذاكرته أبت الانصياع، ولأني تمكّنت من رؤية نظراته الفارغة المحايدة، توقفت عن ثرثرتي وقهقهتي التي لا تراعي احتراماً، مررت كفي بنحو فوق جبهته، خصلة شعره المبللة بعرقه التصقت عند فوديه، ففاض قلبي حناناً، قبّلته وأنا أشتّم رائحته الحريفة الناشئة من تباعد أيام حمّامه الخاص، امتزجت رائحته بعنف برحيق السولار، وكأن حنجرتي همهمت بأحرف ما، سألته إذا كان قد تناول طعاماً اليوم، كعادته لم يجب، فانصرفت إلى المطبخ أبحث عن بقايا طعام لي وله.

يمكن أن أتعامل مع مجمل الحياة التي تمر ببرود يماثل برود الأمة حيالها، كأني عينة نموذجية لبلادة الإحساس، غير أنني ألقب جمري على طريقي. بصراحة، لا أعرف ما هي طريقي هذه. لم يعد

"حسن" قادراً على معرفة إمكانياتي وردود فعلي حيال الأحداث، وأشفقت على نفسي من هذه المسافة الغامضة بيني وبين قريني الأثير، ولكنه كان يفتح فاه مندهشاً وأنا أعلق على عملية اغتيال "باقر الحكيم"، وعلى مجازر النجف التي يتساقط فيها الضحايا تباعاً:

- فصل جديد في كتاب الملاطم الشيعية، شيء ملّم.

ليس ذلك أني لا أهتمّ، ولكني لم أعد أملك القدرة على تفتيت هذا القلب بين دم في العراق ودم في جنين، ومسجّل صاحب الدكان الأخرق، الذي إن كُشف أمره لن يحظى بكرسي وثير أحمر ككرسي أسياده، وسيكون من السهل جعله كبش فداء . أعتنق اليوم ما يمكن أن يسمّى "فلسفة البلادة"، يقول "حسن" إن دمي صار ثقيلًا، وإني بثُّ سوداوية إلى حدّ لا يطاق . أفكر جادّة في إعفائه من مرافقة هذه السوداوية، ولكن جانباً مضيئاً في النفس يقول : "حاولي مرة أخرى". يتجدد الأمل باستعادة نفسي مثلما يتجدد أمل الحاملين بالجوائز والهدايا كلما أطاروا غطاء عبوة "البيهي" ليجدوا تلك العبارة "حاول مرة أخرى".

مهنيّاً أحاول بوقاحة عالية، لأن توالي الخيبات يملي على الإ نسان المتزن الانسحاب في اللحظة المناسبة، وها أنذا أوصل وقد صم م ت أذني عن نداء المنطق، ومدير التحرير الذي تهاون معي مؤخراً وغفر جهالتي السابقة، متوقفاً أن الاحتكاك المهني لا بد سيعطيني الفرصة لأجود بقدراتي، عاد وتخلّى عن أوهامه، حين ناقشته مطولاً بضرورة أفراد صفحة كاملة للحديث عن خطيبة ولي العهد، "الأميرة نور" .. عندما ظهرت صورتها للمرة الأولى على صفحات الصحف تملّيت هذا الحسن الناعم المترف وتلك النظرة الحلوة، وقلت بحماسة: "إنه وجه ملكة". لم تعجب ملاحظتي الزملاء.

- صار ولي العهد ذا النورين، "نور" ثالثة وبطلع في الأردن كرز.

بكامل براءتي كنت أتحدث عن اسم "نور" الذي تكرر في حياة ولي العهد مرتين، مرة أمه، ومرة خطيبته، رغم أنني أعني بأن اسم الأم هذا مستعار لضرورات التنصيب الملكية.

انزلت كباتي "كعب الكباية" فوق أنفه وهو ينظر نحوي نظرة تحذير، وقال لي "منذر":

- وبعدين معاك!

الزملاء الطيبون يحاولون وضع المطبات أمام تهوري الجاني، لماذا يتمشى الذعر في الطرقات؟ حتى

لو لم تكن صحيفتنا "هايد بارك" الديمقراطية، فلننا ندرش ببراءة الأطفال، مجرد دردشة، حتى لو أن صاحب الدكان خبأ مسجلاً في مكان ما! فمثل هذه التعليقات تقال في الطرقات، تقولها "أم موفق" بشجاعة من دون أدنى حرج، تقولها "فتحية" وهي تقارن خبيثتها بحظّ النورين، المعتوهة، شو جاب لجاب!! لماذا لا نتمكن من الضحك مع أنفسنا وعن أنفسنا؟! ازداد اقتناعي بأننا شعب عبوس.

في صحيفتنا الغراء يجب وضع حد بين الجدّ واللعب، حفاظاً على وقارنا الأزلي، وتأكيداً أعلى قدرتنا الفذة بالاستمرار من دون الانزلاق إلى مراتب الصحف الصفراء التي تتحوّل الفأر جملاً. في كل لحظة أحتاج إلى تذكيري بموقعي الصحفي المتميز، وبالسياسة العامة التي لا تنسجم بتاتاً مع مزاجي. كثيراً ما تأتي الأخبار منسجمة معي، ولكن يُطلب مني تحديداً تقطيع أوصالها وتهذيبها واغتيال قيمتها ودلالاتها، كأن تدجيني لا يتم إلا بهذه العملية التعسفية. بمثل هذه الروح الباردة كتبت خبر ظهور قرد في حديقة مجلس الوزراء واختفا محج في الواقع كتبت بدايةً ما يشبه القصة القصيرة. ربما منذ هذه الحادثة اكتشفت رغبتني الخفية بالتحول إلى دنيا الكتاب المبدعين.

تنطّط قرود الكلام في رأسي مثل القرد الذي ظهر في الدوار الرابع مقتحمًا مبنى رئاسة الوزراء العتيد المحاط بالحرس والرشاشات لأوتوماتيكية. هذا القرد المجلوب حتماً من غابات إفريقيا والذي لا يوجد له شبيه عندنا، ربما في حديقة الحيوانات، هل يوجد لدينا حديقة حيوانات أساساً؟! لا بد أن القرد النادر فرّ من أحد البيوت الفارحة للدبلوماسيين والأثرياء والتي تشق جبل عمّان وصولاً إلى الضواحي الغربية. أعتقد أن الأمر على درجة عالية من الأهمية والخطورة بعكس ما أبديته عند صياغة الخبر الجاف الذي وافق عليه مدير التحرير. لا بد من طرح أسئلة كثيرة: ما الذي أتى بالقرد إلى هذا المكان تحديداً؟ وكيف لم يبلغ صاحبه عن اختفا محج؟ فليس من المنطقي الافتراض أنه بلا صاحب يقننيه في بلاد لا تتوالد فيها القرود. هل كان مزوداً بجهاز تسجيل أسوة بمذبايع صاحب الدكان؟ أو لعله يحمل فيروساً لإيدز المدمر وأطلق لهدفٍ ما نحو مبنى رئاستنا الموقرة كما تُطلق العملات الصينية في شوارع مدينة إربد.. ثم وهذا الأهم، من هم الموظفون الذين قضوا نهارهم يحاولون لإمسك بذيله المنفلت الطويل وهو يتقافز كالعصفور من فنن إلى فنن في الحديقة الغنّاء قبل أن يختفي تماماً؟! كل هذه التحليلات الذكية المرافقة

للخبر قمت بقصقتها كخيطة ماهرة تصغر ثوبها ليليق بصغيرتها . حزت إعجاب مديري، ولكني لم أرض عن حرفتي المريضة تلك. لا يروقني هذا التبسط في معالجة أمر مثل هذا، كما لم تعجبني نظرات الاستنكار التي حدجني بها "سحلية" عندما تغزلت بعيني الأميرة الجديدة، نحن نقزم الكبير وننفخ بالونات الصغيرة، ربما لهذا أضعنا فلسطين، ما أغرب ما تأتي به الأفكار! ما علاقة فلسطين بالقرد الهارب في حدائق جبل عمان الغناء؟!

كلّ ترّهات النهار التي أحاول تفاديها بوصفها نفلًا زائدًا في حياتي التي لا معا لها، تعاودني ليلاً. تبدو الأشياء بعيدة متنحية عن دربي، لكنها تتسلل كلص ظريف في خفايا النوم، تحديداً في الأيام التي أنسى فيها اصطحاب "حسن" إلى سريري، بتّ أنسى اصطحابه أحياناً أسوءً بكل العشاق الملولين . يظل جالساً في كرسيه يراقبني وأنا أتعرض لاغتتيال أحلام المنامات . تخرج أحلامي من عباءاتها وتتمشى في حجرتي. تتجسد كأنها ممثلة إغراء تفضح جسدها على خشبة المسرح. تأتي الأحلام أحياناً على هيئة "فتحية" وعمّي، وهذه ألطف تجسّداتها . تبدأ "فتحية" بالدوران حولي بحركة منتظمة، يتبعها عمي أو يسبقها، لا أتمكن من التحديد، ذلك أي نائمة والموقف دائري للغاية . "فتحية" تحمل "شعبان" في بعض الأحلام ، وقد تحمل مغرفة شوربة العدس، يخبئ عمّي وراء ظهره شيئاً ما، ومهما بذلت جهداً لاكتشاف هذا الشيء وتحديد ماهيته أفضل، فكلما تمكنت من رؤية معصمه أكملّ دورانه حاجباً الشيء عن مرمى نظري، وفي معظم الأحيان لا أتحرك . مرات قليلة كنت أسبقهما وأشارك في حركة الدوران المهووسة حتى أدوخ كما في حلقة الزار، فأعاود النوم من جديد، ولا أكاد أميز الحلم من الواقع، يحيل إليّ أن دوراننا هو الواقع فأهرب منه بالنوم العميق، لأسقط في فح طبقة جديدة لحلم آخر، يتجسد بصورة قاسية ويفتقر إلى رحمة الله، تخرج الأحلام من أجساد حيوانية . يكون هناك جمع من الضباع يأكلون لحمي بنهم وشراهة، وأشعر بدمي يسيل على فتحات شفاههم المدلاة، ثم، كما خلق جديد، يتجدد اللحم في نموّ أكثر إبلاماً من انتزاعه، وأتقلّب في هذا الوجع المضني قبل أن تلوح إشارة تنبني بأن ما أراه مجرد حلم يمكنني الاستيقاظ منه والتقاط أنفاسي وتخفيف عرقي عند أول بارقة للفجر . أنظر بعتب نحو "حسن" كأنه من تسبب في وقوعي في الهاوية بجلوسه البارد على الكرسي مراقباً . النذل يريدني أن أستدعيه دائماً، لا يأتي حين الحاجة من تلقاء

نفسه . الحبيب يشعر بنظرات العتب المسلطة عليه ، تنهار المسافات بيننا ويقترب ويحتويني،  
نتشغل بَعْدَ تجاعيدنا على الجفنين المرهقين في زاوية الفم.. حيث تحمل كل ابتسامة المأ  
غامضاً.. لم نعد أطفالاً.. اجتزنا مفازة الصبا.. دخلنا في البرزخ.. حيث لا فكاك وحيث نسرق  
أفراحنا من غضون الوجه الحزين، من العلامات التي تحدثها المخدات على وجناتنا حين تتكرمش  
جلودنا وتنسحق وجناتنا، من هناك نسطو على لحظات حلم اليقظة فنحلّق والعالم يهبط،  
يسقط وراءنا، نغرد في زمن النوح.. لكوايبس الليل فوائد إذا ما انتهينا بالقاء أنفسنا في فردوس  
المتعة، أعرف أنا و"حسن" أن حباً كهذا ما كان ليتحقق لولا الحجرة الخضراء.. بتث شيئاً من  
بهجتها وإن بهتت، مغلقة على سرّنا الأزلي حيث يمكننا الإجهاز على الكون وصنع عالمنا  
الخاص، ما أزال لا أعني أيّ التفاصيل هي الحلم، وأيها الواقع، أعرف أنني عندما أغمض عيني  
سيكون سهلاً تماماً أن يتلاشى هذا ال"حَسَن" الذي رافقني عمراً، ينفلش مثل هباء، كأنه ما  
كان، كأنه شوال عبأته رملاً، خواء حشوته زمناً برّجُل! رجل لا يستطيع أن يمد يده وأنا أهو ي  
من جرف عالٍ! رجل لا صوت له يناديني! لا يكون إلا إذا ناديته باسمه، ولا يتشكل إلا إذا  
رسمته على أطراف الخيال، ماذا أفعل عمري كله بهذه الدمية التي فصلها خاطري واخترعت  
وخطت صفاتها على هواي؟! هذه مرحلة جديدة من أحلام الصباح.  
يحدث خلط كبير، قبل أن يبدأ عقلي باحتلال مكانته ويتقدم ليحلل ويفصل ويعيد ترتيب  
الأشياء.

الكائن الذي أصيره عندما أرتدي ثيابي وأخرج مفاتيح سيارتي وأنا متجهة نحوها قطعاً غير الذي  
أظنه بنفسني، فأنا لم أتبين مدى تلك الرهبة التي يُحدثها مروري لولا صمت الشارع، كما لم أتبين  
مدى الغموض الذي تتحرك فيه علاق تي الشائهة الشائكة مع "فتحية" وزوجها، إلا وهي تعبر  
الشارع بمحاذاتي تحمل "شعبان" بوجد وجزع أم حقيق يّ تشقق كيس بطنها لانتفاخه بالثمرة،  
وشطر فرجها عندما أطلّ رأس منه نحو العالم، أحبي قدرتها على لعب الدور بجدارة، ولو أنها  
تفادت الالتقاء بي عند الدرج، قلت باستهانة:

- غ وين من الصبح؟!

- عمك طلع بدري.

هذا ليس جواباً عن سؤالي، أي حوار عقيم يقوم بيننا نحن سكان البيت نفسه الذي سيؤول إلى قطعة اللحم الباقية بين ذراعيها . أوشكتُ أن أكمل طريقي، لكن صيحات "شعبان" الممرورة منعتني، كأني انزعجت أيضاً لإجابتها البليدة، ماذا أتوقع من "فتحية"! كتلة الغباء التي أمامي، ماذا أتوقع منها؟ ها أنا أتقلب بين احتقاري لها وإعجابي الذي مرّق كسهم منذ ثوانٍ.

- طيب، على وين؟ بوصولك.

لا أعرف سبباً لكرمي الصباحي هذا، إلا أنني لم أكن راغبة في الوصول إلى المكتب . أشرق وجهها، الأمر يستحق إذا كنا سنكتشف إشراقة لوجه السيدة "فتحية" الكظيم . انفلت لسانها متحمساً:

- يكثر خيرك، والله بدّي أقولك، بس خفت نعطلك عن شغلك.

أيّ شغل! تحرير فلسطين بانتظاري! واصلت حماسها رغم صمتي:

- "شعبان" زي النار، طول الليل ما نام.

هل رأى كوايسي تتمشى في حجرات البيت ليلاً!

- خير!

- لوزة ملتهبات، وقلت لعمّك من امبارح ما أخذ ولا أعطى، الله يسامحه، هيّ الولد طق من العياط.

ركبتُ سيارتي الصفراء للمرة الأولى. لم يركب أيهم سيارتي، وحده "حسن" يرافق مشاويري . علا صوت "شعبان"، من دون إكراه اصطحبت الضياع معي إلى حيز يخصني وحدي . تواصل صراخه، وأنا أقود سيارتي بلهفة الأم نحو "مستشفى الأشرفية". تقمصت الدور الإنساني تماماً من دون أدنى إحساس بأني أمثل . كنت صادقة كما يجدر بي . لا يمكن القول إني صنعت معجزة هذا الصباح، فكل ما في الأمر أنني اصطحبت امرأة وطفلاً إلى المستشفى ثم جلست أنفرج على أرتال المنتظرين دورهم، يحملون أوجاعهم ويراكمونها في مقاعد الانتظار المنخزة المكسرة التي تصيب العامود الفقري بالتواء غريب . الروائح الحادة المنبعثة من كل جانب، والآهات ، والعيون المنكسرة، والأجساد التي تجرّ أوجاعها في الممرات الطويلة العابقة برائحة الصنّين والمطهرات ..



الممرضات اللواتي يتحركن بثاقل، والأطباء الشبان الذين يرخون السماعات الطبية على صدورهم.. كل هذا الوجد صفعني بقسوة وحرّضني على تحقيق صحفي، حين قالت "فتحية":

- روحي لشغلك، احنا بنستّي الدور.

- هذا شغلي.

نظرتني بعيون ماعز تفتقر إلى الفهم . أكتشف الجانب السيئ في مهنتي المقدسة . صار الوجد مهنتي، شغلي . الموت سبق صحفي مهم، ربما مثل الحانوتي الذي يفيد من تكاثر الموتى، أصبحت أجد لذة للوجد، بمعنى أنه يشكل المادة الأولية للخبر الصحفي . عبرت درب الاحتراف باتجاه موات العواطف . هل هي مهنتي المسؤولة عن هذا المنحى ال لاإنساني، أم إنها طبيعتي التي ساعدتني وأنا أصحو من كابوس الصباح كي أغازل "حسن"، ثم أمضي كأبيوة مواطنة لطيفة حساسة في توصيل "شعبان" إلى المستشفى ليعالج من التهاب في لوزتيه!

هناك معلومات لا يمكن التأكد من صحتها إلا بسؤال مختصّ، لهذا راودتني فكرة استيقاف أحد الأطباء الوسيمين الذين يمرون مزدھين بمر ايلهم البيضاء، لسؤاله عمّا إذا كان التهاب اللوزتين قادر على قتل طفل أتمّ عامه الأول فقط! يحق لي أن أفزع من أفكار شيطانية تداھمني في أنبل اللحظات الإنسانية، كأني مندورة للشرّ، أو أني جئت للتأكد من موت الرضيع لا إسعافه، لهذا رفعت حقيبتني التي كنت ألقياها بإهمال على الأرض، ووقفت بنزق منصرفة من دون النظر نحو "فتحية" وكبشها الصغير الصارخ في حضنها والذي أردته لوهلة أضحية مناسبة، خاصة وقد ارتفع أذان بصوت شجي وفي غير أوقات الصلاة من مسجد "أبو درويش" المجاور للمستشفى. غيرت رأيي عند وصولي إلى المكتب، لم يعد جسد "شعبان" الواهن المريض أضحية مغرية، وكأني أتطهّر بسبب من وجع الصرخات التي جاد بها الرضيع هذا الصباح، كأني غفرت له جريمة ارتكبتها بتشريفه إلى الدنيا فرداً لا لزوم له إلا سرقتي مع سبق لإصرار والترصد . تدرج الغفران إلى فؤادي المتعب مثل مسيح ، ولعلي كنت أسير منومة بفعل هذا الشعور العذب بالارتياح، لأصطدم بصدر "أمرك سيدي" ، الذي كان يستعد لمغادرة الصحيفة، إلا أنه انخرق إثر اصطدامنا العفوي وساوى بين خطواتنا، فدخلنا المؤسسة معاً، قال بارتباك مكشوف:

- كنت رايح..

لم يكن لبقية الكلام الذي يمكن أن يقال معنى، رايح! جاي! لا شأن لي، واصلنا الاستماع إلى صوت خطواتنا الصاعدة إلى المكتب، راح يعيد ترتيب الأوراق أو نبشها، محدثاً فوضى بلهاء، لعله يبحث عن ورقة نسيها فأعادته، أطل "هيد آند شولدر" عند الباب محتجاً:

- معقول، بعدك هون! وأنا بفكرك سبقترا.

رفع كفاً تائهة أمام وجهه، وحكّ جبينه بسرعة وهو يجيب:

- ورقة السفير!.. كانت هون! هيهها، أأاوف، الحمد لله.

خرجنا يضربان الأرض بقدميهما كأنهما في استعراض عسكري، تبعهما "سحلية" كما لو كان يتزحلق في الممر، وهرش "منذر" رأسه قبل أن يضرب مفاتيح "الكي بورد" صارخاً:

- ما صارت، ما صارت.

هل كان عليّ سؤاله عن هذه التي ما صارت ويبدو أنها صارت اليوم! لم أستغرق وقتاً طويلاً لأقرر أن لا أسأل، بي من مخلفات الأنين في "مستشفى الأشرافية" الشيء الكثير، وما أزال أحاول استبعاد وخزّ الضمير المتململ الذي يلومني على ما تمنيته لـ "شعبان" البريء، واستحضار عذوبة الغفران الذي غمرت به هذا الصباح، وليس من المنطق أن أزيد حساسية روعي بمتابع "منذر"، أظن أن السبب نفس هودفع "كعب الكباية" ليتسلل بعيداً كأنه في إعلانه الدائم بأن كل ما يحدث حوله لا يعنيه، وما هو إلا مجرد مصحح عجوز مسالم يعرف حدوده والخط الأحمر الذي يقف وراءه بتبجيل كبير.

مساءً، استغرق "شعبان" في نوم عميق بفعل المضاد الحيوي الذي دلّته "فتحية" في فمه، واسترخت الأجساد الثلاثة المتعبة على الأريكة في الصالة، وأصدر التلفزيون وشهد المنتظم والمعتاد، مرافقاً أزيزَ الثلاجة في إيقاع منتظم يسمح بسماع رجوع أنفاس "رمضان" كخلفية ناشرة، وحتى هفيف الهواء الناجم عن تقلّب "فتحية" على جنبها إذا ما مر وقت على تحنطها في جلسة ثابتة. إنها سيمفونية الحياة في البيت الميت . فجأة، وعلى الشاشة الفضية المشوشة رأيت التي "عمرها ما صارت، ولكنها صارت اليوم" . كان الثلاثي السائر بيمن الله ورعايت هـ، "سحلية" و"أمرك سيدي" و"هيد آند شولدر" يسرون جنباً إلى جنب وقد ارتدوا بزاتهم الرسمية، ويحملون (للعجب) أزهاراً مثل عشاق أفلام الأبيض والأسود، يتوسطون شاشة التلفاز كما لو أنهم بصدد

الحصول على الأوسكار العالمية، يتحركون برزانة العلماء الأجلاء السائرين في ممر مفروش سجاداً أحمر للوصول إلى منصة التكريم. مططت عمودي الفقري من دون أن أرفع مؤخري عن المقعد، والتقطت محوّل التلفاز رافعة الصوت في أول بادرة اهتمام مني بالبث المرئي منذ انتهى ماراثون "سوبر ستار العرب". لم تكن المعلومة صعبة أو بحاجة إلى تعليق، فالصحفيون المنفتحون، "الليبراليون" كما يسمّون أنفسهم، الأبرع على وجه البسيطة، الأكثر إدراكاً لمقتضيات المرحلة، والأوسع أفقاً، كانوا يتقدمون على الأقدام مسيرةً تذكارية لضحايا الحادي عشر من أيلول بصراحة، أنا لم أستوعب في البداية عن أيّ ضحايا يتحدث المذيع، وأي حادثة عشر من سبتمبر يعني. قام دماغي بعملية مسح سريعة حول الضحايا والمذابح وكل "هولوكوست" طالت حياتنا وعرفناها، وعاد خائباً. أدركت أنني بحثت في ملف مغاير عندما وصل ركبُ المسيرة إلى السفارة الأم يركية، فانحنوا كما في المعابد الهندوسية، ووضعوا بخشوع حزينٍ أزهارهم، قرنفلًا برتقالياً، وورداً أحمر على ضريح متخيّل للضحايا الذين لم نرَ أشلاءهم كما يحدث مع ضحايا جنين مثلاً. هؤلاء الضحايا الذين قضوا بموتٍ نظيف للغاية لم نعهده في شرقنا العربي ولكن أميركا علّمتنا إياه. ها زملائي اللامعون يعتذرون عن همجية الإرهاب، ويتحولون من فتيان أتوا من قرى الجوع والأحلام الميتة والنضال العقيم إلى أصحاب ياقات بيض في أحد أهم أفلام الكاوبوي العالمية، يعلمون الأمة درساً في الوفاء لذكرى البرجين الشاخين وقد اخترقتهما الطائرات فتهاويلي في لحظات، يفتحون أعيننا على حجم الدمار الذي ساقته لحظة تعصّبٍ أعمى اندفعت إليها شياهُنا السوداء الضالّة، يدفوننا للاعتذار عن وجود رهط من المتحمسين يعمدون إلى مقارنة مآسينا الأبدية المكتوبة لنا، والتي ساقها إلينا قدرٌ أحرق الخطى، بمآسي الدول الكبيرة. ما وزنٌ وقائع مارقة مثل تلك التي تدكّ البيوت الصغيرة في الأراضي الفلسطينية، وتبعثر الأشلاء المدمّاة التي كانت أعضاءً في أجساد بشرية قبل أن تشطرها قذائفُ شارون؟! فالمقارنة عمل خسيس، لأنه يعني إصرارنا على تنمية نزعة الإرهاب فينا، والإصرار على عناد مريب في أن نرفع رؤوسنا.. لكل هذا، بدا زملائي الأعزاء سفراء نموذجيين لروح التسامح التي نتحلى بها كحضارة عريقة.

أما إصرار أبي الغائب على الحضور في مثل هذه الحالات، والزج بصورته الباهتة بين ناظري وشاشة التلفاز كما لو كان مومياء رماها سراقها، فليس إلا نزعة مَرَضِيَّة تَحْصِنِي وحدي، وَعَلَيَّ معالجتها في أقرب فرصة ممكنة.. ربما، أسوءً بسواي المستنيرين، سأتمكن من الذهاب في الذكرى التالية لهدم البرجين الجميلين إلى السفارة أحمل قرنفة بيضاء.

لم يعد في الشاشة ما يغريني بالمتابعة الحثيثة ولا حتى الاستماع إلى سيمفونية البيت المعتادة، أزين الثلاثية ووَشَّ التلفاز وأنفاس عمِّي وهفيف ثوب زوجته، والجنون المنبعث من التواء المغنية الصغيرة روي على قناة "مزيكا" وهي تصدح بـ "إنت عارف ليه، بحبك ليه، وحبك ليه بيحلالى؟!". .. ما يدريني!! وها هو بطل الشاشة الأسبق "الصحّاف" الذي جعل الإعلام يأخذ دور البطولة في الحرب، يلعب دوره في مسلسل الاعترافات الجديد . لم يعد هناك ما يهمّ، كل الأشياء آخذة في الذبول.

أقلب الشاشة الفضية بالضغط على الأزرار شمالاً ويميناً.

يعلن التلفزيون الأردني تشكيلة وزارية جديدة . المتحدث الرسمي في التشكيل الجديد امرأة، هناك ثلاث وزيرات، تقول لي "أم صبحي":  
- عقبالك يا صحفية.

فأفرط ضحكاً . نباري العالم في تمكين المرأة، ولنا في تاريخنا صولات وجولات، منذ ألف ليلة وليلة، وطلع الصباح وسكتنا عن الكلام المباح!

دخل شهر رمضان، بزغ هلاله رقيقاً كايماً كأنه سينكسر، تعلقت بانثناج الجميل مثل فقيرة على أرجوحة تكاد توقعها أرضاً، تدريجياً ما لبث أن تدور بدراً، فقاعة تعتلي الكون وتغري بنفخها بعيداً، كانت فاتنة الس نحتها المخضمة نبيلة عبيد ترمي بألفاظها الإنجليزية على رؤوسنا حجاراً ثقيلة، "وات هايند؟"، "هونست"، "يس"، وكنت أشهد انكسار الجميلة التي لعبت دور رابعة العدوية، وأقول: "هو بعض هذا الزمان، فلشتدي زيم.

أحتمي بالأرشييف بحثاً عن وقائع لطيفة و آراء نزيهة يكتبها مدبج و الأعمدة اليومية مُشيدِين بالتشكيك الوزاري الجديدة، وكل تشكيك وزاري عرفته هذه الأصقاع، أرتال من الصحف المصفرة المهترئة، التي تفوح بعقب الأغبرة.. للرائحة قتامة ترى وتسمع، والورق خشن افتقد جدته، ولكن

الكلمات نفسها ما تزال طرية ومتداولة، كلها تدبج في مديح الظل العالي، "مديح الظل العالي"! من أين سقطت هذه العبارة على ذاكرتي المنهكة؟ لعلها بعض مخلفات أولئك الذين أركبهم الباص المتدهور عند أعلى قمم عجلون الجميلة . المقالات في العموم تفضح فساد ما مضى وتُعوّل على ما هو آت، والأزمة تتشابه، الحقائق المغيبة تتناسل وتنمو لها الفروع وتجوّد بالثمار، ما بين ذاهب وآتٍ وكأنّ الزمان ذاتُ الزمان، حيث يحنق كتّابُ الأعمدة الحكومات الجديدة بالحب والأمل المرتجى والتطلعات العراض.

حلّق رئيس التحرير في وجهي المغبر من أترية الأرشيف قائلاً: "شو يعني؟ شو بدك تقولي؟". لا يمكن شرح كلماتي، الأوراق تشرح نفسها، هو مقال لطيف حول الأغنية التي يصرّ الكتاب على ترديدها في كل المحافل غير منتبهين لتبدّل الأزمان والبشر، مجرد مداعبة ساخرة، كلماتي لا تقنع رئيس التحرير الذي يرفع حاجباً ويّرّم عيناً واحدة مستنكراً، لافتاً انتباهي إلى أنني ألعب كثيراً ولا أنتج شيئاً مفيداً، وأنه لم يعد يحتملني، رغم لحظة الغضب العابرة التي شعرتها وأنا أمرّ بالأرشيف والتي أوحّت لي بللقاء عود ثقاب يأكل يابس الأوراق الصفراء المتراكمة، فقد ردعني وجه موظفة الأرشيف "أم أشرف" التي ابتسمت بودّ أمومي لدى مروري .. ما ذنبها إذا كانت محاطة بكل هذه الترهات؟ هي على أية حال امرأة تعيل أسرّتها وتخلص لمهمتها. رفعت ابتسامتها غضبي، بل وغمرتني بالرض.

رشرش المطر نافذة حجرتي الخضراء، وغتّى عند ارتطام القطرات بالزجاج البارد موقِعاً نغماتٍ أشبه برجع نقرات حاملة على "دريكة"، داعب خيالي في تصورات متتالية عن بشر يسيلون فوق الزجاج صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، أو قطعاً تشبه تلك المختبئة في الزوايا المخفية عند أسفل الشارع، ينشز صوت رذاذ المطر مستعيراً نعمةً من نشيج سعال جدّي، وتنساح القطرات خطوطاً.. أتأمل من دون إجهاد تلك الصور التي حوّلت نافذتي إلى خريطة لامبراطورية الكون المتشابكة المتقاطعة المنفصلة من دون رحمة، أتتبع بإبهامي من الداخل الخطوط نفسها، ثم بعث لا أدري دوافعي منه، أبدل بلصبي المهدّب بلصبي الوسطى وأعمل في الكون تجريحاً. كيف للمدونة الكاتبة أن تعلم ما شعرت به، إن ألّفت أو زوّرت على لساني مشاعر ومواقف تزعجني؟! كيف أعاتبها أو أنكر؟ ! أصبحت كلّها ملكاً لها، تقتلني كما يحلو لها، فأموت

مبتسمةً مسترخية. لعله حلمٌ حقاً، ربما أكون نائمة الآن في دفء ذراعَيَّ "حسن"، إذا لم يكن هو ذاته حلم أأبله، إذا لم يمت كسواه، بموتي قد يموت، فنستريح معاً على السرير الذي يفوح برائحتنا، أجتزّ الجراح وألحقها، ربما، هذه طمأنينة ترفة فادحة أستبعد حدوثها في الحياة واقعاً، حتى وجه "حسن" بدأ يتلاشى، ما عدت أذكر لون عينيه، ولا رائحة أنفاسه، ولا ملمس جلده، ما عدت أستطيع تجميع ملامحه كأنه لوحة "بازل" مركبة وصعبة، لم أعد أساساً متحمسة لمثل هذه اللعبة وقضاء العمر في تجميع نطف الصورة، وما ضرّني لو ظلت اللوحة غائمة وملتبسة، ومضيعة!

كلُّ ما مرّ حلمٌ سمج، لا أتذكر شيئاً، لا أريد أن أتذكر شيئاً، لست في المكان نفسه، ليست المدينة نفسها ولا الزمان، كل هؤلاء لم أعرفهم، لا يعينني أن أتذكر، أنا هكذا مرتاحة، سعيدة، أشعر بالصفاء، هذا الغيم في السماء غيمي، لم يرسله أحد إليّ، هو من بنات مشاعري، من رجع خواطري، من شوقي للمطر، من اتكائي الطويل على شفا الهاوية، من شجاعة أناملي على الإمساك بظلال حلم، تشكّل أو انكسر، من جرأة إصبعي المشاغبة على العبث السفه مع صور الكون.. هذا الغيم غيمي، والسماء سمائي أراها تنطبق على مهلها، دهليز طويل شفاف رائق بانتظاري، كأني لا أرى السيارات المسرعة تفرّ من أقدارها، كأني لا أعلم مسبقاً بأمر الموت الذي يعدّه جدّي الناسي وهو يشعل النار في قاع القبو لتمتدّ السنة حارّة وكاشفة ومجنونة من قلب البناء وصولاً إلى البيت موصد الأبواب، كأني لم أساعده بتاتاً بتحريض نار قلبي على الانتصاب لتشرق شرراً في عتمة داخلي ثم تحترقني إلى الخارج مساندةً النار القادمة من القبو، والتي تسللت دخاناً رمادياً وحرارةً واعدة قبل أن تنقضّ بشراسة مطيحةً بالباب الخشبي، وتعيث الفوضى بالأرائك وتوصيلات الكهرباء المكشوفة التي تطاير شرراً شروداً فاتناً، يستنسخ التماعات وهمية مبهمة وسط سحب الدخان الداكنة التي اقتحمت حجرتي مثل غائبٍ عزيز ملهوف وراحت تنفث نجومماً باتجاه النافذة وترتدّ بدفع الهواء ورذاذ المطر، لم أهرع لعناقها، ولكني ألتوي على ناري، أتقّوس مثل جنين، أضمّ ركبتيّ بيديّ، ثم أحنى رأسي للبركان واضحةً وجهي في أحضان إضمامتي، أشتّم الحريق في أغطية السرير وأوراق الصحافة التي تصير رماداً، أرقب بلاغة

النار تتراقص مضطربةً في فضاء الحجرة وتوقع عزفاً مشتركاً ومتنافراً وعبقرياً مع انهمار المطر في الخارج، أسمع العويل القادم من المجهول، تعالي.. تعالي..  
يتمدد "بريموس" الغاز بانتظار انفجار وشيك، أسمع دويه قبل أن يكون هناك صفير يشقني تماماً، أصارع استغاثة اللحم المشوي، وجبة النار الشهية وأظافرها المنشبة في الفؤاد، وصولاً إلى ذروة الموت ورعشته، وأسلم خيالي للون الأرجواني الذي تمازج في فضاء الغرفة بدخانها الداكن، أميت أعصابي عن الوجع المستشري باللحم والدم، أترك النار تلحسني جذلي، تعشقني جوّه وبزّه، وتنسب لها بما في دمي، تطهر الروح والجسد معاً، تفتتني ثم تعيدني إلى أصل الأشياء، تحرق آثامي الطفيفة، وتقضي على عطر التفسخ الآدمي وعفونته، وتعدني عروساً للبعث من جديد، وداعاً.. وداعاً..

يضيء الماء عبر النافذة، قبل أن يخرق طائرٌ غامض رمادَ الحجرة الأسود نحو النور الوهاج.  
لعلي كنت "نارة"، حارسة النار والماء، لعلي تخاطبت وحارسات الروح، لعلي لم ألتق بشراً مبللين بالماء مشتعلين بالنار، لعل قلبي القوي حصانٌ وحشي متعب يتوق لبرية لا نهائية، لعلي لا أنشغل أكثر بمصيري، لعلي لم أكن أبداً .. من الأجدى، أن أنصرف إلى النسيان، أغلق جرة الآلهة على ناري بانتظار زمن جدي.